اشبيلية في القرن الخامس الهجري

دراسة أدبية تاريخية

لنشوء دولة بني عباد في اشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها

٤١٤ ـ ٤٦١

تأليف
الدكتور صلاح خالص

دار الثقافة
بيروت ـ لبنان
١٩٦٥

مقدّمة

كان أجدر بهذه الدراسة أن تظهر قبل دراستين نشرتهما عن الحياة الأدبية في إشبيلية في القرن الخامس الهجري ، كانت الأولى عن الوزير الاشبيلي الأديب محمد بن عمّار الأندلسي[1] ، وكانت الثانية عن ملك إشبيلية الشاعر ، المعتمد بن عبّاد[2] ، لأنها تمهيد لهما وايضاح لخطة البحث التي اتبعت فيهما . بل إني لا أعدو الحقيقة اذا قلت إن التفهم الكامل لحياة كل من المعتمد وابن عمّار إنما يعتمد على هذه الدراسة الأدبية التاريخية للمجتمع الاشبيلي في القرن الخامس الهجري ولدولة إشبيلية التي نشأ في ظلها كل من الشاعرين . ولكن ظروفاً خاصة جعلت القسم الثالث من هذه الدراسة وهو « محمد بن عمّار الأندلسي » يظهر أولاً ، ويتلوه القسم الثاني عن « المعتمد بن عبّاد الاشبيلي » ، ثم تمر قرابة سبعة أعوام قبل أن يظهر القسم الأول الذي هو بين يدي القارىء الآن .

وقد رأيت أن أضمّن هذه المقدمة خلاصة للآراء التي كانت مرشداً لي في

(١) صلاح خالص ، محمد بن عمار الأندلسي ، ص ٣٦٠ ، بغداد ١٩٥٧ .
(٢) صلاح خالص ، المعتمد بن عباد الاشبيلي ، ص ٢٦٣ ، بغداد ١٩٥٨ .

البحث لأستغني وأغني القارىء عن الإعـادة والتكرار ومحاولة تفسير أسباب هذا الرأي أو ذاك في تأريخ المجتمع الأندلسي وأدبه . ولا أظنني بحاجة الى القول أن هذه الآراء في النقد والتاريخ ليست إلا ملاحظات قصيرة يتطلب إيضاحها غير هذه المقدمة التي مهما بدت طويلة فهي قصيرة بالنسبة لما يحتاجه مثل هذا الموضوع .

الدراسة الأدبية والتاريخ :

ان دراستنا هذه أدبية قبـل كل شيء . ومعنى ذلك أن غرضها الرئيسي هو دراسة النصوص الأدبية التي خلفها لنا الأندلسيون الاشبيليون في القرن الخامس وتفهمها ومعرفة محلها في الأدب الأندلسي، بل في الأدب العربي عامة .

وقيمة النصوص الأدبية في التراث الانساني والحضارة البشرية لا يعتورها الريب ولا يتطرق اليها الشك . فأهميتها لا تنحصر في كونها نتجت في فترة من فترات تاريخ البشر ، فكان لها أثرها في المجتمع الذي نشأت فيه ، بل ولأن هـذا الأثر لا يزال ذا وجود فينا نحن الذين تفصلنا عن منتجيها قرون طويلة وأبعاد مكانية وزمانية شاسعة .

يقول قوم إن قيمة النص هي في تأثيره في السامع أو القارىء ، وإن مـا نقوم به من تفهم ودرس للظروف التي أحاطت بمولده لا يقـدم ولا يؤخر في تحقيقنا لهـذا الغرض ، فهو لا يزيد في قيمته الفنيـة ولا يضيف شيئـاً الى جماله الأدبي .

ان مثل هذا القول قائم على فكرة معروفة ، هي أن الجمـال في القطعة الأدبية عنصر غامض مجرد لا علاقة له بأية ظروف زمانية او مكانية ، مصدره عبقرية الفنان التي هي قبس من القوى الأزليـة المطلقة ، والتي تتخذ من الموضوعات التي تعالجها حجة للابداع والظهور ، فهو موجود في انتاجه الأدبي يفرض نفسه فرضاً على القارىء او السامع لا ينكره إلا من كان في نفسه مرض أفقده الاحساس بالجمال والشعور بالعبقرية .

إن ما نعتقده هو أن التذوق الأدبي او الاحساس بالجمال الفني ، ما هو إلا نتيجة للتفاعـل – إذا صح استعمال هذا التعبير – بين النص والقـارىء أو السامع ، وأن هذا التفـاعل لن يحدث إلا اذا وجد ابداع الأديب المتمثل في تعبيره عن مشاعره وعواطفه وأفكاره سبيله الى نفس السامع او القـارىء . فهذا التفاعل المؤدي الى التذوق والاحساس بالجمال الفني يعتمد على ما في النص من ابداع فني من جهة ، وعلى مقدرة السامع أو القارىء على إدراك هذا الابداع من جهة أخرى . فـاذا فقدت هذه المقدرة فقد الادراك ، وإذا فقد الادراك بطل التفاعل ، واذا بطل التفاعـل لم يحدث التذوق الفني والاحساس بالجمال الأدبي في النص .

فواجب الدراسة الأدبية إذن هو تقوية هذا الادراك بمحاولة شرح وتوضيح ما يضم النص في طياته من عواطف جياشة وأفكار عميقة وإحساسات معقدة. على أن هذه الأفكار والعواطف ليست مجردة ، فهي مرتبطة عموماً بحوادث معينة ، أو بالأحرى تأخذ مظهراً خاصاً . فالاعجاب يكون بشيء ، والحقد يكون على شيء والحب لا يظهر إلا لشيء ، فليست هنالك عواطف إعجاب او حقد او حب مجردة ، وان إدراك هـذه المشاعر يتوقف – الى حد بعيد – على إدراك المظاهر التي برزت بها الى عالم الوجود في الانتاج الفني . وقل مثل ذلك، بـل وأكثر من ذلك، عن الافكار التي لا يمكن أن تظهر الا وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بظروف موضوعية معينة .

فنحن إذن حين ندرك مـا يضم نص في طياته من عواطف وأفكار لا بدّ أن ندرك في الوقت نفسه المظاهر التي ظهرت فيها . وليس من واجب الفنان أن يشرح لنا ، لماذا غضب او فرح او كره أو أحب ، أو كيف فعل ذلك ، فعلينا نحن أن ندرك كل ذلك من النص ذاته حين يعطي لنا الفنان صورة حية لما يعتلج في أعماق نفسه . ولكن كثيراً مـا يبقى مع ذلك في غضون أبيات الشاعر من العواطف والاحساسات العميقة ما يصعب علينا ادراكه اذا اعتمدنا النص وحـده فقط ، لا سيما اذا كان الشاعر يعيش في ظروف غير التي نعيش

فيها ، ويتأثر بما يحيط به بشكل غير الذي نتأثر به ، وما ذلك لنقص في النص ، وإنما لغموض في إدراك التجاوب بين الشاعر وما يحيط به ، وإلا فكيف نستطيع فهم قول جميل :

وإني لأرضى من بثينة بالذي ... لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى ... وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي ... أواخره لا نلتقي وأوائله

إذا لم نفهم كيف كان يعيش جميل وما هي صلته بحبيبته والظروف الاجتماعية التي أحاطت بها !..

وهل تبقى لهذه الصورة الشعرية التي رسمها المتنبي حين قال مخاطباً كافوراً:

أبا المسك هل في الكأس شيء أناله ... فاني أغنّي منذ حين وتشرب

قيمتها الأدبية المؤثرة اذا لم نعرف المتنبي وكافوراً وما قام بينهما من صلات، اذا لم ندرك ما يعتلج في نفس الشاعر المتألمة من خيبة وحسرة وما يزدحم في قلبه من ألم وغيظ ..

فالأدب نتاج انساني، والانسان نفسه بتكوينه الجسمي والفكري والعاطفي والنفسي نتاج معقد لمجموعة من المؤثرات والظروف ، أوجدتها حياته الخاصة وعلاقاته العامة وتركيبه الطبيعي ، أي أنه نتاج لكل ما يؤثر فيه ويتصل بكيانه .

إن من غير اليسير أبداً أن نستطيع تحديد أثر ما أحاط بالشاعر من مؤثرات خارجية منذ ولادته حتى ساعة انتاجه بدقة ووضوح ، وأعسر من ذلك أيضاً إدراك أهمية أو دور التركيب الطبيعي والفسلجي للأديب في إنتاجه ، فان كثيراً من جوانب التركيب الجسمي الطبيعي والفسلجي لا تزال محوطة بالغموض والابهام ، فاذا ما انتقلنا الى محاولة إدراك طبيعة أو آلية

التفاعل الذي يحدث بين نفس الأديب المعقدة والمؤثرات الخارجية ، وجدنا أنفسنا في طريق شائك طويل ، يتطلب السير فيه كثيراً من الدقة والحرص والاخلاص العلمي والتتبع الدقيق ، ومع ذلك فاننا لا نأمن الزلل ولا نستطيع ضمان تجنب الخطأ ، فكثير من الظواهر النفسية التي تكون الحوافز المباشرة للانتاج الأدبي تبدو لنا ، رغم ما نبذله من جهد في إدراكها ، غامضة مبهمة يصعب تفهمها بعمق فنكتفي بأثرها التلقائي في النفس .

ومع ذلك فان البحث في حياة وصفات إنسان ما ودراسة ظروفه الخارجية يقودنا الى فهم كثير من جوانب نشاطه التي تبدو ، لأول وهلة ، عسيرة الفهم صعبة الادراك؛ فالنشاط الأدبي كغيره من جوانب النشاط الانساني، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بجميع الظروف المحيطة بمنتج الأدب والتي تسهم في ولادة النص الأدبي .

على أن ذلك لا يعني أن الدراسة الأدبية ما هي الا مجرد دراسة تاريخية للأحداث السياسية او للحياة الاجتماعية القائمة في عصر من العصور ، أو أنها دراسة فسلجية للتركيب الجسمي الطبيعي للأديب، لأن تأريخ الأدب يعالج موضوعاً يختلف في طبيعته عن الموضوعات التي يعالجها التاريخ أو علوم الحياة .

إن الفن الذي يكون الأدب ضرباً من ضروبه ، تعبير عن مشاعر وانطباعات ذاتية أثارتها حقائق موضوعية ، أي أشياء وموضوعات لها وجود خارج القوة المبدعة للفنان . فالفن اذن يعكس الحقائق الموضوعية او واقع الحياة لا كما هي موجودة فعلاً في الطبيعة او المجتمع ، وانما كما يحس بها الفنان نفسه ، لذا فان شاعرين يتأثران بمؤثرات خارجية موضوعية واحدة ، لا بد أن يختلفا في تعبيرهما عن هذه الحقيقة الموضوعية . فالأدب ليس مرآة مباشرة للحياة وانما مرآة للشاعر نفسه ، لتكوينه الفكري والنفسي والعاطفي .

أما لماذا تأثر أديب ما بالحقائق الموضوعية بهذا الشكل دون ذاك ، فهذا جزء مما تعالجه الدراسة الأدبية . فما دام الأدب هو نتاج الأديب فلا بد لنا

من دراسة نفس الأديب منذ وجوده ومتابعة تطورهـــا الفكري والعاطفي والنفسي ، ولا بد لنـــا من دراسة المؤثرات الداخليـة والخارجية ، الخاصة والعامة التي كان لهـــا أهميتها في توجيه أفكاره ومشاعره ونفسيته ومقاييسه الخلقية وتكوين صفاته الشخصية المميزة له .

وعلى ذلك فموضوع دراسة تاريخ الأدب ليس النصوص الأدبية فحسب ، وإنما الأشخاص الذين أنتجوا هذه النصوص بتكوينهم العقلي والخلقي والنفسي والفكري والعاطفي أيضاً ، بـــل ودراسة المجتمع بقدر تأثيره في شخصيات الأدباء وتكوينهم واسهامه في تزويدهم بمصادر الالهام الأدبي . أمـــا موضوع دراسة التاريخ فيختلف عن ذلك، إذ ان التاريخ يعنى بدراسة المجتمع وتطوره ومظاهر نشاطه العامة ، ويعنى بدراسة الأفراد بقدر ما لهم من تأثير في حياة المجتمع وسلوكه وتطوره ، أو إن شئت فقل دورهم في الحياة العـامة وتمثيلهم لتياراتها .

فدراسة النصوص الأدبية وفهم النفوس التي انبثقت منها هي وظيفة تاريخ الأدب أمـا دراسة المجتمع وضروب نشاطه السياسي والاجتماعي والفكري ، فما هي إلا وسيلة للوصول الى هذه الغـاية ، في الوقت الذي يستهدف التاريخ نفسه هذه الضروب من النشاط العـــام ، واذا عرض المؤرخ لدراسة النصوص الأدبية أو منتجيها ، فانما يتخذهـــا واسطة لبلوغ غايته ، وهي فهم حياة المجتمع وإدراك وجوه نشاطه والطريق الذي سلكه في تطوره .

ولا نريد هنـــا أن نعرض للاراء المختلفة في فلسفة الأدب او طرق البحث الأدبي منذ افلاطون الذي جعل هدفه ادراك المثل العليـــا للجمال حتى بنيديتو كروتشه الذي جعـــل كل تعرض لغير النص الأدبي من الأمور المتصلة بحيـاة الأديب أو حياة مجتمعه عبثاً لا صلة له بعمل دارس الأدب وانما هو من شأن المؤرخين[1] ، مـــارين بأولئك الذين حاولوا أن يعزوا للعوامل النفسية أو

(1) Beneditto Croce, La Poésie, 139.

الاجتماعية أو الجغرافية أو الجنسية او العرضية الأثر الرئيسي في التوجيه الأدبي فالمجال لا يتسع هنـــا لمثل هذا الاستطراد ، ولكن من المهم أن نشير الى أنه كان ولا يزال لهذه المدارس آثارها في أذهـــان دارسي الأدب والنقاد[1] . إن ما نحاول أن نقوم به في دراستنا هـذه ، هو دراسة الأثر الحقيقي لجميع هذه العوامل وغيرها في الانتاج الأدبي الذي سندرسه .

ومع أننا سنوجه اهتماماً كبيراً لدراسة هذه العوامل والمؤثرات ، فان ذلك ليس غايتنا من هذه الدراسة كما أشرنا الى ذلك من قبل ، إذ اننا نستهدف منها قبـــل كل شيء تفهم النصوص الأدبية ودراسة التيـارات النفسية والفكرية والعاطفية التي اجتاحت نفس الأديب ودفعته الى إنتاج هذه النصوص .

ولهذا الفرق الذي أشرنا اليـه بين تاريخ الأدب والتاريخ أهميته الكبرى في خطة البحث وأسلوبه . فان جميع أولئك الذين درسوا الأدب مصدراً للتاريخ ومورداً للأخبار عن الحياة الاجتماعية والسياسية ، كالمستشرق هنري بيريز في دراسته عن الشعر الأندلسي في القرن الحـــادي عشر الميلادي[2] ، مؤرخون للمجتمع لا للأدب ، اذ ان مؤرخ الأدب ، كما ذكرنا ، هو الذي يدرس الحياة الاجتماعية والسياسية لتفهم النصوص الأدبية وتحديد التيارات الفنية التي حركت النشاط الأدبي في عصر من العصور ، لا العكس . ولعل أخطر ما تعرضت له الدراسات الأدبية في الوقت الحاضر ، هو اتجاه الدارسين الى العنـــاية بحياة الأديب أو دراسة بيئته وظروفه دون أن يأبهوا كثيراً بايضاح مـا لهذه البيئة والظروف أو ما لحياة الأديب من أثر في إنتاجه الأدبي عموماً وفي تفهم النصوص التي أنتجها في الفترة التي تعنينا من حياته على وجه الخصوص ، فكأن دراسة الظروف التاريخية وحياة الأديب هي الغرض الرئيسي ، وكأن دراسة النص أمر ثانوي .

(1) Ch. Lalo, Eléments d'Esthétique, pp. 16 - 35 .

(2) Henri Pérés, La Poésie Andalouse en arabe classique au XI ème siecle. Paris 1937 .

أنواع الدراسات الأدبية :

على أن من المهم أن نلاحظ أن هنـاك ثلاثة أنواع من الدراسات الأدبية : النوع الأول ، يعنى بدراسة الانتـاج الأدبي وتصنيفه وتطوره وتأثيره خلال العصور ، كما يعنى بدراسة الشخصيات التي كانت ذات أثر في الحيـاة الأدبية والظروف التي شاركت في تكوين هذه الشخصيات وتوجيهها ، ومـا ترك هذا التوجيه من أثر في الانتـاج الأدبي ، ويطلق على هذا النوع من الدراسة اسم « تاريخ الأدب » وهو ما كنا بصدد الحديث عنه قبل قليل .

والنوع الثاني: يعنى بدراسة القيمة الأدبية للنص ومواضع الجمال فيه وتأثيره في النفس محاولاً تعليل ذلك وبيان أسبابه ، ويطلق على هذا النوع من الدراسة اسم « النقد الأدبي » ...

والنوع الثالث يدرس الانتاج الأدبي كجزء من الانتاج الفني محاولاً استنباط قواعد عامة لطبيعة الجمال الفني ، دون التقيد بنص معيّن أو بنوع خاص من الفنون وبعبارة أخرى يقوم في ميدان الفن بما تقوم به الفلسفة في ميادين المعرفة الأخرى فهو فلسفة الفن . وقد أطلق على هذا النوع من الدراسة اسم « الجماليات » أو « الاستيتيك » .

تاريخ الأدب علم :

أمـا تاريخ الأدب فهو ، على مـا أعتقد ، علم من العلوم ، كعلم التاريخ نفسه ، أو أنه على الأقل يجب أن يكون كذلك ، لأنه يعنى بدراسة الظواهر الأدبية موضوعياً ، كما كانت موجودة فعلاً في عصر من العصور . إن الفرق الرئيسي بين الفن والعلم ، هو أن الأول تعبير ذاتي عن الحقائق الموضوعية ، أما الثاني فهو تعبير موضوعي عن الحقائق الموضوعية ومعنى ذلك أن الفنان يصف الأشياء أو الموضوعات الخارجية كما يحس بها أي بعد أن تمتزج مؤثراتها بنفسه ومشاعره وأفكاره، لذا فهو لا يعكس في تعبيره الواقع او الموضوعات

الخارجية كما هي موجودة خارج نفسه ، بل بشكل آخر أسبغ عليه الفنان الكثير من ذاته . ولا شك أن الدارس يستطيع أن يرى بوضوح خلال العمل الفني آثـار محيط الفنان كما يستطيع أن يرى آثار نفسه . وليس كذلك التعبير العلمي . فالعـالم حين يصف ظاهرة موضوعية يحاول أن يعبر عنها كما هي موجودة خارج نفسه ، دون أن يسمح لمشاعره الخاصة أو لأفكاره أن تغير منها أو تحدث تبديلا فيها . لذا يجب اتفاق العلماء عند تعبيرهم عن حقيقة موضوعية مهما اختلفت حالاتهم النفسية او الفكرية . أما أمر الفنانين فعكس ذلك تمامـاً ، فحتمية وجود الاختلاف بين الحالات الفكرية والنفسية للفنانين تجعل الاختلاف محتماً في تعبيراتهم الفنية ، وهذه الحقيقة هي التي تجعل الأعمال الفنية فريدة لا مثيل لها، لكل منها صفاته المميزة وطابعه الخاص. وعلى هذا الأساس في التفريق بين العلم والفن قيل إن التاريخ علم وإن القصة فن. فواجب المؤرخ أن يتتبع الحوادث التاريخية بأكثر مـا يستطيع من دقة وحرص وأن ينقلها إلينا كما وقعت فعـلا ، دون أن يسمح لعواطفه ومشاعره أن تغير من الحقائق أو تبدل فيهـا ، فكل محاولة من هذا النوع تشوّه التاريخ وتفقده قيمته . أما كاتب القصة فشأنه غير شأن صاحبه . فهو يختار شخوصه ويسبغ عليهم الكثير من مشاعره وعواطفه وأفكاره . صحيح ان كثيراً من عنـاصر قصته قد انتزعت من الحياة الخارجية ، إلا أنه خلقها خلقاً جديداً بعد أن امتزجت بنفسه وخرجت شكلاً فنيـاً متماسك التركيب أقامته مخيلة الفنان وشادته عبقريته ونبوغه ، رغم أن تلك المخيلة وهذه العبقرية والنبوغ تستمد هي نفسها مقوماتها من حيـاة الكاتب وظروفه الخارجية وتركيبه الطبيعي .

وشأن مؤرخ الأدب لا يختلف في شيء عن شأن المؤرخ نفسه ، فهو ليس بالفنان الذي يعبر عن الظواهر الأدبية كما يحس بها ، بل إن واجبه يحتم عليه عرضها كما وجدت في الواقع دون تحوير أو تغيير ، وهذا المفهوم لتاريخ الأدب يستند الى فلسفة تؤمن بوجود المـادة وجوداً حقيقياً ، وتؤمن بأن الظواهر التاريخية ظواهر مـادية حقيقية ذات وجود فعلي . فمهمة مؤرخ الأدب إذن

هي في إدراك هذه الظواهر وعرضها كما وقعت . كما أن هذا المفهوم العلمي لتاريخ الأدب يتطلب أمراً آخر له أهميته الكبيرة ، وهو إدراك أن الظواهر والتيارات الأدبية ليست منفصلة عن الفعاليات البشرية الأخرى ، بل هي متصلة بها أوثق اتصال ، تتأثر بها وتؤثر فيها ، لذا فمن غير الممكن فهمها دون وضعها في محلها من النشاط الانساني وتوضيح علاقاتها بالظواهر التاريخية الأخرى التي تكون جزءاً منها ، فعلى مؤرخ الأدب أن يعتبر كل هذه الحقائق اذا أراد حقاً أن يعرض حقائق التاريخ الأدبي بصدق واخلاص . ان من واجبه أن يبحث موضوعياً في مجموع العوامل والأسباب التي أحاطت بالأدباء فدفعت بانتاجهم الى هذا الاتجاه أو ذاك دون أن يضيف اليها شيئاً لم يتوفر له الدليل المقنع على وقوعه .

على أن ذلك لا يعني أننا نستطيع التوصل في علم تاريخ الأدب الى حقائق علمية ثابتة كتلك التي يمكن الوصول اليها في علوم الطبيعة او في الكيمياء والفيزياء ؛ وليس ذلك بسبب عدم انطباق مفهوم العلم على تاريخ الأدب كانطباقه على الكيمياء والفيزياء ، فكلها يجب أن تكون دراسة موضوعية لحقائق موضوعية ، وإنما لأن طبيعة الظروف والعوامل المحيطة بالظواهر الأدبية شديدة التنويع والتعقيد لحد يصعب معه إدراكها بوضوح ويسر ، فقد أسهم في تكوينها ، فضلاً عن الظروف التاريخية المركبة ، نفوس الأدباء المعقدة التي يعسر في كثير من الأحيان إدراك خفاياها والتواءاتها . هذا فضلاً عن أن ظروف الخلق الأدبي ومقوماته سواء منها تلك التي من خارج نفس الفنان أم من داخلها لا يمكن تكررها لأنها في تغير وتطور مستمرين . فهي فريدة بشكل يجعل كل عمل فني أو أدبي فريداً لا يتكرر ولا يعاد كما لا يمكن اختبار الظواهر الأدبية كما نختبر بعض الظواهر الفيزيائية أو الكيميائية في مختبر نعيد فيه خلق الظروف والعناصر التي كونت الظاهرة العلمية لنتوصل الى نفس النتائج فتثبت لنا صحتها ثباتاً مطلقاً . لأنه اذا كان من الممكن تهيئة الظروف التي تحيط بقسم من الظواهر الفيزيائية او الكيميائية في مختبر وإعادتها

وتكرارها للتأكد من نتائجها فان ذلك مستحيل الوقوع بالنسبة للظواهر الأدبية التي تنشأ ـ كما ذكرنا ـ في ظروف معقدة تذهب دون عودة ، فيصعب إدراكها بدقة وتستحيل إعادة خلقها . لذا فمن العسير جداً أن تأخذ الأفكار التي نصل اليها في تاريخ الأدب شكل حقائق علمية ثابتة لا مجال للشك فيها أو مناقشتها كما هو الحال في كثير من حقائق العلوم الطبيعية، وعلى ذلك فان جلها يبقى فرضيات علمية تختلف قرباً وبعداً عن الحقائق . واذا كانت مثل هذه المصاعب تعترضنا في علم التاريخ نفسه فانها أقل حدة فيه منها في تاريخ الأدب ، لأن التاريخ لا يعنى بحياة الأفراد الخاصة ومشاكلهم النفسية ، بل يقتصر عموماً على دراسة حياة المجتمع ، واذا تعرض للأفراد ومشاكلهم الخاصة ، فبقدر ما لذلك من تأثير في المجتمع او في جانب من جوانب نشاطه، هذا في الوقت الذي يشغل الأفراد وحياتهم الخاصة ومشاكلهم العاطفية والنفسية جزءاً مهماً جداً من اهتمام تاريخ الأدب ، لأن نفس الأديب هي المصدر الذي ينبثق منه النص الأدبي ، واذا تعرض مؤرخ الأدب لحياة المجتمع فلأنها ذات أثر عميق في حياة الأديب وفي نفسه وأدبه .

إن إنكار فريق من المعنيين بالأدب لعلمية تاريخ الأدب مصدره — كما يبدو لي مما كتب حول هذا الموضوع ـ أمران مهمان : الأول ، هو الخلط بين تاريخ الأدب والنقد الأدبي . لأنه إن كان تاريخ الأدب دراسة موضوعية لحقائق موضوعية ، فان النقد الأدبي دون شك ليس كذلك تماماً ، فهناك كثير من العوامل الذاتية التي لها أهميتها في حكم الناقد ، فحالته النفسية والفكرية والجسمية لها كلها أثرها في تقديره لقيمة النص وإدراكه لجماله ، وهذه الصفة الخاصة للنقد تجعلنا نؤكد بأنه لا يمكن أن يكون علماً لأنه لا يمكن أن يكون دراسة موضوعية تماماً ، رغم محاولة كثير من النقاد وضع قواعد للجمال ، فان النفس الانسانية بتركيبها الفكري والعاطفي بل والفسلجي أيضاً بقيت دائماً هي الميزان الأساسي للجمال الفني . والنقد الأدبي ـ كما فكرنا ـ غير تاريخ الأدب ، فوظيفة الأول تقدير القيمة الفنية او الجمالية للنص ، ووظيفة الثاني

عرض الظواهر والتيارات والاتجاهات الأدبية كما جرت فعلا . على أن جل دارسي الأدب ومؤرخيه لا يكتفون بهذا العرض ، بل انهم كثيراً ما ينقدون النصوص الأدبية محاولين بيان قيمتها الفنية وتقدير جمالها الأدبي ، وهم يعتمدون في ذلك دون شك على ما تتركه من أثر في نفوسهم فضلاً عن اعتمادهم على مقاييس موضوعية اتفقوا عليها مع غيرهم من النقاد . وعلى ذلك فان مثل هذه الآراء اذا تخللت بحث مؤرخ الأدب ، فلا يمكن أن نزنها بميزان العلم أو نتطلب منها ما نتطلبه من العلوم .

اما الأمر الثاني الذي دعا البعض الى عدم اعتبار تاريخ الأدب علماً ، فهو محاولة جعل أسلوب عرض حقائق تاريخ الأدب عنصراً رئيسياً في كتابته ، فما دمنا نتأنق في اسلوب كتابتنا لتاريخ الأدب ونجعله غاية بذاته فلا بد اذن أن يكون تاريخ الأدب شكلاً فنياً وليس مجرد وسيلة للتعبير . وليس لهذا الرأي ، كما نعتقد ، أي نصيب من الصحة . فان الغاية من الحقائق العلمية ـ ومنها تاريخ الأدب ـ عرض الفكرة بالأسلوب الذي يعبر عنها باخلاص . فالفكرة في العلم هي الغاية ، والأسلوب هو الواسطة . في حين أن الأمر يختلف في الفنون التي تتحد فيها الافكار والعواطف والأحاسيس والايحاءات والانطباعات اتحاداً تاماً بالشكل في وحدة محسوسة لا تتجزأ هي غاية العمل الفني . فالشكل الفني اذن وكل محتواه غاية الفنان ، وليس هذا شأن تاريخ الأدب . فكل عناية بالأسلوب على حساب الافكار خروج عن متطلبات تاريخ الأدب وانتقاص لها . اننا نتطلب من مؤرخ الأدب أن يعرض لنا الحقائق التي توصل اليها بأوضح أسلوب وأدقه ، فاذا تجاوز ذلك الى غايات أخرى ، فذلك مما لا يتعلق بتاريخ الأدب وانما قد يكون دخولاً الى ميدان الأدب نفسه او الصنعة الكلامية أو اللغة الخ ...

أن أهم ما يميز التعبير الأدبي عن التعبير العلمي ، هو أن الأول غاية في ذاته هو وما يتضمنه من عواطف وأفكار ، وأن الثاني ليس إلا وسيلة للتعبير عما يتضمنه من أفكار ، فاعتبار تاريخ الأدب علماً يعني حتماً أن أسلوب

التعبير ليس الا وسيلة لنقل أفكار المؤرخ الى اذهان القراء بدقة ووضوح وأن نجاح المؤرخ في تعبيره يكون بقدر ما يتسم به هذا التعبير من دقة وما يشيع فيه من وضوح ، كما هو الحال في جميع العلوم .

مؤرخ الأدب والنقد

قلنا إن وظيفة علم تاريخ الأدب هي عرض الحقائق الأدبية والتيارات التي تخللت الأدب في مختلف العصور عرضاً موضوعياً يتحرى الباحث فيه الدقة والاخلاص . فليس من وظائفه من حيث المبدأ توضيح القيمة الأدبية الحاضرة للنصوص ، بل يكتفي بإيضاح قيمتها في نظر الآخرين محاولاً تبيين أسباب ذلك . ولكن ذلك لا يعني أن لا حق لنا في توضيح رأينا في قيمة النصوص الأدبية سواء منها القديمة والحديثة !... فالأدب مهما اختلفت عصوره وأفكاره ملك البشرية جمعاء ، لذا فمن حق كل انسان أن يعرب عن رأيه فيه فيعجب بهذه القطعة ويعرض عن الأخرى. إن من حقنا ان نقبل على الأدب القديم فنعجب بجزء منه ولا نعجب بآخر ، ونعرب عن هذا الاعجاب أو عدمه ، بل إن غاية مهمة من غايات دراسة الأدب القديم هي في الواقع محاولة تفهم الأدب القديم وتبين قيمته الفنية وإحلاله في المنزلة التي يستحقها من الحضارة الانسانية ليقضي حاجة من أهم حاجات الانسان هي ما نستطيع أن نطلق عليها « الحاجة الفنية » . ولكن ما يجب أن ننبه اليه هو أن تقدير القيمة الأدبية للنصوص ليس تاريخاً للأدب وانما نقد له ، وقد سبق أن ميزنا بين تاريخ الأدب وبين نقده ، وقلنا إن الأول علم يجب أن يتجرد من الأحكام الذاتية ، في حين أن الثاني ليس كذلك ، اذ مهما حاول الناقد وضع قواعد موضوعية لأحكامه فان تكوينه النفسي والفكري يبقى ذا أثر عميق في أحكامه . ولا أعتقد أن مؤرخ الأدب يستطيع الاستغناء دائماً عن النقد تاركاً لقرائه حرية الحكم ، لأن تاريخ الأدب ليس غاية في ذاته وانما وسيلة لفهم جانب من جوانب حياة المجتمع وهو نشاطه الأدبي ، كما يهدف في الوقت نفسه

الى تهيئة الظروف اللازمة لتذوق هذا الأدب وتقدير قيمته . لذا يجب ان لا يستغرب القارىء اذا مـــا رأى كثيراً من الأحكام النقدية على هذه القصيدة او تلك ، او هذا الشاعر او ذاك ، الا أن ما نريد تأكيده هو أن يميز القارىء بين هذه الآراء النقدية وبين الحقائق التاريخية الأدبية ، وأن لا تدفعه ملاحظة العنصر الذاتي في النقد الى اتهامنا بادخال مثل هذا العنصر في تاريخ الأدب مما يؤدي حتماً الى فقدانه صفته العلمية . فالواقع اننا حين نعرض لابداء الآراء في القيمة الفنية للنصوص ، انما نفعل ذلك كنقاد لا كمؤرخين اتماماً للفائدة وتحقيقاً لغرض مهم من أغراض دراسة الأدب .

فنحن اذن في هذه الدراسة والدراستين اللتين سبقتاها عن ابن عمار والمعتمد نحاول عرض الحقائق الأدبية كما حدثت فعلاً ، لأننا نعتقد أنها حدثت بشكل ما يمكن ادراكه ، ونحن أحياناً نقاد نبدي آراءنا فيما بين أيدينـــا من نصوص الأدب القديم لنحله المحل الذي يستحقه ، فليس للقارىء أن يأخذ مـــا نبديه هنا من آراء على غير هذا المأخذ .

ان الذوق الأدبي قـــد تطور في الواقع تطور الأدب نفسه متأثراً بظروف المكان والزمـــان ، فليس من الغريب اذن أن نرى الناس يعجبون في عصر بشيء غير الذي نعجب بـــه . ولكن كون الفن ارضاء لحاجة طبيعية كالماء والطعام والهواء ، جعل الأعمال الفنية ترتبط فيما بينها بروابط مشتركة دفعت بها الى تخطي حدود الزمـــان والمكان، وتأدية مهمتها في الحياة الانسانية في أماكن مختلفة وأوقـات متفاوتة ، ومـــا اعجابنا بالأدب القديم او الآداب الاجنبية الا مثل واضح على هذا القول ، ودراسة هـــذا الموضوع ايضاً تحتاج لدرس وتفصيل لسنا بصدده الآن .

تمهيد تاريخي

يطلق اسم الأندلس في الكتب العربية في جميع فترات التاريخ الاسلامي في اسبانية على جميع القسم الذي يسيطر عليه المسلمون منها . وكانت المنطقة التي يطلق عليها هذا الاسم تتقلص وتنبسط تبعاً لتقلص نفوذ العرب وانبساطه حتى اقتصرت أخيراً على القسم الجنوبي من شبه جزيرة إيبيرية الذي ظل يحمل هذا الاسم حتى الآن . وليس من العمل السهل التأكد من الأصل الذي تطورت منه هذه الكلمة ، الا أن الغالب على الظن أنهـــا اشتقت من اسم الفندال Vandales وهم أقوام كانوا قد اجتازوا مضيق جبل طارق في القرن الخامس الميلادي ليسكنوا شمال افريقية. ومن المحتمل جداً أن ذلك كان سبباً لاطلاق اسمهم على الارض التي جاءوا منهـــا وهي الاقسام الجنوبية من شبه جزيرة إيبيرية ، ثم عمّم العرب هذا الاسم بعد ذلك على جميع الاراضي التي احتلوهـا من هذه البلاد .

فكلمة أندلسيين اذن تشمل بنظر المؤرخين المسلمين جميع السكان الخاضعين للادارة الاسلامية في شبه الجزيرة على اختلافهم الكبير في الاجناس والعناصر وتباين الاصول التي جاءوا منها الى هذه البلاد من الخارج ، وعلى أهـل البلاد الاصليين سواء اعتنقوا الاسلام أم لم يعتنقوه ممن كان يعيش في ظـــل الحكم الاسلامي . ولهذا التكوين المعقد للشعب الاندلسي آثار هامة في جميع نواحي

الحياة الاجتماعية والسياسية ، وقد كان مصدر قلق دائم للسلطة بما سبب من اضطرابات داخلية اتخذت في كثير من الاحيان مظاهر خطيرة استمرت حتى أوائل القرن الخامس الهجري . الا أن الامتزاج بين العناصر المختلفة المكونة لهذا المجتمع كان مستمراً بفضل السياسة التي اتبعها الفاتحون المسلمون حتى أصبحت لفظة أندلسيين في أواخر القرن الرابع وما بعده تشمل شعباً له صفاته ومميزاته التي تختلف عن تلك التي يتميز بها البربر في الجنوب (أي في شمال افريقية) ، وعن تلك التي يتميز بها القشتاليون وغيرهم من مسيحيي الشمال . وقد شهد القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ظهور الخلافة الأموية في الاندلس ثمرة للجهود التي بذلها الأمراء الامويون في قرطبة لتهدئة الاحوال والقضاء على الاضطرابات التي ظلت حتى ذلك الوقت صفة ملازمة لحكم المسلمين في إسبانية . وقد كان الفضل في ذلك على وجه الخصوص للخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر الذي هيأت له مدة حكمه الطويلة الفرصة للقضاء على جميع الثورات والاضطرابات واخماد نارها اخماداً تاماً مدة من الزمن. إن حكم الناصر ومن بعده ابنه الحكم الثاني وخليفته الفعلي الحاجب المنصور وابنه المظفر يكون الذروة التي وصلها النفوذ الاسلامي في شبه جزيرة إيبيرية وقمة تأثيره وسلطانه ، اذ لم يستطع المسلمون بعد ذلك حتى خروجهم من هذه البلاد الوصول الى ما وصلوا اليه في القرن الرابع الهجري من هيبة سياسية واستقرار داخلي ونفوذ واسع وعمران زاهر رغم استمرار تقدمهم الثقافي وتطورهم الفكري والأدبي .

وقد أثارت الاحداث الخطيرة التي حدثت في أوائل القرن الخامس الهجري في الاندلس ، والتي كان من نتيجتها انحلال الخلافة في قرطبة وابتداء فترة ملوك الطوائف ، كثيراً من الدهشة والاستغراب وسببت كثيراً من الجدل والنقاش وما كانت هذه الاحداث التي استمرت قرابة عشرين عاماً والتي أطلق عليها المؤرخون المسلمون اسم « الفتنة » لتحصل على ما حصلت عليه من أهمية واهتمام وتثير ما أثارت من جدل ونقاش لولا أنها جاءت مباشرة بعد بلوغ

الخلافة الاسلامية في اسبانية ذروة العظمة والمجد ولولا أنها تلت فترة منعة وازدهار سياسي وانتصارات خارجية رائعة واستتباب داخلي تام تقريباً ؛ فقد أعقبت مباشرة عصر حكم المنصور بن أبي عامر وابنيه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن شنجول الذين كانوا يحكمون البلاد خلف واجهة الخليفة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، هذا العصر الذي يعتبر عصر عظمة المسلمين في الاندلس ومجدهم السياسي والعسكري الزاهر .

كيف جاز لدولة قوية منيعة كتلك التي بناها عبد الرحمن الناصر وسندها الحاجب المنصور وابنه الحاجب المظفر أن تنهار وتتداعى فجأة ولم يمض على وفاة الأخير غير عامين ، لم يلحظ قبلها في الدولة أي أثر من آثار الضعف او علامة من علامات الوهن ، كما يجمع تقريباً كل المؤرخين !! صحيح ان مثالب كثيرة تعزى الى عبد الرحمن بن أبي عامر الذي خلف أخاه عبد الملك المظفر ، ولكن سنتين اثنتين ليستا كافيتين على كل حال لتصدع بناء متين وكيان قوي كذلك الذي بدا في دولة عبد الرحمن الناصر وخلفائه من بني عامر ، فكيف يمكن تفسير هذه الظاهرة التاريخية الغريبة ..

إن من المؤكد أن أسباب هذا التصدع لم تكن خارجية ، إذ لم تكن الدولة الاسلامية في اسبانية فريسة عدو خارجي هدّ كيانها وصدّع أركانها وإنما انهارت وتداعت نتيجة أسباب داخلية ليس غير ، ولا شك أن هذه الاسباب الداخلية لم تكن وليدة عام او عامين ، وإنما كانت جذورها تمتد موغلة في كيان الدولة الا أنها لم تكن ناضجة متبلورة لكي تحدث ما يجب أن تحدثه من نتائج ، او أن عوامل أخرى أقوى منها منعت ظهورها وأوقفت مفعولها، حتى اذا زالت هذه العوامل او ضعفت انفسح المجال لاسباب التصدع والانهيار لتؤتي أكلها وتنتج ثمارها .

لقد كانت القوى الاجتماعية التي استند اليها العامريون غير متماسكة فالأرستقراطية القرطبية كانت منشقة على نفسها ففريق التف حول بني عامر

وفريق تجمع حول بني أمية الذين كانوا ينظرون بغيظ الى استئثار العامريين بالحكم ، وكانت العامة ، كما هو شأنها في اكثر الاحيان بمعزل عن الحكام ، وقد ابتدأ موقفها السلبي يتحول الى تمرد ايجابي عندما ابتدأت تضيق بالبربر من زناتة وصنهاجة الذين استقدمهم بنو عامر لاستخدامهم محاربين ممتهنين في غزواتهم ضد نصارى الشمال ، فكانت على استعداد للاستجابة لكل دعوة للثورة عند سنوح الفرصة . أما القوى العسكرية التي كان يعتمد عليها العامريون وجلها من البربر القادمين من افريقية الشمالية ، فقد بدت هي أيضاً بعيدة عن أن تكون موضع ثقة في نزاع داخلي لا ناقة لها فيها ولا جمل... لذا لم يكن من المستغرب أن لا يبدي البربر حماساً في الدفاع عن عبد الرحمن بن أبي عامر عندما ثار ضده أمراء بني أمية بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي وساندهم العامة في قرطبة في ثورتهم وفي تنكيلهم بابن أبي عامر . فقد فضل زاوي بن زيري قائد البربر عدم الدخول في نزاع دامٍ للدفاع عن بني عامر وآثر تقديم طاعته للملك الجديد .

الا أن البربر لم يستطيعوا الاحتفاظ بموقفهم هذا ، فقد كانوا موضع نقمة العامة واعتداءاتها ، كما لم يحظوا بتقدير الأمير الجديد ورعايته؛ وكتب التاريخ حافلة بالشواهد على هذه الحال، فاندفعوا لتأييد طامع جديد بالعرش هو سليمان ابن الحكم الذي لقب نفسه بالمستعين . وهكذا دخلوا في معركة سافرة مع القرطبيين سالت فيها الدماء سيولاً ، وانتهبت الاموال وخرّبت المنازل والبيوت ، ومرت عشرون عاما على العاصمة الاندلسية وهي مسرح لهذا النزاع المرير أطلق عليها المؤرخون اسم « الفتنة » ، توالى فيها العديد من الطامعين في العرش ، يسند فريقاً منهم القرطبيون ، ويسند الآخرين منهم البربر . ولم تنته هذه الفتنة الا بترك البربر لقرطبة والتجائهم الى منطقة غرناطة حيث أقاموا دولة بني زيري والى حصون ومناطق أخرى ظلوا فيها يقاومون من حولهم من أمراء الاندلس الى أن تداعى حكم اكثرهم تحت ضربات بني عباد في إشبيلية كما سيأتي ذكره

أما القرطبيون فقد اتفق وجهاؤهم على ادارة شؤونهم بأنفسهم والعدول عن انتخاب خليفة جديد بعد اختفاء آخر الخلفاء المسمى هشام المعتد بالله .

إذن فأول أسباب هذا التصدع الداخلي في دولة بني عامر – كما هو الحال في أي تصدع داخلي لأية دولة أخرى – هو أن الكيان السياسي الذي بناه عبد الرحمن الناصر وسنده الحاجب المنصور لم يكن قائماً على أسس رصينة متينة ، ولم يكن مكوناً من كتل متماسكة متراصة رغم قوته الظاهرة ، فان تحليلاً دقيقاً للمجتمع الاندلسي المكون من طوائف متعددة وأجناس مختلفة والذي تتحكم في دولته قوى غير مؤتلفة تتمثل في الاندلسيين المنحدرين من أصول محلية أو عربية او بربرية ، والبربر الوافدين من شمال افريقية ، والصقالبة من الذين استوردهم الناصر وخلفاؤه العامريون من أواسط أوربا كحرس خاص للقصر الملكي والذين جاوز عددهم في زمن بني عامر الثلاثة عشر الفاً .. أقول إن تحليلاً دقيقاً لهذا المجتمع والعناصر المكونة له والمسيطرة عليه لا يترك مجالاً للشك في تفككه وعدم تماسكه . وتاريخ المسلمين في الاندلس كله شواهد على ذلك .

اما السبب الآخر الذي ساعد على تصدع دولة قرطبة وقيام ملوك الطوائف في مختلف المدن الاندلسية ، فهو نتيجة طبيعية لتطور المجتمع الاندلسي ؛ فان خضوع المدن الاندلسية الكبيرة الحصينة لقرطبة لم يعد ممكناً بعد أن تطورت هذه المدن ونشأت فيها ارستقراطية محلية مستقرة عميقة الجذور ذات حول وطول . أقول لم يعد ممكناً خضوع هذه المدن ، طائعة لقرطبة بعد أن وصلت الى ما وصلت اليه من ازدهار وتقدم ، كما لم يكن لدى قرطبة من القوة ما تستطيع فرض سلطانها على هذه المدن ، فكان طبيعياً استقلال هذه الأخيرة واصرارها على ادارة شؤونها بنفسها .

لقد كانت الخلافات والثورات في بدء حكم الأمويين في الاندلس تأخذ شكل منافسات فردية حول العرش ، تُستغَل فيها القوى الاجتماعية المستاءة

او المناوئة للحاكمين كالفلاحين والعامة ؛ أما تمرد ملوك الطوائف فهو امتداد طبيعي لتنامي نفوذ الارستقراطية المحلية واشتداد ارتباطها بمواطنها وشعورها بامكانية الاكتفاء بنفسها والاستغناء عن أية سلطة مركزية ؛ وهكذا استأثر وجهاء إشبيلية وعلى رأسهم بنو عباد بالحكم في مدينتهم ، واستأثر وجهاء بطليوس وعلى رأسهم بنو الأفطس بالحكم في بطليوس ، وفعل مثلهم بنو هود في سرقسطة ، وبنو ذي النون في طليطلة وبنو طاهر في مرسية وغيرهم من وجهاء المدن وحكام الحصون . وابتدأ نزاع دائم مرير يبتلع القوي فيه الضعيف حتى بدا خطر النصارى في الشمال وتعاظم وأصبح هذا النظام الذي عرف بملوك الطوائف ، غير قادر على الثبات أمام الوضع السياسي الجديد في اسبانية لاختلال ميزان القوى فيها ، فكان لا بد له أن ينتهي وكان أن ساعد على انتهائه تدخل المرابطين في الربع الأخير من القرن الخامس[1] .

في هذه الظروف التي مرت الاشارة اليها اتفق وجهاء إشبيلية على الاستقلال في مدينتهم فسدوا أبوابها أمام المتنافسين على عرش الخلافة في قرطبة من الحموديين ، وهم أسرة تنتسب الى الأدارسة من أولاد فاطمة ، عاشت في المغرب الاقصى بين البربر وتأثرت بثقافتهم وحظيت بتأييدهم ، واستطاعت انتزاع الخلافة في قرطبة مدة من الزمن في اثناء فترة الفتنة ، فتولى الحكم منهم عليّ بن حمّود ثم أخوه القاسم الذي نافسه على عرش الخلافة المزعزع ابن أخيه يحيى بن علي واستطاع انتزاعه منه . وقد ابتدأت إشبيلية تمردها عام ٤١٤هـ عندما رفض الاشبيليون فتح أبواب مدينتهم أمام القاسم بن حمود الذي اضطر الى ترك قرطبة اثر ضغط أتباع ابن أخيه يحيى عليه ، كما امتنعوا عن تسليم مدينتهم ليحيى هذا عندما طلب منهم ذلك ، وتهيأوا للدفاع عنها وكونوا مجلساً من وجهاء المدينة وأثريائها لادارتها ، كان على رأسهم القاضي أبو

(١) انظر دراستنا عن المعتمد بن عباد ، ص ١٤٣ - ١٦٧ .

القاسم محمد بن عبّاد أغنى وجها إشبيلية وأفحشهم ثراء[1] . وهكذا برزت على مسرح التاريخ دولة بني عباد أقوى دويلات ملوك الطوائف وأكثرها نفوذاً وقوة ، مما سنأتي للحديث عنه في الصفحات القادمة ..

ولم يكن هذا الانحلال السياسي لدولة قرطبة ظاهرة من ظواهر الانحلال الاجتماعي او الفكري ، فقد صاحبه على العكس من ذلك ازدهار فكري ، بل وتطور اجتماعي نضج أثره المجتمع الاندلسي واكتسب صفاته المميزة وشخصيته الخاصة . فنحن حيث نتحدث عن الفرد الاندلسي او الشخصية الأندلسية فانما نتحدث في الواقع عن كل ذلك في القرن الخامس الهجري على وجه الخصوص فقد كانت القرون الثلاثة السابقة فترة انصهار العناصر المكونة للمجتمع الاندلسي وامتزاجها مع بعضها البعض ؛ أما القرون التي تلت القرن الخامس فقد تدخلت فيها عناصر خارجية لا سيا المرابطون والموحدون من بربر شمال افريقية في حياة هذا المجتمع السياسية والاجتماعية والثقافية .

وفي هذا القرن ، أي القرن الخامس ، ظهر أشهر شعراء الاندلس وأكبر كتابها كابن زيدون والمعتمد وابن خفاجة وابن وهبون وابن اللبانة وكثيرون غيرهم .

(١) انظر ما يلي عن محمد هذا .

الفصل الأول

نظرة عامة

على التكوين الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الأندلسي
في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)

التركيب العنصري للمجتمع الأندلسي

من الواضح أن العنصرين الرئيسين اللذين دخلا شبه جزيرة إيبيرية في أثناء الفتح وبعده هما العرب والبربر . الا أنــــه من الصعب التمييز بين عدد الذين دخلوا البلاد من هذا العنصر أو ذاك ، لأن المصادر القليلة سواء منهــا العربية أم اللاتينية ، مضافــة الى الغموض الذي ساد هذه الفترة من تاريخ الاسلام في الغرب، يجعــــل من العسير جداً الحصول على معلومات وافية في هذا الموضوع . فالفتح الأولي لشبه الجزيرة قام به البربر ، اذ ان حملتي طريف وطارق كانتا مكونتين كلها تقريباً من البربر ، فالمصادر[1] تذكر بوضوح أنه عندمـــا جمع لذريق Roderic ، جيشاً لقتال طارق ، أرسل هذا الأخير الى موسى بن نصير طالباً النجدة ، فبعث اليه والي إفريقية بخمسة آلاف مقاتل بربري ، بالاضافة الى سبعة آلاف كانوا معه ، وبهذه القوة استطاع طارق بن زياد أن يخوض أهم معــارك الفتح الاسلامي لاسبانية وهي معركة وادي « بكة » او « لكة » ، ويقهر الملك القوطي ويقضي على جيشه ، ولكن ما كادت أنبـــاء انتصارات طــــارق تصل الى موسى بن نصير حتى قرر العبور بنفسه الى شبه الجزيرة

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٩ (طبعة ليدن) نقلاً عن ابن بشكوال وابن حيان وابن خلدون والرازي والحميدي وغيرهم .

مستصحباً في هذه المرة جيشاً يكاد يتكون من العرب فقط ، فعبر المضيق في صيف سنة ٩٣ هـ (٧١٢ م) مصحوباً بثمانية عشر الف مقاتل ، وقيل أكثر من ذلك ، بينهم شخصيات عربية قيسية ويمانية مصحوبين بعدد من أتبـــاعهم ، وقام بقسط كبير في فتح البلاد والقضاء على مقاومة القوط[١] ، ثم التقى بجيش طارق وتعاونا معاً على إكمال اخضاع البـــلاد الى أن دُعي القائدان للسفر الى مركز الخلافة في دمشق لتقديم تقاريرهما حول الفتح الجديد .

فكان هـــذان الجيشان هما نواة القوة الاسلامية التي شادت صرح الدولة الاسلامية في الاندلس . ومن المؤكد أن هؤلاء الجنود استقروا في البـلاد التي فتحوها ولم يعودوا الى اوطانهم ، بـــل إن قسماً كبيراً منهم تزوج بنساء من أهل البلاد ، فقرروا بذلك ارتباطهم بالارض الجديدة وركزوا اقدامهم فيها.

وقد استمرت الهجرة من شمال افريقية ومن الشرق الى شبه الجزيرة دون انقطاع ، ولا شك أن نصيب البربر منها كان أكثر بكثير من نصيب العرب . فخصب البـلاد وثراؤهـــا جذب كثيراً من سكان المغرب الاقصى ، فتركوا بلادهم ليتخذوا من البلد المفتوح وطنـــاً لهم[٢] . الا أن هجرة العرب كانت مستمرة ايضاً ، فقد قـدم مع الوالي الحر بن عبد الرحمن الثقفي في سنة ٩٩ هـ (٧١٧ م) عـدد مهم من الشخصيات العربية الافريقية – قيل انهـــا حوالي اربعمائـة أسرة . ثم كان دخول بلج بن بشر القشيري على رأس بضعة آلاف من الشخصيات العربية قدروا بحوالي سبعة آلاف – في سنة ١٢٣ هـ (٧٤١م) إثر ثورة قام بها البربر في شبه الجزيرة[٣] .

وقد ازدادت الهجرة ازدياداً واضحاً بعد أن عبر عبد الرحمن بن معـاوية ابن هشام الملقب بالداخل في ربيع الثاني من عـــام ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) ،

(١) نفس المصدر ، ص ١٤٤ ، ١٧٠ .

(٢) نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ (طبعة ليدن)

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ : ص ١٣ .

واستطاع انتزاع السلطة وتهدئة البلاد وتكوين امارة ثابتة ، فقد دعـــا هو نفسه كثيراً من بربر شمال افريقية لزيادة قوة جيشه وتثبيت سلطانه ، كما التحق به دون شك كثير من المتذمرين من سلطان العباسيين في المشرق والهـاربين من اضطهادهم ، لا سيما من تبقى من بني أمية وأتباعهم .

والى جانب العرب والبربر ، كان هنالك سكان البلاد الأصليون ، فمنهم من اعتنق الاسلام وأطلق عليهم أولاً اسم « المسالمة » وعلى الذين نشأوا في ظـل الاسلام وربوا بتربيتـه اسم « المولدين » . ومنهم من بقي على الدين المسيحي وهم الذين كان يطلق عليهم اسم العجم او المستعربون (موزاراب Mozarab) وكان المولدون في زمن الامـــارة الأموية يكونون القسم الاهم من السكان في قرطبة ولكن اعتنـــاق الاسلام كان يجري بكثرة واستمرار لا سيما في خلال حكم عبد الرحمن الثاني . ومن بين هؤلاء المولدين من كان حراً تماماً ، ومنهم من كان عبداً ، وآخرون كانوا يرتبطون بالقبائل العربية برباط الولاء ، كما احتفظ قسم منهم بأسمائهم الاسبانية القديمة . وقـــد أصبحت العلاقات بين المسلمين الجدد والقدماء وثيقة بمرور الايام نتيجة الاختلاط والتزاوج ، وقد كان لهذا التمازج دون شك أثره الكبير في التكوين العنصري للمجتمع الاندلسي . وقد فقد العرب نتيجة هـــذا التطور الاجتماعي سلطتهم المطلقة فبرزت على مسرح السياسة في عهد الخلافة ثم في عهد ملوك الطوائف شخصيات من أصول مختلفة قاموا بأدوار مهمة في الحياة السياسية والاجتماعية . ومع ذلك كله فان كثيراً من العوائل الاندلسية كانت تنتسب الى قبائل عربية وتحاول أن تصل نسبها اما بإحدى الشخصيات التي جاءت مع موسى بن نصير أو بأحد الذين جاءوا مع بلج بن بشر القشيري ، وقد أطلق على الأولين اسم البلديين وعلى الآخرين اسم الشاميين[١] .

(١) نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٣ ؛ انظر حول القبائـــل العربية التي سكنت الأندلس نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٨٤ – ١٩٠ .

وقد سكن العرب منذ البداية المدن وتركوا للمولدين مهمة العمل والفلاحة أما نصيب البربر فكان على الأكثر المناطق الجبلية التي تشابه طبيعتها طبيعة بلادهم . ومن المهم أن نشير الى أن أفريقية كانت المخزن الذي يلجأ اليه حكام الاندلس حين يشعرون بحاجة الى المرتزقة من الجند فيرسلون في طلبهم ، لذا فان هجرتهم لم تنقطع عملياً حتى نهاية دولة الموحدين .

وبالاضافة الى هذه العناصر التي ذكرناها من السكان، فقد ظهر ، ولا سيما في القرن العاشر، عنصر جديد من الموالي وكثر عددهم، حتى ان المقري يذكر أن عددهم تجاوز ثلاثة عشر الفاً في قرطبة فقط ، وقد لعبوا دوراً مهماً في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وكان يطلق عليهم اسم الصقالبة ويبدو أن أصولهم كانت من الاسرى الذين يؤتى بهم من الشمال . وقد كون منهم الخلفاء في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حرساً خاصاً يعتمدون عليه كل الاعتماد ، كما وصل قسم منهم الى رتب رفيعة في الجيش ساعدتهم على القيام بالدور المهم الذي قاموا به[1] .

وكان في المجتمع الاندلسي قسم كبير من غير المسلمين أكثرهم من النصارى الذين كانوا يسكنون البلاد واليهود الذين قدّموا للمسلمين عند فتحهم شبه الجزيرة مساعدات جمة. ومن الواضح أن تأثير النصارى واليهود كان قوياً في المجتمع الاندلسي طيلة بقاء الاسلام في اسبانية . وقد احترم المسلمون دائماً نصوص الاتفاقات التي عقدوها مع المسيحيين عند فتحهم للبلاد . واذا كانت الحكومة الاسلامية قد ضغطت في بعض الفترات على النصارى وعاملتهم بقسوة فان ذلك كان — كما يستنتج بوضوح من سير الأحداث التاريخية — بدافع المحافظة على الأمن والقضاء على روح التمرد التي عمت البلاد بين حكم عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر والتي قام فيها المسيحيون بدور مهم ، اكثره بدافع التعصب . الا أن مجيء عبد الرحمن الناصر الى الحكم والقضاء على

(١) حول هذا الموضوع انظر ، احمد مختار العبادي ، الصقالبة في اسبانية .

الثورات الداخلية كان نهاية للضغط الذي قاساه نصارى اسبانية وبداية عهد اطمئنان ساعدهم على أن يقوموا بدور هام جداً في الحياتين الثقافية والعامة للمجتمع . وقد كانت للمسيحيين حقوق كثيرة في ادارة شؤونهم وفض المنازعات التي تحدث بينهم امام قضاة منهم. وقد أطلق على هؤلاء النصارى الذين عاشوا في ظل الحضارة الاسلامية وأسهموا فيها اسم « الموزاراب Mozarab » ويبدو أن أصل هذه الكلمة هي كلمة « مستعرب »[1] العربية .

والى جانب المسيحيين كان اليهود يكونون قسماً مهماً من سكان المدن وكانت لهم أيضاً مؤسساتهم الادارية والقضائية التي تعنى بفض مشاكلهم الداخلية ومنازعاتهم الخاصة ، كما كان لهم — شأنهم في ذلك شأن النصارى — حق اقامة شعائرهم الدينية ، بل ان المعاملة الحسنة التي كانوا يتمتعون بها في الاندلس جذبت كثيراً من اليهود الشرقيين الى هذه البلاد . وقد كان الاضطهاد الذي قاسوه قبل دخول الاسلام الى إسبانية دافعاً قوياً لهم لمساعدة المسلمين على فتح البلاد وتثبيت أقدامهم فيها[2] . أما الدور الذي قاموا به في الحياة الثقافية والأدبية فقد كان مهماً ، حتى انه كانت لهم في قرطبة مدرسة دينية خاصة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ذات شهرة واسعة في جميع أنحاء المشرق والمغرب . وقد برز منهم عدد كبير من الأدباء والكتاب والأطباء احتلوا مراكز هامة في المجتمع بل وحتى في الدولة .

هذه هي العناصر والفئات التي كونت المجتمع الاندلسي. وقد أعطت لاختلاف أصولها وأديانها لهذا المجتمع صفات خاصة به قلّ أن نجدها في مجتمع آخر . ودفعت حكام البلاد الى أن يعتبروا هذا الوضع المعقد ، ويبذلوا الجهود لضبط الأمور وتحقيق الانسجام والتوفيق اللذين يقتضيهما ذلك الوضع مستعملين في ذلك ما يرونه من وسائل فعالة وفي مقدمتها القوة للوصول الى هذا الهدف. والواقع

(١) Levi - provençal, Esp. Mus. au Xème siècle, P. 24

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ١٦٦ (ليدن) .

أن حكام الاندلس المسلمين لم يستطيعوا تحقيق ذلك الا في قرن واحد فقط هو القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حيث بلغت الدولة الاندلسية الاسلامية أوج سلطانها ووصلت حضارة المسلمين ذروة ازدهارها ، أما فيما عدا ذلك فقد كانت هذه البلاد مسرحاً لاضطرابات دموية ونزاع مرير قاسى فيه سكانها أصعب الأزمات .

* * *

إن هذا التكوين المعقد للمجتمع الاندلسي ليضعنا أمام مشاكل مهمة صعبة الحل . فقد جاء العرب الى هذه البلاد غزاة فاتحين يصحبهم عدد كبير من غير العرب وأعني بهم البربر ، فاستوطنوا هذه البلاد وامتزجوا بأهلها كل الامتزاج ، ولكنهم بدل أن يذوبوا في هذا الخضم البشري وهم قلة نسبياً ، بدل أن يفقدوا مميزاتهم الخاصة وهم في بداية الطريق ، بدل أن يضيعوا لغتهم في وسط أقوام يتحدثون بلغات تختلف كل الاختلاف عن لغتهم – أقول بدل أن يكونوا كذلك نراهم يشيدون صرح حضارة تعتبر جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الاسلامية ، سواء أكان ذلك في عالم الفكر أم في عالم الفن والعمران أم في التنظيم والادارة والقانون ، نراهم ينتجون أدباً عربياً أصيلاً مستنداً في أكثره الى التقاليد الأدبية العربية الموروثة وسائراً في الخط نفسه الذي يسير فيه الأدب في مواطن العرب الأصيلة في الجزيرة والعراق والشام ، بل إن قرطبة كانت خلال قرون طويلة المركز الثاني للحضارة الاسلامية بعد بغداد .

إن هذه الظاهرة التي قد تبدو غريبة للكثيرين تظهر أن هنالك عوامل كثيرة غير التكوين العنصري للمجتمع الاندلسي كان لها دور مهم جداً بل رئيسي في فرض الثقافة الاسلامية على هذا المجتمع وإحلال اللغة العربية وآدابها في المحل الأسمى رغم قلة عدد العرب ، ولا شك أن من أهم هذه العوامل هو التكوين الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع والمكان الذي احتله العرب في هذا التكوين .

ان لبحثنا – في الواقع – في هذا الموضوع أكبر الأثر في وضع الأدب الذي تركه الاندلسيون في موضعه من الحياة الاجتماعية وفي محله من الانتاج الفكري للمجتمع الاندلسي ، إذ ما أدرانا أن ما بين أيدينا من شعر الاندلسيين ونثرهم هو نماذج مختارة صادقة التعبير للأدب الاندلسي ، وبيننا وبين هذا الادب قرون عديدة ، وليس هناك من صلة سوى كتب تعد على أصابع اليد ، لا بد أن تكون هي نفسها موضع بحث ونقد يحدد قيمة ما تنقله لنا من أخبار !!.

يقول الأديب الفرنسي بول فاليري : « ان ما بين أيدينا من أدب الأقدمين لا يعود الفضل في وصوله إلينا الى قيمته الأدبية فحسب ، بل الى ذوق أولئك الذين احتفظوا لنا بهذا الأدب ونقلوه إلينا سواء بتسجيلهم له أو باحتفاظهم به[1] . بل وأضيف أن بقاءه كان بفضل تذوق الكتاب الذين سجلوه وأولئك الذين احتفظوا به اكثر من أن يكون بفضل قيمته الفنية ، لأن ادراك هذه القيمة يتغير بتغير العصور والأحوال الاجتماعية والفكرية . وان كان هنالك تشابه بين اذواق أناس يعيشون في عصور مختلفة او ظروف متباينة ، فما ذلك الا لأن هنالك عوامل مشتركة أثرت في هؤلاء وأولئك فقاربت بين أذواقهم وماثلت طرائقهم في فهم الادب وتقديره ، كتأثرنا مثلاً نحن ومن سبقنا من الاجيال العربية بنفس التقاليد الأدبية الموروثة مما يجعلنا نسير في ركابهم في كثير من الاحيان في اصدار أحكامنا الادبية .

فاذا كان الامر كذلك ، أفنستطيع القول أن مؤرخي الادب الاندلسي نقلوا إلينا جميع الادب الاندلسي أو جزءاً منه؟ واذا كانوا قد نقلوا جزءاً منه – وهو مما لا شك فيه – فهل اختاروا نماذج صادقة من جميع اتجاهات هذا الادب أو أنهم أعملوا ذوقهم وفضلوا نوعاً منه دون آخر؟..واذا كان الامر كذلك وهو ما يثبته البحث ، فلم اختاروا هذا النوع دون ذاك ؟ وهل من اللازم أن نتفق واياهم في هذا الاختيار ؟.. وأخيراً من هم اولئك الذين اقتنوا

(1) Paul Valéry, Variétés, T.V, P. 302

هذه المؤلفات واحتفظوا بها طيلة قرون ، وهل لذوقهم أثر في بقاء هذه الآثار الى يومنا هذا ؟ واذا كان الامر الأخير هو الواقع ، فما الذي جعلهم يحتفظون بهذه الآثار دون غيرها وهل كانت هنالك عوامل خاصة أثرت في هذا الاختيار ؟

ان الجواب عن هذه الأسئلة وأمثالها ليفتح أعيننا على كثير من الحقائق التي لها قيمتها الكبيرة في فهم الأدب الأندلسي وفي معرفة ما بقي منه وما لم يبق . انه سيضع أمامنا المفتاح الرئيسي لمشكلة سيطرة اللغة العربية ونفوذ الأدب العربي في هذا المجتمع الذي كان أقل من فيه العرب .

قد تكون المصادفات قامت بدور في ايصال جزء من الانتاج الأدبي الاندلسي دون غيره ، الا أن تواتر الاتجاهات نفسها فيما بين أيدينا من مخلفات الأقدمين ليشير بوضوح الى أن هنالك تياراً عاماً له الأثر الرئيسي في نقل ما نقل من أدب الأندلسيين وإيصاله إلينا على ما بيننا وبينه من قرون .

نظرة سريعة على القاعدة الاقتصادية للمجتمع الأندلسي

مصادر الثروة وتوزيعها

كان المجتمع الاندلسي مجتمعاً زراعياً قبل كل شيء ، يعتمد في حياته على الزراعة والأرض . ومن ثم تأتي التجارة والصناعة لتكملا ما تعجز الزراعة عن سده من حاجات السكان . وسبل انتاج وسائل العيش هذه بدرجاتها المختلفة من التطور ، لعبت الدور الأساسي في بناء المجتمع الاندلسي وتحديد علاقات افراده ببعضهم البعض وتوجيه نشاطه الفكري والثقافي والأدبي ، كما سنرى ذلك بوضوح في الصفحات القادمة .

فمنذ اكتشاف البشر للزراعة وتركهم لحياة البداوة تطور نظام الملكية الفردية ونما وظهر الانتاج الفائض وفكرة الادخار . وكان من نتيجة ذلك أن انقسم المجتمع الى طبقات منها طبقة مالكة مسيطرة على وسائل الانتاج وأخرى لا تملك شيئاً وظيفتها الاجتماعية الانتاج لمصلحة المالكين . وقد شهد تاريخ الانسانية أشكالاً مختلفة من العلاقات بين المالكين وغير المالكين كان أقدمها نظام العبودية الذي كان السمة البارزة للمجتمعات القديمة البابلية والأشورية والمصرية واليونانية والرومانية وغيرها . ثم تلاه في سلم التطور النظام الاقطاعي الذي ساد في القرون الوسطى والذي بنيت فيه العلاقات بين

مالكي الارض وغير المالكين على أسس جديدة تختلف عن العلاقات القائمة في مجتمعات الرق ؛ حتى اذا اكتشفت قوة البخار واخترعت الآلات وقـــامت الثورة الصناعية نمت البرجوازية الصناعية وانتزعت من ملاك الارض الاقطاعيين السيطرة على المجتمع وقـــامت نتيجة لكل ذلك علاقات جديدة بـين افراد المجتمع الانساني ، فظهرت طبقة عمالية كبيرة تكدست في مدن هـائلة وابتدأ التناقض بين أسلوب الانتاج الجماعي ونظام الملكية الفردية لوسائل الانتـــاج يكبر ويتعاظم ويخلق صراعـــاً اجتماعياً عنيفاً بين الطبقات المالكة لوسائل الانتاج والطبقات المنتجة فعـــلا ، كانت نتيجته ثورات كاسحة شملت ارجاء عديدة من العالم تهدف من حيث الأساس الى إحداث توافق بين أسلوب الانتاج الجماعي وملكية وسائل الانتاج ، او بتعبير آخر تهدف الى نقل ملكية وسائل الانتـاج الى القوى المنتجة فعـلا في المجتمع وفي مقدمتها العمال والفلاحون .. وكان من الطبيعي أن يصاحب ظهور وتطور البرجوازية الرأسماليـــة ظهور الاستعمار الحديث الذي يهدف الى السيطرة على موارد المواد الخـــام وأسواق تصريف الانتاج الفـــائض . كما كان من الطبيعي ان ترتبط حركة التحرر من السيطرة الاستعمارية في كثير من البـلدان التي تعرضت للاستعمار بحركة تحرير وسائل الانتاج (سواء منهـا الصناعية او التجارية او الزراعية) من سيطرة الافراد وجعلها ملكية عامة للشعب المنتج .

وقد كان النظام السياسي الذي ساد هذه المجتمعاتالبشرية مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بهذا التكوين الاقتصادي فقد كانت الدولة في خـلال جميع هذه العصور أداة بيد الطبقة المالكة المسيطرة على وسائل الانتاج لفرض ارادتها على المجتمع، كما كانت القوانين والعرف والعادات وسائل بيد الدولة للمحافظة على مصالح الطبقـات المسيطرة والاحتفاظ بالنظام الاجتماعي القـائم الذي يكفل هذه المصالح .

ولم تقتصر طبقة المالكين على السيطرة على الدولة والتشريع فحسب بـل

انهـــا أوجدت ووجهت فلسفات تضمن مصالحها وتبرر موقفها ، وخلقت او شجعت اتجاهات فكرية تعكس مفاهيمها للحيـــاة وتسند نظامها الاجتماعي والاقتصادي وأنشأت تحت ظلها فنـــاً ووجهت أدباً يرضي حاجاتها النفسية والعاطفية ويلتئم مع مفاهيمها وأغراضها في الحياة .

ورغم هذا الخط العـــام لتطور التاريخ ، فقد كان لكل مجتمع خصائصه وصفاته التي فرضتها ظروفه الموضوعية ، فهنـــاك مجتمعات مرت بجميع هذه المراحل وهناك مجتمعات أخرى تجاوزت بعضها[1]، كما ان هذه المراحل نفسها قد أخذت في المجتمعـــات المختلفة أشكالاً مختلفة رسمت خطوطها العوامـــل الموضوعية والظروف التاريخية لكل من هذه المجتمعات .

ولم نورد هذا الاستعراض التاريخي السريع الا لنبيّن العلاقة الوثيقة الكائنة بـين التكوين الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية والنظام السياسي والتيـــارات التشريعية والفكرية ، ولنسترشد بالضوء الذي يلقيه هذا التطور لادراك نظام المجتمع الاندلسي الذي نحن بصدد الحديث عنه .

وهكذا فقد كان للمجتمع الاسلامي، كما هو حال أي مجتمع آخر، خواصه التي تميزه وظروفه الموضوعية المرتبطة أوثق ارتباط بتاريخه وبنوعية المراحل التي مر بها . لقد جاء الاسلام الى بلاد كانت تخضع للامبراطوريتين الفارسية والرومانية ، وإثر أزمـــة نظام الرق الذي كان يسيطر في هذين المجتمعين وانتقالهما الى مرحلة الاقطاع ؛ وهكذا تفاعلت هذه الظروف الموضوعية مع التعاليم الاسلامية فأنشأت مجتمعاً بقيت فيه آثار نظام الرق مستمرة الى جانب تطور نظام اقطاعي له ميزاته وخصائصه .

فالزراعة وسيلة الحياة الرئيسية أنشأت طبقتين ، الاولى هي طبقة الملاكين

(1) Menmah M. H. R bonpocy o Henocpeactbehhom Ilepexote Reoajinamy Ha ochobe pasnorehnr Ilepaoohthooonhhoro cnocoa Ilbonbboactba. bonpocbi nctopnn, 1960 No l. ctp. 83,

العقاريين وهي أغنى طبقات المجتمع كما سنرى وأكثرها ثراء والتي سنطلق عليها اسم الارستقراطية او الخاصة ، وتبعاً لذلك فهي القابضة على زمام الحكم والمسيّرة لدفة الأمور والموجهة للثقافة والفن بما فيه من عمارة وأدب وغناء الخ ...

والثانية طبقة الفلاحين الذين يرتبطون بالمالكين برباط تبعية غير واضح لنا حتى الآن وسنأتي لشرح ما نعرفه عنه بعد قليل . والى جانب هاتين الطبقتين توجد طبقةالعبيد التي ترتبط هي أيضاً بالمالكين برباط التبعية،وتستخدم قوتها في العمل لأسيادها ولكن وظائفها في المجتمع الاسلامي والاندلسي لا تقتصر على العمل في الارض ، وانما تتجاوز ذلك الى أعمال أخرى سنأتي لذكرها .

اما الصناعة والتجارة فقد خلقتا طبقة من أصحاب الاعمال الذين لم تسمح لهم على وجه العموم وسائل عملهم ولا الظروف القائمة في البلاد بالحصول على ثروات ضخمة ولكنها مع ذلك تعيش في مستوى معاشي معين يختلف ارتفاعاً وانخفاضاً باختلاف الاشخاص وأعمالهم وباختلاف الظروف العامة وسنأتي للحديث عن طبيعة العلاقات التي تربطهم بمختلف طبقات الشعب ولا سيما بالارستقراطية الحاكمة أي بطبقة الملاكين العقاريين .

والى جانب هذه الطبقات تحفل المدن الكبيرة بعدد كبير من الناس يكسبون العيش بواسطة الاعمال الكثيرة التي تتطلبها الصناعة والتجارة أو بتأجير قوتهم على العمل الى الطبقات الاخرى لتفيذ أغراضها ، وبكل ما يمكن ان تحتاج المدينة اليه من نشاط وخدمات . لقد اعتاد المؤرخون أن يطلقوا على هذا الخليط من الناس اسم « العامة » . وسنرى أن هؤلاء الناس تربطهم على اختلافهم في الاعمال روابط مشتركة ومصالح عامة تحدد علاقاتهم مع بعضهم البعض ومع الطبقات الأخرى .

وبالاضافة الى هذه الطبقات الخمس نميز في المجتمع الاندلسي نوعاً آخر في

الناس لا يمتون بصلة الى احدى هذه الطبقات وانما لهم صفاتهم الخاصة وأعني بهم « المرتزقة » من الجنود الذين يستخدمهم الملوك من داخل البلاد او من خارجها ، قوة مسلحة لحفظ الأمن الداخلي وللنزاعات الخارجية ، وهم مرتبطون أيضاً بالطبقة الارستقراطية الحاكمة برباط التبعية .

وسنرى ان هذه الطبقات رغم تمايزها لا تفصلها دائماً خطوط عميقة جداً وانما تتشابك في أطرافها بشكل يختلف شدة وضعفاً باختلاف الظروف والطبقات والافراد .

الأرستقراطية الأندلسية

منذ مصرع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي اعتبر الاراضي المفتوحة ملكية عامة فمنع توزيعها[1] ، ونظام الملكية الخاصة للأرض يتسع ويترك آثاره في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية فسيطرت الطبقة الثرية التي نشأت عن اقطاع الاراضي على الحكم ولا سيما منذ مجيء الأمويين ، واتجه التشريع لحماية الملكية الخاصة والنظام السياسي الذي نشأ عنها ونمت اتجاهات أدبية وفكرية في كنف الطبقة الجديدة وتحت ظلها .

أما في الاندلس فواضح أن الدولة كانت منذ الفتح أداة بيد الفاتحين للاحتفاظ بالوضع الاقتصادي الجديد الناشىء عن اقتسام الفاتحين الجدد للأرض، بالاضافة الى واجباتها الاخرى المتعلقة بمختلف مظاهر الحياة ولكن هذه المصلحة المشتركة للفاتحين لم تكن لتمنعهم من المناقشة الشديدة والنزاع الدامي فيما بينهم للاستئثار بالحكم فقد شاهدنا خلال الحقبة الاولى من حكم المسلمين للبلاد نزاعات دموية تأخذ شكل خلافات قبلية بين القيسية واليمانية او بين العرب والبربر انتهت تقريباً بمجيء عبد الرحمن الداخل واستفادته من النزاع القائم للسيطرة على الحكم .

(١) ابن رشد ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ .

ولا أظننا بحاجة الى توضيح العلاقة الوثيقة بين النفوذين السياسي والاجتماعي والنفوذ الاقتصادي ، والثراء والملكية الواسعة ، فقد كان الخلفاء والحكام في زمن وحدة الدولة يمثلون قمة الثراء والملكية ، فان الأحاديث والاخبار شبه الخيالية التي تتحدث عن عبد الرحمن الناصر باني مدينة «الزهراء» وما أنفق من أموال طائلة لبنائها وتزيينها[1] ، ثم عن بني عامر من بعده الذين بنو مدينة « الزاهرة »[2] ، أقول هذه الأحاديث والاخبار يمكن أن تقدم لنا نموذجاً واضحاً للمركز المالي والاقتصادي الذي كان يتمتع به الحكام آنذاك ، بل إن من الراجح أنه لم تكن هنالك أية حدود فاصلة بين بيت المال العام والخزينة الملكية الخاصة .

وما كان عهد ملوك الطوائف الذي ابتدأ بعد انحلال الخلافة الأموية في قرطبة في، الواقع ، سوى تمرد الأرستقراطية المحلية في مختلف المدن الاندلسية وشعورها بقدرتها على الاستئثار بالنفوذ السياسي في مناطقها واستغلالها لمصالحها الخاصة . وقد أدى استقلال المدن الاندلسية بطبيعة الحال الى ازدياد ثروة الأرستقراطية المحلية وتركيزها في أيدي بعض العائلات القوية ذات النفوذ في كل من هذه الأقاليم .

وكتب التاريخ الاندلسي تحفل باشارات كثيرة تؤكد هذه الحقيقة وتوضحها : فيذكر القاضي عياض في المدارك ، كما يروى هذا القول عند مؤرخين آخرين ، أن بني عباد الذين حكموا اشبيلية ، كانوا قبل توليتهم الحكم يمتلكون ثلث كورة اشبيلية[3] . ويذكر ابن الأبار وغيره أن بني طاهر الذين تولوا حكم مدينة مرسية كانوا يمتلكون نصف المدينة[4] . أما أبو الحزم

(١) انظر حول بناء الزهراء ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٤٤ - ٣٤٧ (ليدن)
(٢) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٨١ (ليدن)
(٣) القاضي عياض ، المدارك ، ف اسماعيل بن عباد ، الذخيرة ق ٢ ، ف ابو القاسم بن عباد .
(٤) بنو عباد ، ج ٢ ، ص ١٥١ .

ابن جهور الذي تولى في قرطبة فقد كان أغنى أهلها وأفحشهم ثراء[1] . وقل مثل ذلك عن بني الافطس أمراء بطليوس ، وبني ذي النون امراء طليطلة ، وبني هود حكام سرقسطة وغيرهم من أمراء المقاطعات الاندلسية المختلفة في عهد ملوك الطوائف .

ولم يتوقف هؤلاء الأمراء وهم يتربعون على دست الحكم عن زيادة ثرواتهم وتوسيع ممتلكاتهم مستعملين في ذلك جميع السبل الممكنة وأهمها ثلاثة :

الاول : مصادرة ممتلكات منافسيهم او غيرهم من أغنياء المدينة الكبار بعد اتهامهم بشتى التهم ، ولنا في سلوك القاضي أبي القاسم بن عباد ولا سيما في سلوك ابنه المعتضد شواهد كثيرة متعددة سنشير اليها عند الحديث عن حكمي هذين الأميرين . فقد اوقعا ، ولا سيما الاخير ، بجل أغنياء مقاطعتها وأشرافها وصادرا املاكهم وأضافاها الى ثروتها الضخمة وبذلك زادا من سطوتها وشددا نفوذهما[2] ، والسبيل الثاني : ان يجبر الامراء الملاكين الصغار على ترك أراضيهم بمختلف الوسائل ، وقد يسمحون لصاحب الارض لقاء حمايتهم إياه بأن يتنازل عن ارضه ويشتغل لقاء حصة معينة يأخذها من الانتاج ، ويصلون عادة الى ذلك بأثقال كاهل الملاكين الصغار والمزارعين بالضرائب الباهظة حتى يعجز هؤلاء عن الدفع فيضطروا لترك أراضيهم والاستسلام لرغبة امير المدينة ، ويرسم لنا ابن حيان مؤرخ الاندلس الذي ينقل الينا هذه الاخبار صورة محزنة لحالة الفلاحين الاندلسيين ولا سيما فلاحو بلنسية حين كان يحكمها مظفر ومبارك العامريان فيقول عنهما إنهما « كانا يحثان بسوق الرعية المضطهدة بسلطانها فلا يعبآن بما آذاها من كلفها ، يقلدانها شرار العمال ويستزيدان عليها في الوظائف الثقال مع الايام والليال حتى لغدا كثير منهم يلبسون الجلود

(١) الذخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١١٦ .
(٢) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ، عبد الملك بن زهر .

والحصر ويأكلون البقل والحشيش وفر اكثرهم عن قراهم فلا يأسف هذان عن وضع يدهم عليها[١] » .

وقد ذكر لنا المؤرخون الاندلسيون بوضوح أن أمراء الطوائف كانوا يلجأون الى هذا السبيل لجمع ثرواتهم الطائلة وزيادة غناهم الفاحش[٢] .

أما السبيل الثالث الذي كانت تلجأ اليه الارستقراطية الحاكمة لزيادة ثروتها وتوسيع ممتلكاتها فهو إثقال كاهل الشعب بالضرائب الباهضة او توسيع رقعة المملكة بالوسائل العسكرية ، وسنرى انهم لتحقيق هذه الغاية سلكوا طرقاً مختلفة لا يستهدفون منها سوى جر المغانم وزيادة الثراء والنفوذ . ولم يكن هناك تميز بين خزانة الملك الخاصة وخزانة الدولة ، فنفقات الدولة سواء كانت للأهداف العامة او الخاصة تستهدف قبل كل شيء خدمة الارستقراطية الحاكمة . ومما يلفت النظر حقاً أن نرى المؤرخين الاندلسيين يصفون السلطان في هذه الفترة وصفاً مشفوعاً ، دائماً وبصورة طبيعية ، بالظلم والجور . فابن عبدون لا يعرف كيف يجد الكلمات المناسبة لوصف ظلم جامعي الضرائب وقسوتهم[٣] وابن حزم يصف اولئك الذين يضعون أنفسهم في خدمة السلطان بأنهم يقضون عمرهم في الكذب والظلم ويقول : (واذا ابتلي الانسان) بصحبة سلطان فقد ابتلي بعظيم البلايا وعرض للخطر الشنيع في ذهاب دينه وذهاب نفسه وشغل باله وترادف همومه ، فلا يشاركه في محظور البتة وإن أداه ذلك الى التلف ، فلأن يتلف مظلوماً مأجوراً محتسباً محموداً أفضل من ان يبقى ظالماً مسيئاً آثماً مذموماً[٤] .

---

(١) البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ .
(٢) البيان المغرب ، الذخيرة ، ق ٣ ، ف ٢ .
(٣) ابن عبدون ، رسالة في الحسبة ، ص ١٦٩ .
Levi - provençal, Séville musulmane au dèbut du douzième siécle, p 10
(٤) ابن حزم ، رسائل ابن حزم ، رسالة مراتب العلوم .

ونجد مثل هذه الآراء لدى ابن بسام وابن عذاري وابن حيان[١] الخ ... إن من العسير في الواقع أن نجد في تاريخ الأندلس فترة أخذت فيها الارستقراطية الحاكمة في سلطتها مظهراً اكثر تعسفاً واعتباطاً منها في عهد ملوك الطوائف لحد أن هؤلاء الملوك لم يحاولوا حتى اعطاء سلطتهم أية قاعدة شرعية . صحيح أن أبا القاسم بن عباد حين استقل بإشبيلية ادعى أنه يحكم باسم الخليفة هشام بن الحكم كما سنرى ، الا أن ابنه المعتضد الذي جاء بعده استغنى عن هذا الادعاء وحكم البلاد باسمه الخاص مباشرة . وكذلك فعل جميع أمراء الطوائف في الاندلس . ولم يقتصر عدم المبالاة على هذا الميدان فحسب بل انه كان أظهر وأوضح في حياتهم الخاصة فشادوا القصور الباذخة وانغمسوا في حياة اللهو والأنس بكل ما يمكن ان تحتويه من نساء وغلمان وخمر وموسيقى وغناء الخ ... دون أن يعيروا اهتماماً لمقاييس الدين الخلقية . فقصر طليطلة الذي بناه المأمون بن ذي النون في هذه الفترة فاق التصور وبلغ منتهى الترف والروعة اذا اعتمدنا على وصف ابن بسام له[٢] . وقل مثل ذلك عن قصور بني عباد في إشبيلية كالمبارك والزاهر الخ ... ويروى لنا المؤرخون أن اميراً لمقاطعة صغيرة كالسهلة ، ونعني به ابن رزين يدفع ثلاثة آلاف دينار ليشتري مغنية حسناء[٣] .

فاذا أضفنا الى هذه النفقات الباهظة في حياتهم الخاصة ما كان ينفقه هؤلاء الأمراء في حروبهم الداخلية الدامية وما كانوا يدفعونه لملوك المسيحيين من إتاوات وهدايا ، ورواتب المرتزقة من الجنود الذين كانوا يجمعونهم من هنا وهناك ، أقول اذا أضفنا هذه النفقات بعضها الى البعض الآخر استطعنا أن نكوّن فكرة عن غنى الارستقراطية الحاكمة والثقل الذي ينوء تحته الشعب

---

(١) البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ١٥٤ ، الذخيرة ، ق ٤ ج ٢ ، ص ١٠٢ - ١٠٤ ، ١١٤
(٢) الذخيرة ، ق ٤ ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .
Levi - Provençal, Islam d'occident, P 119
(٣) البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٣٠٨ .

ولا سيما الفلاحون . ومن طريف ما يذكر في هذا الموضوع ان الامثال الشعبية التي كانت سائدة بين العامة والتي جمع الزجالي في القرن السادس قسطاً وافراً منها في مخطوط لم يتيسر له الطبع حتى الآن ، تعكس لحد كبير هذه العلاقة بين غنى الأمراء وفقر العامة ، حتى أن أحد الامثال يقول « اذا تسمع الامير بيضحك اعرف ان قلبي بيبكى »[١] . فرفاه الأمراء وأنسهم معناه بنظر العامة شقاؤهم وتعاستهم .

نصل من كل ذلك الى أنه من الثابت أن طبقة الملاكين العقاريين او ما أطلقنا عليه اسم الأرستقراطية الأندلسية كانت الطبقة الاكثر ثراء في المجتمع الأندلسي ، وأن ثروتها هذه ساعدتها على بسط نفوذها السياسي وسيطرتها الادارية . وقد أدت هذه السيطرة السياسية والادارية بدورها الى السماح لابنائها بتوسيع نفوذها الاقتصادي وزيادة ثرواتهم وتوسيع ملكياتهم . وقد أسفرت عن هاتين السيطرتين الاقتصادية والسياسية على المجتمع نتائج مهمة في الحياة الخاصة للارستقراطية وفي علاقاتها مع الطبقات الأخرى مما سنأتي لذكره .

فهذه السيطرة ، وهذا الأسلوب في الحياة الخاصة الذي نشأ عنها والعلاقات الاجتماعية التي انبثقت من كل ذلك ، والنفوذان المادي والمعنوي اللذان تمتعت بها هذه الطبقة كان لها أعمق الأثر في الحياة الفكرية والأدبية والثقافية للمجتمع وسنرى كيف ان الصفات الخاصة للمجتمع الاندلسي كانت نتيجة لتداخل هذه العوامل وتفاعلها مع بعضها ومع العوامل التاريخية والعنصرية والنفسية والاجتماعية الأخرى .

ولكن كيف استطاعت الارستقراطية الاندلسية رغم مثالبها ولا سيما ما يختص بضعف القاعدة الشرعية لسلطتها ، ورغم حياتها الخاصة اللاهية ، أن تستخدم نفوذها الاقتصادي لتثبيت سيطرتها السياسية وتملكها زمام السلطة ؟

(١) الزجالي ، ري الأوام ومرعى السوام في أمثال الخاصة والعوام ، حرف الألف والمثل باللهجة العامية الاندلسية .

سنرى الاجابة عن هذا السؤال واضحة بعد أن نمر بسرعة على الطبقات الاجتماعية الأخرى ونرى علاقاتها التي تربطها بالأرستقراطية وبذلك نستطيع إدراك قوة نفوذها ومدى تأثيرها والسبب الذي جعلها تحتل هذا المركز المهم في المجتمع .

الفلاحون

لا شك في أن الفلاحين كانوا يكونون الأكثرية الساحقة من أبناء الاندلس إذ كانت البلاد تعتمد في عيشها – كما ذكرنا – على الزراعة قبل كل شيء . ومن المعروف ان النظام الذي كان سائداً قبل مجيء المسلمين الى اسبانية كان نظاماً إقطاعياً ، وكانت الأرض فيه موزعة على الأمراء والنبلاء القوطيين الذين انتزعوا السلطة واقتسموا البلاد ، شأن النبلاء في القرون الوسطى في أقطار اوربا الاخرى، بعد أن أزاحوا السلطة الرومانية التي كانت قائمة في البلاد[١]. وعندما جاء المسلمون ودحروا القوط انتزعوا فيما انتزعوا منهم أراضيهم وقلاعهم فاقتسموها فيما بينهم واحتفظوا بالفلاحين الذين كانوا يزرعونها بالشروط التي وضعوها،والتي كانت أقل عسراً من الشروط التي كان يرزح تحتها الفلاحون في زمن حكم القوط[٢]. اذ يبدو من التشريع الاسلامي الذي ساد في الأندلس، أن الفلاح لم يكن مرتبطاً بالارض بل كان له نظرياً على الأقل حق العمل حيث شاء،لذا فمن المرجح جداً أن يكون نوعاً من نظام المساهمة في الانتاج[٣] كان متبعاً على وجه العموم في البلاد الا حيث يشتغل العبيد ، وليست لدينا اشارات ثابتة عن اشتغال العبيد في الارض في الاندلس بنطاق واسع كما كان الامر في المشرق (في منطقة البصرة مثلاً) .

(1) Kopcyhnn A.P., O Pabbntnn leonanbhbix Othomehnn B Fot - chen Nchahnn Y - YII BB., Cto. 27-57, Cpenhne Beho, X, Nbn. AH CCCP.

(2) Levi Provençal, Esp. Mus. au xè me siecle, p. 116 .

(٣) انظر اشارة الى ذلك في نفح الطيب (ليدن) ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

وهذه الظروف التي سبقت وأحاطت مجيء المسلمين الى إسبانية ، اذا أضيفت الى الاضطرابات الداخلية التي لم تكن تسمح للمزارعين أن يحموا انفسهم دون الانضواء تحت حماية سيد قدير ، هذه الظروف تجعلنا نعتقد أن نظام الملكية الصغيرة لم يكن نظاماً شائعاً في الريف الاندلسي رغم ان لا سبيل الى إنكار وجوده . ولا شك في أن هذه الظاهرة تظهر في عهد ملوك الطوائف أكثر من ظهورها في أي وقت سابق من تاريخ المسلمين في إسبانية ، فقد عرضنا الى ما يقوله المؤرخون الاندلسيون الذين عاصروا هذه الفترة تقريباً ورأينا بعض الأساليب التي يلجأ اليها الأمراء لانتزاع الارض من الملاكين الصغار ، ولكن هذه الاخبار نفسها تدل على أن الملكية الصغيرة لم تكن معدومة في هذه الفترة وقبلها .

قلنا إن الفلاحين كانوا يكونون الاكثرية الساحقة من أبناء البلاد ، ولكن أثرهم في الحياة العامة لم يكن ذا بال مع أنهم كانوا يتحملون وزر سوء الأوضاع والاضطرابات فضلاً عن تعسف المالكين وجور جامعي الضرائب[1] ، كانوا هم أولى ضحايا القحط والمجاعات ، وكانوا هم أكثر من يصاب بالاضطرابات والحروب الداخلية المستمرة آنذاك ، فلا تكاد الحرب تنشب بين أميرين حتى تحرق المزارع وتخرب البساتين خارج أسوار المدن التي يعتصم فيها سكانها ، واذا أغار المسيحيون من الشمال ، وكثيراً ما يغيرون في هذه الفترة على بلاد المسلمين ، فهمّهم الاول إتلاف الزرع وانتهاب الضرع . والفلاحون في كل ذلك يقاسون ما يقاسون . أقول مع ذلك كله لم يكونوا ذوي أثر كبير في الحياة العامة ، ولم تكن علاقاتهم بالارستقراطية المالكة سوى علاقة التبعية التامة التي فرضتها ظروف الحياة القاسية ، ورغم أن حوادث تمرد العامة في المدن ودورهم في الحياة السياسية واضح بيّن ، فإن الاشارات التاريخية التي تدل على إسهام الفلاحين بشكل إيجابي قليلة ، رغم أن وضعهم السيء قد يستغل من قبل الثوار

(١) ابن عبدون ، رسالة في الحسبة : ص ١٦٥ .

والمتمردين فيحشدون لنصرة هذا الثائر أو ذاك .

ولهذه الظاهرة أسبابها الطبيعية ، فابتعاد الفلاحين عن مراكز الحياة السياسية في المدن وانتشارهم وتفرقهم وخضوعهم المباشر لرحمة أسيادهم كلها مبررات كافية لتوضيح هذه الظاهرة .

ودور الفلاحين في الحياة الثقافية ليس أكثر أهمية من دورهم في الحياة السياسية ، فقد تعاونت الظروف المحيطة بهم على إبعادهم عن التيارات الثقافية والأدبية والفكرية التي تتركز كما نرى في المدن او في بلاطات الأمراء وقصور الأغنياء .

ويلاحظ أن التشريع الذي كان سائداً في البلاد نفسه لم يتحدث عن حقوق الفلاح رغم أنه شغل كثيراً بحقوق المالكين وعني بتثبيتها وسندها والدفاع عنها الى أقصى حدود الدفاع ، وبذلك جعل يدهم هي العليا في حياة الفلاح وفي مصيره . والمؤرخون على وجه العموم لم يوجهوا عناية للتحدث عن حياة الفلاحين ، لذا فكل ما لدينا عنهم من أخبار انما هي إشارات عابرة جاءت في معرض التحدث عن امير أو ملك أو وزير ، فما نعرفه عن حياتهم لا يكاد يذكر .

الطبقة الوسطى

اذا تركنا الحياة الريفية جانباً نرى الحياة المدنية قد قطعت خطوات واسعة نحو التقدم . فقد تطور عدد غير قليل من المدن الاندلسية منذ أن دخلها المسلمون فاتسعت وكثر سكانها بسرعة كبيرة وباستمرار في هذا العهد ، اي عهد ملوك الطوائف . ولكن الملاحظ أن قرطبة كانت حتى هذه الفترة هي الحائزة على قصب السبق في هذا التقدم والتطور[1] . وذلك أمر طبيعي فهي

(1) Levi - Provençal, E. M. au Xème siècle, P 232-236
نفح الطيب ، ج ١ - ص ١٠٥ (ليدن) .

مقر الخلافة ومركز الأرستقراطية الحاكمة، وهي لذلك مركز الحركة التجارية والثقافية في البلاد . ولكن مـا كاد القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) يقوم وتنفصل معه المقاطعـات الاندلسية عن مركز الخلافة وتبدأ فترة ملوك الطوائف حتى رأينا مدناً أندلسية عديدة تتطور سريعاً سواء أكان ذلك من الناحية العمرانية أم من النواحي التجارية والصناعية والحرفية ، نخص بالذكر منهـا إشبيلية وبلنسية وطليطلة وغرناطة وسرقسطة ومرسية الخ ... وقـد ساعد الاستتباب السياسي في القرن الرابع الهجري ، في عصور عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم وخليفته في الحكم الحاجب المنصور ، على تنشيط الحركتين الصناعية والتجارية وتشجيعها تشجيعاً كبيراً ، ويورد لنـا الاستاذ ليفي بروفنسال في كتابه عن اسبانية المسلمة في القرن العـاشر صورة واضحة عن شدة الحركتين الصناعية والتجارية وأوجه نشاطها[١] ، يبدو منها أن اسبانية الاسلامية كانت متقدمة في هذه النواحي لدرجة تستطيع معها ان تكفل حاجاتها في هذه الميادين .

يترتب على ما مر طبعاً أن قسماً كبيراً من الناس كانوا يجدون في الحركتين الصناعية (ومنها الحرفية) والتجارية وسيلة للعيش ، بل اننا لا نخطىء التقدير اذا قلنا إنهم يكونون القسم الاكبر من سكان المـدن التي تحتوي على الملاكين الكبار الذين اختاروا المدينـة سكناً لهم ، وبينهم الحكام ومن يحيط بهم من الخاصة او الأرستقراطية وأتبـاعهم ، وعلى الموظفين والجنود المتهنين ورجال العلم والادب والتجار والحرفيين وعناصر كثيرة أخرى تستفيد من الامكانيات الموجودة في المدينة للحياة والحصول على موارد للرزق .

ويمكننا أن نميز في هذا الخليط من الناس مجموعـة منهم نستطيع أن نطلق عليها اسم الطبقة الوسطى . والدافع الذي يدفعنا قبل كل شيء الى تميزهم عن غيرهم هو المستوى المعاشي الذي يحيون فيه ومن ثم أسلوبهم في الحياة وموقفهم

(1) Levi Pronençal, E. M. au Xème siècle, PP. 232 - 235

من الأرستقراطية الحاكمة ومصالح مشتركة تربطهم . ونستطيع أن ندخل في هذه الطبقة .

١ – التجار ولا سيما الكبار منهم، ويمكن أن نلخص مطاليبهم من السلطة الحاكمة بثلاث نقاط رئيسية ، أولاً : - الأمن الداخلي أو النظام ، وثانيـاً : العدالة وثالثاً : السلم الخارجي[١] . فمن الطبيعي أنه بانعـدام الأمن الداخلي الذي يحفظ للتجار أموالهم والعدالة التي تحفظ لهم حقوقهم والسلم الذي يضمن أمان الطرق وحرية التنقل ، فان من العسير أن نتصور إمكانية تطور التجارة وازدهارها ومن ثم ازدياد أرباح التجار . ورغم أن النزاع الدامي العنيف بين ملوك الطوائف في الأندلس في هـذه الفترة لم يكن ممـا يساعد التجارة على الازدهار والنمو،الا أن استقلال المدن الاندلسية وازدياد ثروات الأرستقراطية المحلية الحاكمة في كل من هذه المدن عاد بنتائج طيبة على الحركة التجارية وعلى الذين يشتغلون بها ، ويذكر لنا ابن عذاري المراكشي مثلاً عما حصل في بلنسية في عهد مبارك ومظفر العامريين اللذين استقلا في هذه المدينة ومـا كان لهذا الاستقلال من أثر في التجار فيؤكد أن التجارة والعمران قد ازدهرا في المدينة حتى قصدها كثير من اصحاب الصناعات وعرفاء الحرف والتجار، فكانت كل بضاعة تنفق فيها[٢] .

ولا نريد أن نطيل أكثر من ذلـك في الحديث عن أثر ملوك الطوائف في تنشيط التجارة بل يكفي أن نلفت النظر الى النفقات الباهظة التي كان يتطلبها الانفاق على بلاط الخليفة عبد الرحمن الناصر والتي أشار اليهـا المؤرخون[٣] . لنستطيع تصور أثر مثل هذه العوامل في التجارة ، فوجود الأمراء رغم أنهم متفرقون في المدن ورغم أن حياتهم لم تصل الى ما وصلت اليه حياة الخلفاء من

(١) وهذا الموقف يشابه موقف الطبقة الوسطى في المجتمع الاقطاعي الأوربي : انظر ،
Petit Dutaillis, La Commune Française, P. XI

(٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ص ١٦٤ .

(٣) نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٤٤ (ليدن) .

بذخ وترف ، كان دون شك من العوامل المؤثرة في النشاط التجاري . ومع ذلك فان ثراء التجار على وجه العموم ولا سيا في هذه الفترة لا يمكن أن يقارن بثراء الملاكين العقاريين الكبار لذا فليس من المنتظر أن يستطيعوا منافسة هؤلاء الاخيرين في النفوذ الاقتصادي ومن ثم في النفوذ السياسي . وبما أنهم يتطلبون دائماً كما قلنا الأمن الداخلي والعدالة والسلم الخارجي لنجاح أعمالهم ، لذا فهم يؤيدون الطبقة الحاكمة ويسندونها طالما حققت لهم هذه المتطلبات ، هذا بالاضافة الى العوامل الأخرى التي تربطهم بالأرستقراطية الثرية . أما اذا لم يستطع الحاكمون أن يحققوا لهم هذه الأهداف او اذا أسرفوا في إثقال كاهلهم بالضرائب فإنهم لا يترددون في مساعدة أعدائهم للتخلص منهم ، وقد برزت هذه الظاهرة كما سنرى في آخر عهد ملوك الطوائف .

٢ – اصحاب المشاريع الصناعية ، الذين لم تكن وسائل الانتاج وأدواته تساعدهم على تكوين ثروات كبيرة . ومع ذلك فقد كانت مصانع الورق والنسيج والخزف والزجاج والصباغة وغيرها منتشرة في الاندلس[1] . وكانت تستخدم عدداً من العمال يختلف قلة وكثرة تبعاً لأهمية المشروع وكبره . وكان نجاح هذه المشاريع يعتمد لحد كبير على نجاح التجارة ، لذا فشأنهم شأن التجار فيما يتطلبونه من الدولة او في موقفهم من الأرستقراطية الحاكمة . وقد وجدت الصناعة المحلية في الاندلس ايام ملوك الطوائف المجال مفسوحاً للازدهار نتيجة ثراء الأرستقراطية المحلية وصادفت نفس العقبات التي صادفتها التجارة في هذه الفترة .

٣ – موظفو الدولة التابعون : فقد كان الموظفون الكبار عادة كالوزراء والقاضي وصاحب المدينة وصاحب الشرطة الخ ... من أبناء العوائل الكبيرة اما أولئك الذين يشغلون الوظائف الأخرى الأقل أهمية فنستطيع ان نضيفهم الى الطبقة الوسطى ، وأهم ما يدفعنا لذلك هو ، أولاً ، مستواهم المعاشي

(١) نفح الطيب ، ص ٨١ – ١٢٥ (ليدن) .

المتوسط ؛ ثانياً ، ارتباط مصالحهم بالأرستقراطية الحاكمة على وجه العموم ارتباطاً وثيقاً .

٤ – ونستطيع ان نضيف الى الطبقة الوسطى الملاكين الصغار الذين يطمحون دائماً الى أن يزيدوا ثرواتهم ويلتحقوا بالأرستقراطيين الاثرياء وقد أشرنا الى المصاعب الكثيرة التي كانت تجابههم في عهد ملوك الطوائف وموقفهم من الأمراء الحاكمين وموقف هؤلاء منهم .

هذه هي المجموعات الرئيسية من السكان الاندلسيين الذين نستطيع ان نطلق عليهم اسم الطبقة الوسطى . وهم بمجموعهم يتميزون عن غيرهم ببعض الخواص ، أهمها مستواهم المعاشي ، فهم لا يتمتعون بترف الأرستقراطية وبذخها ولكنهم مع ذلك لا يقاسون صعوبات العيش التي تقاسيها العامة . هذا الى أنهم يعملون دائماً لحفظ ما يملكونه من جهة ولتوسيع ثرائهم والوصول الى صفوف الأرستقراطية الحاكمة ومساندتها ، لذلك رغم أنهم يكونون جزءاً مهماً من سكان المدينة فانهم ليسوا خطراً على الحاكمين فهم متجهون غالباً الى الهدوء والمسالمة وإطاعة أولى الأمر .

العامة

أطلق المؤرخون المسلمون على الاكثرية الساحقة من سكان المدن اسم « العامة » يفرقونها عن « الخاصة » التي تعني بنظرهم أشراف القطر وأغنياءه ومن يحيط بالأمير من خواص ووزراء أو ما أطلقنا عليه اسم «الأرستقراطية» وتحت اسم العامة يمكن أن ندخل الحرفيين والعمال وصغار التجار والأجراء والعاطلين وجميع أولئك الذين جاءوا الى المدينة يبحثون عن وسيلة للرزق ويستخدمون قوتهم على العمل للحصول عليه . وقد اعتاد المؤرخون المسلمون أن يصموا العامة بألفاظ يفهم منها الذم على وجه العموم كرعاع وغوغاء ودهماء الخ ... ولا شك اننا نستطيع تصور عددهم الهائل اذا ما أدركنا

شدة الحركة في المدن في هذه الفترة وتطور الصناعة والتجارة وكثرة مرافق المدينة وتعدد أوجه النشاط فيها[١] .

وأهم ما يميز هذه الطبقة اذا جاز إطلاق هذه الصفة عليها عن غيرها من طبقات المجتمع الاخرى هو قبل كل شيء مستوى حياتها الواطىء نسبياً ؛ وسنرى ذلك بوضوح عندما نعرض لبعض ما وردنا عن أعمالها وأجورها . وثانياً ، سرعة تأثرها بالأزمات التي تجتاح البلاد ، فهي أولى الطبقات التي تفتك بها المجاعات ويهلكها القحط وتعبث بعيشها الحروب وغير ذلك من الأزمات التي كثيراً ما كانت تجتاح إسبانية المسلمة في هذا القرن والقرون التي سبقته . ولا شك أن تأثير هذه الأزمات لا يقتصر على العامة بل يمس الطبقات الأخرى أيضاً ، ولكن قدرة هذه الطبقات الأخيرة على الصمود في وجهها أكثر بكثير من قدرة العامة بالنظر لامكانياتها الاقتصادية . يذكر لنا ابن الزبير مثلاً في كتابه « صلة الصلة » ، أن المجاعة التي حدثت عام ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م) كانت مريعة في إشبيلية لدرجة خطيرة اضطر الناس فيها الى دفن كل ثلاثة او أربعة أشخاص في قبر واحد ، وأن المساجد خلت من المصلين[٢] ولا شك أن استغرابنا من هذه الحال يقل اذا علمنا أن قفيز الحنطة (اي ما يعادل تقريباً ثلاثين كيلو غراماً) وصلت قيمته في قرطبة في احدى فترات القحط ثلاثة دنانير كما يذكر المقدسي[٣] . ويقول المقري ان الربع (ويعادل ثمانية عشر رطلا او خمسة وعشرين رطلا[٤] ، اي ما يعادل تسعة او اثني عشر كيلو غراماً) من الطحين بلغ ثمنه في بعض سنوات الجدب

(١) ابن عبدون ، رسالة في الحسبة ؛ السقطى ، رسالة في الحسبة ؛ نفح الطيب ، ج ١ ؛ ص ٨١ - ١٢٥ .

Levi - Provençal, E. M. Xème Siècle, P. 179.

(٢) ابن الزبير ، صلة الصلة ، ف عبد الملك بن محمد بن خلف التجيبي (مخطوط فاس) .
(٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١ ، ٢٤ .
(٤) السقطي ، رسالة ٦ الحسبة ، ص ٢٧ .

دينارين[١] ، ولكي ندرك ما تمثله هذه الارقام « دينـاران » ، ثلاثة دنانير » بالنسبة للعامل او الأجير سنحاول أن نستخلص من بعض ما ورد في كتب التاريخ الاندلسي فكرة عن الأجور ومستوى الحياة لدى العامة .

يذكر المقري أن أجور الرجال الذين كانوا يشتغلون في بناء الزهراء في القرن الرابع وهو قرن ازدهار وثروة ، كانت تتراوح بين الدرهم والنصف وثلاثة دراهم يومياً تبعاً لمقدرتهم الحرفية[٢] . ويعطينا السقطي وهو من المؤلفين الذين عاشوا في مالقة في أواخر القرن الخامس او أوائل السادس مثلاً طريفاً عن تكاليف وأجور معمل صغير لصنع الخبز في معرض التحدث عن الاسعار المعقولة للخبز في تلك الفترة . يعكس لنا هذا المثل صورة جيدة عن مستوى الحياة وتكاليف العيش عندما يتحدث عن غذاء رئيسي مثل الخبز . يقول السقطي ، إن القنطار من الطحين (اي حوالي خمسين كيلو غراماً)[٣] كان سعره المألوف في تلك الفترة ثلاثين درهماً في السوق ، ولكي يجعل صاحب معمل الخبز من هذه الخمسين كيلو غراماً من الطحين خبزاً فلا بد ان يدفع الأجور التالية : —

ثلاثة عجانين بدرهم ونصف اي ١/٢ درهم لكل عجان .
وعامل مساعد ٣/٨ الدرهم .
ووقاد بـ ١/٢ درهم .
وللماء والملح ١/١٦ من الدرهم .
وللخشب ٥/٨ الدرهم[٤] .

(١) نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٧١ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٦٧ .
(٣) يساوي القنطار ١٦٠٠ أوقية او أو عشرة أرطال (السقطي ص ٢٧) والرطل يساوي ٤٠٥ غراماً .
(٤) السقطي ، رسالة في الحسبة ص ٢٧ ،

من ذلك نستنتج أنـه لكي يصنع من خمسين كيلوغراماً من الطحين خبز يُحتاج لخمسة عمال يدفع لكل منهم نصف درهم تقريباً .

ولا شك أن هذا العدد من العمال يستطيع ان يصنع أكثر من هـذا المقدار من الطحين في اليوم فقد يستهلك مائة أو مائة وخمسين كيلوغراماً من الطحين، فمعنى ذلك أن أجر العامل في الخبز يتراوح بين درهم ودرهم ونصف يومياً . ويستمر السقطي في حسابه ليحدد السعر المعقول للخبز ، فيقول إن القنطار من الطحين أي (١٦٠٠ أوقية) يعطي ٢٤٠٠ أوقية من العجين وقد رأينا ان ما صرف حتى الآن هو ثلاثون درهماً ثمناً للطحين وثلاثة دراهم للعمال ولنفقـات الحطب والماء ، أي ثلاثة وثلاثون درهماً . ويسمح المؤلف لصاحب المخبز أن يضيف ثلاثة دراهم بدل استهلاك أدوات العمل وربحاً له ، أي إن البائع يجب ان يبيع هذه الـ ٢٤٠٠ أوقية من العجين بعد خبزهـا بستة وثلاثين درهماً ، أي لكل ستة وستين أوقية درهم واحد ، ومعنى ذلك أنه بربع درهم يجب أن يباع ست عشرة أوقيـة ونصف ولكن هذه الكمية من العجين تفقد بعد عرضها على النار أوقية ونصفاً من وزنها ، إذن يجب أن تباع كل خمس عشرة أوقية من الخبز بربع درهم (والخمس عشرة أوقية تساوي أقـل من خمسمائة غرام بقليل) ، أي إن الكيلوغرام الواحد من الخبز كان يباع بنصف درهم تقريباً[١] .

ويذكر السقطي أيضاً أن على القصاب أن لا يربح من كل خروف أو معزاة أكثر من درهمين[٢] .

يمكن أن تعطينا هذه الاشارات التاريخية التي قدمها لنا مؤرخون جديرون بالثقة فكرة لا بأس بهـا عن مستوى الحياة في تلك البلاد . ومع أن هذه

(١) السقطي ، رسالة في الحسبة ، ص ٢٧ .
(٢) نفس المصدر .

الفكرة لا يصح اعتبارها عامة شاملة ، إلا أنها يمكن أنْ تكون نقطة ارتكاز وابتداء لبعض التقديرات التي تخص مستوى الحياة .

وبما اننا لا نستطيع تقدير قيمة الدرهم او الدينـار تقديراً حقيقياً إلا بمقارنته بمستوى الحياة والاسعار ، فـلا بد ان نأخذ وحدة أخرى كثيرة الاستعمال في الاندلس في القرن الخامس وفي عصرنا الحاضر . وخير وحـدة تصلح لذلـك هي « الخبز » الذي كـان يستعمل غذاء رئيساً آنذاك ولا يزال كذلك .

وبناء على ما مر نستطيع التوصل الى بعض النتائج .

١ – إن أجرة العامل المتوسط هي درهم ونصف أي مـا يعادل ثلاثة كيلوغرامات من الخبز ، ونقصد بالمتوسط الذي امتهن مهنة ما كالخبز او البناء أما العمال المهرة فأكثر من ذلك اذ أن أجرتهم قد تصل الى ثلاثة دراهم يومياً (أي ما يعادل ستة كيلوغرامات من الخبز) .

٢ – ان ما يربحه صاحب معمل للخبز يشتغل فيه خمسة عمـال هو حوالي ستة دراهم يومياً فقد ذكرنا أن السقطي سمح بإضافة ثلاثة دراهم ثمناً لاستهلاك أدوات العمل والمصاريف الاخرى عدا مـا ذكرنا وربحاً لصاحب العمل فاذا فرضنا أن درهمـاً يمكن ان يعوض عن استهلاك الأدوات والمصاريف الاخرى فيبقى درهمان لصاحب العمل ربحاً صافياً من كل خمسين كيلوغراماً من الطحين بعد أن يصبح خبزاً ، وقد قدرنا ان متوسط مـا يستطيع مثل هذا المعمل الصغير خبزه هو مائة وخمسون كيلوغراماً يومياً من الطحين .

٣ – إن معدل ما يربحه قصاب يومياً حوالي اربعة دراهم (باعتبار أن معدل ما يبيعه قصاب يومياً هو خروفان) .

٤ – يلاحظ أن خمسة أسداس ثمن الخبز يذهب لصاحب الطحين في حين ان سدساً واحداً فقط يذهب للعمل ولصاحب العمل ، (قد رأينا أن ما ثمنه

ثلاثون درهماً من الطحين يباع خبزاً بستة وثلاثين درهماً) . وهذه النسبة تدل دلالة واضحة على رخص العمل وقوة مركز منتجي القمح في عملية الانتاج .

ونحن لا نريد طبعاً أن نجعل من هذه الملاحظات قواعد عامة نطبقها حرفياً على المجتمع الاندلسي ، وإنما هي كما ذكرت كفيلة بأن تلقي لنا ضوءاً على المستوى الاقتصادي أو مستوى الأجور لدى العامة ولا شك أن مدى الخطأ في هذه التقديرات لا يصل لحد يقلب فكرتنا عن مستوى حياة العامة رأساً على عقب ، لا سيما وأن أكثر الإشارات الواردة في كتب التاريخ عن هذا الموضوع تقارب لحد كبير تقديرات السقطي ، فيقول المقري عند حديثه عن بناء الزهراء إن بين الرجالة من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة(١) .

ولكي ندرك البون الشاسع بين مستوى حياة العامة ومستوى حياة الأرستقراطية سنتطرق الى بعض الارقام التي وردت في كتب التاريخ عن مستوى حياة هذه الطبقة ومن يحيط بها .

كان راتب عبد الملك بن شهيد وزير الخليفة عبد الرحمن الناصر خمسمائة دينار في الشهر ، وقد رفعه الخليفة الى ألف دينار أثر هدية أهداها اليه عبد الملك . كما أنه وهبه في احدى المناسبات ثمانين ألف دينار(٢) . ويبدو أن الدينار كان يعادل على وجه العموم عشرة دراهم(٣) ، إلا أن ثمنه كان يتبدل تبعاً لتبدل ثقله وثمن الذهب والفضة . فيقول ابن حوقل إن الدينار كان يعادل أثناء إقامته في الاندلس سبعة عشر درهماً(٤) . وقد أعطى الحاجب المنصور مرة الأديب المعروف صاعداً البغدادي مبلغ ألف دينار كما عين له مرتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً(٥) . وكان المغني زرياب يقبض مخصصات شهرية

---

(١) نفح الطيب ، ج ١ ص ٣٤٦ (ليدن) .
(٢) نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٣٣ .
(٣) Puerto yvives, Reges de Taifas, P 23
(٤) نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٩٦ .
(٥) نفس المصدر ، ج ٤ ، الذخيرة ق ٤ ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

قدرها مائتا دينار ، كما أن كلا من أبنائه الأربعة كان يأخذ عشرين ديناراً شهرياً ، وقد تسلم في احدى المناسبات هدية قدرها ثلاثة آلاف دينار(١) . وقد أعطى المعتمد لابن عمّار الذي أرسل اليه بيتين وهدية صغيرة في إحدى المناسبات خمسمائة دينار(٢) ، كما وهب مرة ابن وهبون الشاعر جزاء على قصيدة ألقاها مائتي دينار(٣) . وقد « ميز عبد الرحمن الاوسط ولاية السوق عن أحكام الشرطة المسماة بولاية المدينة وصيّر لواليها ثلاثين دينار في الشهر ولوالي المدينة مائة دينار(٤) » .

وأمثال هذه الاشارات كثيرة متعددة في كتب تاريخ الأدب الاندلسي ، بالاضافة الى المعلومات الكثيرة عن حياة البذخ التي كان يحياها الأمراء والوزراء والاغنياء والقصور الشاهقة التي كانت تبنى . وكلها تشير الى البون الشاسع بين حياة العامة وحياة الأرستقراطيين الاغنياء . ففي الوقت الذي نرى فيه العامل المتوسط يشتغل عدة أيام ليحصل على دينار واحد ، نجد مئات الدنانير وألوفها تنفق في أوساط الأمراء والاغنياء للمتعة واللهو وقد سبق أن أشرنا الى أن ابن رزين دفع ثلاثة آلاف دينار ثمناً لجارية حسناء .

ولا بد أن نشير الى أن هذه الارقام التي ذكرناها لا تتضمن الموارد الخاصة التي ترد من الاملاك الواسعة التي يقتنيها الأمراء والوزراء وغيرهم من الخاصة . ويكفي أن أشير الى ما قاله احمد بن عبد الملك بن شهيد عن ثروة أبيه حين ترك عمله – وكان والياً في احدى جهات الاندلس – وعاد الى قرطبة ، قال: « فورد قرطبة بأربعمائة دينار ناضة ، ومائة الف آنية من ذهب ، ووثائق خمسمائة زوج مكتسبة ، ومائتي نسمة من رقيق الصقلب منتقاة ، والسعراذ

---

(١) نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٢١ ، المغرب ص ٥١ .
(٢) نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١١٩ .
(٣) الذخيرة ، ق ٢ ، ف . ابن وهبون .
(٤) البيان المغرب ، ٤٦ .

ذاك بها سام جداً ، ونفقة أبي كل شهر سبعون مدياً من قمح وعلف ثمانين دابة من الشعير[١] » .

ويشير السقطي في رسالته عن الحسبة الى يوم العمل ، فيقول إنه يجب أن تراعى فيه مصلحة العامل وربّ العمل ، لذا يجب أن لا يتجاوز – على رأيه – المدة الواقعة بين شروق الشمس ونصف المدة بين صلاتي العصر والمغرب[٢] (معنى ذلك انها بمعدل إحدى عشرة ساعة تقريباً) .

ومن ذلك كله نستنتج أن مستوى حياة العامة كان واطئاً جداً لا سيما اذا ما قورن بالثراء والترف اللذين كان عليهما الاغنياء والأمراء . ولم يكن مجال العمل أمام المرأة واسعاً لكسب الحياة مما زاد في ثقل التبعة التي يحملها الرجل. وفضلاً عن كل ذلك فان هذا المورد اليسير لم يكن مضموناً أوقات الأزمات والقحط والحروب الطاحنة ، عندما تتوقف الاعمال ويقل الانتاج ، فلا غرابة إذن ان سمعنا ابن عذاري يتحدث عن أناس يلبسون الحصر والجلود ويأكلون الحشائش والبقل[٣] ، وإذا حدثنا ابن الزبير عن موت الناس جوعاً جملة عام ٤٤٨ ﻫ (١٠٥٦ م) في إشبيلية حتى إن المساجد خلت من العبّاد وأصبح الموتى يدفنون كل ثلاثة او أربعة في قبر واحد[٤] .

ولا بد أن أشير بهذه المناسبة الى أني لا أريد من وراء ذكر هذه الحقائق إثارة الشفقة والعطف على هؤلاء الناس ، ولا أبتغي من ذلك المجتمع أن يحل مشاكله بما نتطلبه من مجتمعنا الحاضر ، كما أني لم أنظر الى ذلك المجتمع القديم بنظرة ذاتية منبثقة من مفاهيم معاصرة . بل إن كل ما أبغيه هو ذكر حقائق أعتقد أنها كانت موجودة ووصفها وصفاً موضوعياً مجرداً من كل وجهة نظر

---

(١) الذخيرة ، ج ١ ص ١٦٧ .
(٢) السقطي ، وسالة في الحسبة ، ص ٦٥ .
(٣) البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ١٦٠ .
(٤) ابن الزبير ، صلة الصلة ، ف . محمد بن خلف التجيبي (مخطوط فاس) .

ذاتية بعد أن أهملها المؤرخون ؛ وسنرى أن الظواهر التاريخية سواء منها الاقتصادية او الاجتماعية او السياسية او الفكرية او الأدبية مرتبطة ببعضها البعض ارتباطاً وثيقاً وأنها تؤثر في بعضها البعض سواء أردنا أم لم نرد ، وما علينا سوى اكتشاف آلية هذا التفاعل والتأثير المتبادل بين مختلف هذه الظواهر .

ونعود الى حديثنا عن العامة ، فأقول اننا نصل من كل ما مضى الى بعض الحقائق وأهمها ان الصفة الرئيسية التي تجمع العامة هي مستوى حياتهم الواطىء وسرعة تأثرهم بالأزمات ، أي دقة مركزهم وعدم وجود أي ضمان للمستقبل وعلى ذلك فان شعورهم بالرضى او الاستياء يتغير تبعاً لتحسن الأحوال المعاشية العامة او سوئها . ولا نريد أن نستنتج من ذلك مطلقاً أن للعامة شعوراً طبقياً معيناً وأن لها تبعاً لذلك أيديولوجية منظمة منبثقة عن ظروفها وحاجاتها ، وإنما نريد ان نقول إنها بسبب ظروفها المعاشية التي أشرنا اليها أصبحت شديدة التحسس بسوء الاوضاع، سريعة الانفجار عند سنوح الفرصة، كما تثبت ذلك الحوادث التاريخية في الاندلس منذ نشوء الدولة الاسلامية فيها، ولا سيما منذ نهاية القرن الرابع وبداية الخامس ، والتي سنرى آثارها واضحة في تاريخ ملوك الطوائف ، بل اننا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان الخطر الداخلي الحقيقي الذي كان يهدد هؤلاء الملوك كان يتأتى من العامة قبل غيرهم من الطبقات وسنرى كيف أنهم قاموا بدور رئيس في إنهاء فترة ملوك الطوائف كما لعبوا دوراً رئيساً في خلقها .

وقد كان للعامة مفاهيمها الخاصة ومثلها التي استوحتها ، أولاً : — من الافكار الدينية والمفاهيم العامة السائدة في المجتمع والتي كانت تغذيها الأرستقراطية الحاكمة وتشجعها . وثانياً : من ظروفها الخاصة وحياتها العملية التي سبق أن أشرنا الى جانب منها عند التحدث عن حالتها الاقتصادية . فمن المصدر الأول جاءهم الايمان بالقضاء والقدر وشرعية الحكم وإطاعة أولى

الامر والارادة الالهية وكثير من مفاهيم الخير والشر والفضيلة والرذيلة الخ ..

ومن المصدر الثاني تأتيهم كثير من الخبرات والتجارب العملية التي تعكس في تفكيرهم كثيراً من المفاهيم التي قد لا تتفق مع المفاهيم التي يوحي بها الدين ومع ذلك فهي تمتزج بنفسياتهم وتلعب دورها في سلوكهم وأخلاقهم . فهذا المزيج المعقد من تيارين مختلفي المصدر ، الاول من مصدر ميتافيزيقي والثاني من مصدر عملي تطبيقي ، هو الذي يوجه أعمال العامة وسلوكها بشكل غير شعوري في أغلب الاحيان ، بل وغير منطقي احياناً . فقد كان رجل الشارع مثلاً مؤمناً بل إنه متعصب احياناً ، معتقداً بالقضاء والقدر ، وبقوة الله وجبروته ، ولكن ذلك لا يمنعه من النهب عندما تحين الفرصة ومن خدع الآخرين في معاملاته معهم أحياناً ، وكان يستنكر عدم العدالة في الحياة ، ولكنه لا يترك فرصة اذا لاحت لاستغلال الاضطراب والفساد لأن حياته التي يحياها كل يوم تدفعه الى ذلك . لقد تحدث المؤرخون في مناسبات عديدة عن روح انتهاز الفرص هذه لدى العامة فلا يكاد مكروب يحيق بالملك حتى ينتهزوا الفرصة للتنكيل والربح ، فهم كما يقولون مستعدون دائماً لمهاجمة القصور ونهبها بل إنهم هاجموا في احدى المناسبات جامع الزهراء وانتهبوا بسطه وقناديله ، ومما يذكر عن المتناقضات في سلوكهم موقفهم في بداية القرن الخامس في قرطبة من البربر المسلمين والفرنج المسيحيين الذين جاءوا لمساعدة المهدي الذي خلف بني عامر في الحكم فقد دخلوا في معارك طاحنة مع البربر متعاونين مع الفرنج حتى اذا أراد هؤلاء الآخرون الرجوع الى بلادهم حزن العامة كما يذكر ابن عذاري حزناً شديداً حتى أنهم تبادلوا فيما بينهم عبارات العزاء[١] .

ويجب ان لا نستنتج من ذلك ، كما أراد المستشرق بيريز ان يفعل[٢] بأنه كان للأندلسيين مثل انسانية عليا او قومية تسمو على العلاقة الدينية وتجعلهم

(١) البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٩٩ .
(٢) Pérès, P. 103.

ينظرون الى العلاقة التي تربطهم كأندلسيين مع بعضهم البعض، قبل أن ينظروا الى العلاقة التي تربطهم بالبربر كمسلمين . فالواقع أن الحياة بمتطلباتها القاسية هي التي كانت تدفعهم الى اتخاذ هذا الموقف او ذاك ، ولو أننا حاولنا دراسة مواقفهم في الاندلس دراسة مفصلة لاستطعنا أن نتبين بوضوح الدوافع والاسباب الحقيقية التي كانت تلعب دورها في توجيه سلوكهم وتحديده ، فالشعور الذي دفعهم الى التعاون مع الفرنج ومكافحة البربر في أول القرن الخامس هو نفسه الذي دفعهم الى فتح أبواب المدن الاندلسية في نهاية هذا القرن أمام هؤلاء البربر أنفسهم وتوجيه أقسى الضربات الى ملوكهم الأندلسيين كما أوضحنا ذلك في دراستنا عن المعتمد[١] .

ويذكر لنا الكتابان اللذان كتب أحدهما ابن عبدون وكتب الآخر السقطي واللذان يبحثان في أحوال السوق وواجبات المحتسب في أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل السادس عدداً كبيراً من الخدع التي وإن لم تكن دأب جميع المشتغلين في الاسواق ، إلا أنها كما يبدو من أقوالهما لم تكن قليلة الانتشار على كل حال . كما أننا لا نريد بذكر هذه الالفاظ (انتهاز فرص، نهب، احتيال خدع الخ ...) أن نشتم العامة او نذمها ، وإنما لم نجد سوى هذه الالفاظ المتعارف عليها للاشارة الى أعمال كانت موجودة فعلاً ولها مبرراتها في حياة العامة وظروفها المحيطة بها .

ولعل خير ما يعكس عقلية ونفسية العامة ومفاهيمها المستوحاة من تجاربها وخبراتها الخاصة هي الامثال العامية الشائعة آنذاك والتي نقل إلينا قسماً منها أحد مؤرخي القرن السادس الاندلسيين المعروف بالزجالي بعد أن أضاف اليها امثال الخاصة وقد أطلق على كتابه اسم « ريّ الأوام ومرعى السوام في امثال الخاصة والعوام » ولم يتهيأ للكتاب الطبع مع الأسف فهو لا يزال محفوظاً في مدينة الرباط في المغرب الاقصى . إن أمثال العامة في الواقع تمثل

(١) صلاح خالص ، المعتمد بن عباد الاشبيلي ، بغداد سنة ١٩٥٨ .

حكمتهم والنتائج التي استخلصوها من حياتهم اليومية وتجاربهم الخاصة ، وهي تعكس التيارين اللذين يوجهان تفكيرهم واللذين أشرنا إليهما سابقـاً ونعني بهما التيار الديني والحياة العملية . ولذلك قد يبدو في هذه الامثال تناقض وعدم انسجام مصدرهما متناقضات الحيـــاة ومفارقاتها . فنجد مثلاً من جهة امثلة ضعف الانسان أمام القدر وعدم تمكنه من مغالبة القضاء ، كقولهم (بعد نقله الى الفصحى) « لا يختار الانسان رزقه ولا تاريخ موته » وقولهم « سيء الحظ يعثر ولو ببيضة » ، ونجد من الجهة الاخرى تهكماً لاذعـاً بالمجتمع وبحياتـه ومفارقاته وقلة عدالته كقولهم (بعد نقلها للفصحى) « اثنان يقولان الحق ، الطفل والأحمق » وقولهم « البس لباساً جميلاً وكن حماراً إن شئت فالناس لا تحترم غير الملابس » وقولهم « اتق الله العظيم ولا تشارك في صفقـه مع فقيه » وقولهم « اذا أردت ان تأكل لحم الخنزير فليكن سميناً » وقولهم « عندمـا يضحك الأمير اعلم ان قلبي يبكي » الخ ...

فكل من هذه الامثال ينبثق في الواقع من تجربة عميقة في الحياة ، يمكننا ادراكها عند نظرنا الى المثل وتمعننا فيه . انها فكرة رجل الشارع أمام الحياة المعقدة بما فيها من تيارات ومفارقات . ولسنا الآن بصدد بحث هذا الموضوع بتفصيل وإسهاب وانمـا نكتفي بالاشارة الى بعض نواحيه المهمة ونعتقد أن التاريخ الاندلسي مليء بالشواهد على ما نقوله .

ورغم ايمان العامة بالقضاء والقدر وتأثرهـا بالافكار الدينية وأيدولوجية الأرستقراطية الحاكمة ، فانها احتفظت باستقلال نسبي في شعورها وفي سلوكها تجاه مشاكل الحياة . فهي لم تذب في ظـل الأرستقراطية كما هو شأن الطبقة الوسطى التي تحدثنا عنهـا ولم تكن تابعة للارستقراطية وخاضعة لارادتها كما هو شأن الفلاحين الذين تحدثنا عنهم وكما هو شأن العبيد والمرتزقـة ممن سنأتي لذكرهم ، ولذلك كان لها دور مهم جداً في الحياة السياسية ، رغم أن هـذا الدور لم يكن في أغلب الاحيان عن وعي ، ورغم أن سلوكها كان على وجـه

العموم تلقائياً ودون أهداف معينة محددة وإنما كانت مندفعة في كل ما تقوم به بحاجتها الى الوجود والحياة .

العامة والأرستقراطية

لا ريب في أن استحواذ الأرستقراطية على القسم الاكبر من الثروة يجعل من هذه الطبقة المستهلك الرئيسي لكثير من المنتجات، وقـد بينا أن ثراء الأرستقراطية المحلية في المـدن الاندلسية المختلفة كان له أثر حسن في نشاط الفعاليات التجارية والصناعية . فمن المؤكد أن تشييد القصور وتموين الجيوش وبلاطـات الملوك المليئة بالجواري والعبيد والخدم والحشم يبعث في الحيـــاة التجارية الحركة والنشاط ويفتح أمام الحرفيين والعمال مجالات جديدة للعمل .

اذن فقـد كان للانقسام السياسي الذي حدث في اول القرن الخامس أثره الواضح في توسيع ثراء الأرستقراطية في المدن الاندلسية المختلفة وانشاء بلاطات ملكية باذخة ، وكل ذلك ساهم في تحسين احوال العامة لحد مـا في بادىء الامر . ولكن الحروب الداخلية التي استنفدت قوى ملوك الطوائف ، ومن بعدها حروبهم مع ملوك الشمال المسيحيين أدت الى فراغ خزائن هذه الدويلات، وتخريب الزراعة وعرقلة وسائل المواصلات التي ألحقت بالتجارة أسوأ الآثار . فاذا أضفنا الى ذلك كله الإتاوات الثقيلة التي كان على هؤلاء الملوك دفعهـا في النصف الثاني من هذا القرن الى الملوك المسيحيين الاقوياء ليأمنوا شرهم ويتجنبوا هجماتهم ، أدركنا مدى الأزمـــة التي كانت تأخذ بخناق الأمراء الاندلسيين وتقض مضاجعهم . ولكي يقفوا في وجه هـــذه الأزمة لم يجدوا سبيلاً سوى زيادة الضرائب في المدن والريف .

وعلى ذلك فيمكننا ان نقول إن الرفاه النسبي في المدن الذي أعقب انقسام البلاد اختفى في الربع الأخير من هذا القرن لتحل محله أزمة مـالية عنيفة ، كان لها اسوأ النتائج في حياة الشعب ولا سيما في حياة العامة[1] . ونجد المثل

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف . ابو بكر بن القصيرة .

واضحاً على ذلك في دراستنا للمعتمد بن عباد ملك اشبيلية . وقد كان من نتائج هذه الحالة ان زاد استياء العامة وأصبحت خطراً جديداً يهدد السلطة القائمة .

وقد ذكرنا ان الاعمال التي كانت تقوم بها العامة ضد السلطة الحاكمة لم تكن منظمة وواعية او مستندة الى اهداف واضحة ، بل هي عنيفة تلقائية في اغلب الاحيان وكثيراً ما تؤدي الى نتائج غير منتظرة ، ولكنها كانت تستغل دائماً بل وقد تثار ايضاً ، من قبل اعداء السلطة القائمة ، فانهيار سلطان بني عامر الذي تبعه انحلال الخلافة الأموية في قرطبة في أوائل عصر ملوك الطوائف لم يكن الا نتيجة حركة قام فيها العامة بدور رئيس وفعال ، وان لم تكن هي قاعدة الحركة وموجهتها ؛ وتوضح لنا هذه الحقيقة كل الإيضاح المعلومات التي قدمها لنا مؤرخو التاريخ الاندلسي ولا سيما ابن عذاري[١] ، حيث يمكننا الاطلاع على كثير من التفصيلات المفيدة عن دور العامة في هذه الحركة .

ولكن اذا كان أستياء العامة وردّها العنيف قد استغل في هذه الحركة من قبل أعداء بني عامر ، واذا كانت العامة لم تفد هي نفسها من الحركة التي قامت بها رغم أهمية دورها، فليس معنى ذلك أنها كانت منقادة الى غيرها ومستجيبة لتوجيه اعداء السلطان استجابة التابع للمتبوع ، وإنما يأخذ موقفها شكلا تلقائياً تثيره وتوجهه وتطوره الحوادث والظروف التي تحيط بها وبأعمالها .

وكما كان ظهور دويلات ملوك الطوائف المستقلة في الربع الأول في القرن الخامس الهجري ناتجاً بشكل مباشر عن اعمال العامة العنيفة ضد سلطان العامريين وأنصارهم البربر على وجه الخصوص في قرطبة ، فان نهاية حكم

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٥٠ – ١٥٠ ؛ ابن سعيد ، المغرب ، ص ٤١ – ٥٩ ؛ المراكشي ، المعجب ص ٤١ – ٥٩ .
Levi - Provençal, H.E., pp. 291 - 342.

ملوك الطوائف في آخر هذا القرن كان سببه الرئيسي انفجار استياء العامة ورد فعلها العنيف ضد هؤلاء الملوك . ولكن الذي استغل هذا الاستياء هذه المرة هم المرابطون البربر ، وقد سبق أن أوضحنا في دراسة اخرى كيف أن العامة فتحت أبواب المدن الاندلسية المنيعة أمام المرابطين فاحتلت جميعها في شهور قليلة ، بل إنهم هاجموا في اشبيلية مثلاً قصر ملكهم المعتمد قبل دخول المرابطين الى المدينة[١] .

ولا نريد أن نطيل الحديث أكثر من ذلك حول هذا الموضوع ، الا أن من المهم جداً أن نلفت النظر الى ناحية مهمة ، وهي أن المؤرخين المسلمين عنوا حين كتابتهم للتاريخ بحياة الملوك فقط وأهملوا اهمالاً تاماً حياة بقية طبقات الشعب ولا سيما العامة التي كان لها دورها المهم في الحياة الاجتماعية بل وفي الحياة السياسية أيضاً ، الا حينما تكون أعمال العامة على اتصال وثيق بالسلطة الحاكمة ، فلا يجدون آنذاك بداً من الاشارة اليها بسرعة واختصار ، او حينما يرون أن دورها لا يمكن اهماله كما كان الحال في كثير من الحوادث التي حدثت في قرطبة[٢] .

ولا شك أن دراسة مفصلة للحوادث المختلفة التي حدثت في الاندلس لجديرة بأن تكشف عن نواح هامة جداً في حياة المجتمع الاندلسي وتاريخه ودور العامة فيه .

* * *

لقد كشف لنا هذا الاستعراض السريع للمجتمع الاندلسي عن ان طبقة الملاكين العقاريين كانت الطبقة الاكثر غنى ونفوذاً في الميدان الاقتصادي وأن سيطرتها الاقتصادية هذه ضمنت لها السيطرة السياسية على المجتمع ، وانها بفضل

(١) صلاح خالص ، المعتمد بن عباد ، ص ١٦١ – ص ١٧٨ .
(٢) نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

هذه السيطرة استطاعت تشديد نفوذهـــا الاقتصادي وتوسيعه وزيادة ثرائها محاولة استخدام الطبقات الاخرى ولا سيما الفلاحين لتحقيق اغراضها .

ولكن كيف استطاعت الارستقراطية الحاكمة الوصول الى اغراضهـــا وتحقيق اهدافها ؟ اذ لا شك أنها أقلية من ناحية العدد ، وأنهـــا لم تستند ، خصوصاً في عهد ملوك الطوائف الى قاعدة شرعية في الحكم (بالنسبة لمقاييس ذلك العصر طبعاً) وانها تنتقص من نواح متعددة ، فكيف تيسر لها مع ذلك كله تحقيق سيطرتها وتوليتها زمام السلطة ؟

لقد اعتمدت الارستقراطية في الواقع لتثبيت نفوذهـا وفرض سيطرتهـا بالاضافة الى ما ذكرناه عن سيطرتها الاقتصادية على قوتين – الاولى ، روحية والثانية مادية وقد تيسر لهـــا تسخير هاتين القوتين لمصلحتها بفضل نفوذها الاقتصادي وثرائها الواسع .

أما القوة الروحية فقد كانت تتألف من قسم من رجـال الدين وعلى رأسهم القاضي ومستشاره . وقد كان لهذه القوة في القرن الرابع تـأثير كبير وأهمية عظيمة في البلاد ولا سيما لدى العامة . فالخليفـــة الأموي هو الرئيس الديني الأعلى ، وحقه الشرعي في إدارة المسلمين ، حق معترف به ورثه عن أجداده الخلفاء الأمويين في الشام الذين أمروا باحتلال إسبانية في أواخر القرن الأول الهجري . وقد كان الخليفة يستغل هذا الحق الشرعي الى أقصى حدوده مع احترام نسبي لوضعه كرئيس ديني أعلى. وقد كانت السلطات الدينية – ولا سيما القاضي – تحتل منزلة محترمة جداً في المجتمع وتتمتع بقسط كبير من النفوذ . وقد عرفت هذه الفترة قضاة كمنذر بن سعيد تمثلت في أعمـالهم وأحكامهم العدالة كما كانت تفهم آنذاك فرفعوا شأن القضاء في نظر العامة والخاصـة وقووا مركزه . وقد حاول ملوك الطوائف في بدايـة عهدهم إعطاء قاعدة شرعية لسلطتهم ليقوى موقفهم لدى العامة فرأينا أمير إشبيليـة القاضي أبا القاسم بن عباد يدعي العثور على الخليفه هشام بن الحكم ، الذي قيل إن إشاعة

قتله قبل ذلك كانت كاذبة ، ويعتبر نفسه حاجباً له ، فيحكم باسمه ويطلب من أمراء الأندلس الاعتراف به ، فوافقه جماعة وخالفه آخرون . ولكن عندما رأى أمراء الطوائف أنهم قادرون على حكم البلاد دون هذا الادعاء ، أعرضوا عنه ومارسوا السلطة باسمهم مباشرة. ومع ذلك فقد كانوا بحاجة الى استخدام قوة الدين الروحية للسيطرة على العامة ، لذلك بذلوا جهداً غـير يسير في ارضاء علماء الدين وتقريبهم لتحقيق غرضهم هذا ، فقـد احرق المعتضد ملك اشبيلية كتب ابن حزم الظاهري إرضاء لرجال الدين المالكيين وعلى رأسهم ابو الوليد الباجي [1] .

ولكن يبدو وأن اسلوب ملوك الطوائف في الحياة وطريقتهم في الحـكم لم تكن لتعجب جميع رجال الدين . فقد رأينا فريقاً من المخلصين لمبادئهم الدينية يفضلون العيش في عزلة عن الحكام ونخص بالذكر منهم ابن حزم وغيره في آرائه الدينية ابا الوليد الباجي [2] من اكبر علماء الدين في عصره ؛ بـل إن قسماً منهم قد عرض نفسه بسبب موقفه العدائي من الحكام الى غضبهم وانتقامهم كما حدث للفقيه أبي الحسن الهوزني الذي قتله المعتضد بيديه عندمـا تجرأ فنبهه إلى الخطر الذي يتهدد البلاد نتيجة خطـأ سياسة ملوك الطوائف [3] . وقد كان لعدم رضى هذا القسم من رجال الدين تأثيره المهم في انهيـار نظام ملوك الطوائف وتداعي دويلاتهم وفي حمل العامة على التنكر لملوكهم وتأييـد المرابطين الشديدي التعصب للدين .

إلا أنه من الواضح أن عدداً كبيراً من رجال الدين ولا سيما الاغنياء منهم وضعوا أنفسهم في خدمة الارستقراطية الحاكمة وسندوها عند العامة ويؤكد

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف أبو الوليد الباجي .
(٢) نفس المصدر .
(٣) الذخيرة ، ق ٢ ، ف أبو الحسن الهوزني .

مؤرخ الاندلس ابن حيان المعاصر لتلك الفترة هذه الحقيقة مع كثير من المرارة (١) .

إذن فقد حاول ملوك الطوائف استعمال هذه القوة الروحية لتمكين سلطانهم وسند نظام حكمهم ، الا ان نجاحهم في ذلك ولا سيما بنو عباد لم يكن كنجاح سابقيهم ، أي الخلفاء الامويين والعامريين ، أو من جاء بعدهم ، ونعني بهم المرابطين الذين كان الفقهاء عدتهم في الحكم وسندهم في إدارة البلاد ، لذلك فقد وجهوا جلّ اهتمامهم الى القوة المادية يحاولون جهدهم أن يزيدوا فيها لتكون أداتهم في الحكم ووسيلتهم لتثبيت سيطرتهم وتوسيع نفوذهم ، وكانت هذه القوة تتمثل بالعبيد من جهة وبالجنود المرتزقة من الجهة الاخرى .

العبيد :

يكون العبيد طبقة مهمة في المجتمع الاندلسي ، وقد كان دورهم في سند سلطة الارستقراطية وتمكين نفوذها الاجتماعي خطيراً جداً .

لقد سبق أن ذكرنا أن نظام العبودية نشأ مع نشوء الملكية الخاصة للأرض وتطور بتطوره . فكان العبيد منذ نشوئهم أدوات بيد المالكين يستخدمونهم لتنفيذ اغراضهم أو قضاء حاجاتهم ، وكانت أهم هذه الاغراض والحاجات هي استخدامهم قوة عمل في الانتاج ، ولا سيما في الانتاج الزراعي .

أما في المجتمع الاسلامي ، ونخص بالذكر منه المجتمع الاندلسي ، فقد خلق دور الأرستقراطية المهم في السياسة والادارة حاجات جديدة أثرت تأثيراً كبيراً في استخدام العبيد وفتحت مجالات خاصة أمامهم . فكان دورهم الرئيسي يبدو واضحاً في تثبيت سلطة الأرستقراطية وتأكيد نفوذها وضمان تأثيرها الفعال في مختلف مجالات الحياة ولا سيما في المجالين الاقتصادي

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٥٤

والسياسي . وقد رأينا إلى عهد قريب في العراق ، عندما كانت آثار نظام العبودية لا تزال واضحة في جنوب العراق في أواخر القرن التاسععشر دور العبيد في حفظ مصالح المالك وتثبيت نفوذه وإكراه الفلاحين على الطاعة العمياء والخضوع التام له .

لقد كان العرب يعتمدون عند فتحهم لاسبانية على قوتهم العسكرية الخاصة في تثبيت نفوذهم وتحقيق سيطرتهم ، فتفرقت القبائل العربية في مختلف نواحي شبه الجزيرة ، ولكنها كانت مستعدة دائماً لتلبية نداء الجهاد او الحرب الذي يوجهه اليها الأمير (١) . ولكن بمرور الزمن وتطور أحوال العرب الاقتصادية والاجتماعية وانحلال النظام القبلي الذي كان يربطهم ببعضهم البعض ، ابتدأوا يفقدون وحدتهم وصفاتهم المميزة لهم ويصبحون جزءاً من المجتمع الذي يعيشون فيه ، فلم نعد نرى في القرنين الرابع والخامس الهجري مثلاً أثراً واضحاً يشير الى وجود القبائل العربية متكتلة او متميزة كما كان الامر في القرن الثاني الهجري مثلاً ، فقد امتزجوا بالمجتمع كما فعل البربر الذين قدموا الى شبه الجزيرة وكونوا مع اهل البلاد الاصليين ما نطلق عليه اسم المجتمع الاندلسي ، وهو مجتمع تجمع بين أفراده روابط عامة قائمة على اساس اقطاعي تميزه عن غيره وتحفظ له وحدته النسبية . ولكن دور العرب في تكوين هذا المجتمع الجديد لم يكن كدور غيرهم من الأقوام ، فان استحواذهم على النفوذين الاقتصادي والسياسي جعل في يدهم قيادة المجتمع فوجهوا ثقافته وتفكيره ونشروا دينهم فيه ونقلوا اليه الحضارة الاسلامية وربطوه بتياراتها في الشرق فسار معها جنباً الى جنب وتطور في الاتجاه الذي تطورت فيه .

ولسنا الآن بصدد بحث تفاصيل هذا الموضوع ، الا أن ما نريد توضيحه هنا هو أن الارستقراطية العربية الحاكمة لم تعد تستطيع الاعتماد في حفظ

(١) Levi - Provençal, E. m. Xeme siecle, p. 160

نفوذها ومصالحها على التنظيمات القبلية التي انحلت نتيجة تطور المجتمع ، فكان لا بد لها أن تبحث عن قوة جديدة لحفظ هذا النفوذ وضمان هذه المصالح ، فوجدت في نظام العبودية خير معين لها على ذلك . فكان لكل ثري عدد من العبيد يتناسب وثراءه من جهة وحاجاته من الجهة الاخرى . وكان العبيد في الاندلس يجلبون عادة من بلاد بعيدة ، وجلهم اما من السود الافريقيين او من أواسط اوربا ، ويطلق على هؤلاء الآخرين اسم الصقالبة ، وذلك لكي يضمن اخلاصهم وهم بحكم القانون ملك لأسيادهم يفعلون بهم ما يشاءون . فالقوانين الاسلامية السائدة في الاندلس آنذاك تؤكد خضوع العبيد التام للأسياد ، وتعطي لهؤلاء حقوقاً مطلقة تقريباً عليهم . وبواسطة هؤلاء العبيد استطاع الملاكون الكبار من العرب والبربر فرض سلطانهم على أناس غالباً ما كانوا غرباء عنهم تماماً . ويزداد الاعتماد على العبيد عندما يحس السادة بسلطتهم تهن وتضعف وبنفوذهم يتقلص وينكمش . ويوضح هذه الحقيقة الدور الهام الذي قام به العبيد ولا سيما الصقالبة في بلاطات ملوك الاندلس. فكان الحكم الربضي ثالث أمراء الأمويين في الاندلس يقول : « ما استعدت الملوك بمثل الرجال ولا حامي عنها كعبيدها »[1] ويذكر الرازي انه « استكثر من الحشم والحفد وارتبط الخيول على بابه وناوا جبابرة الملوك في احواله ، وبلغ مماليكه خمسة آلاف ، ثلاثة آلاف منهم فرسان وهم « الخرس » سمو بذلك لعجمتهم[2] .. وكان بلاط الخليفة عبد الرحمن الناصر ومثله بلاط المنصور بن ابي عامر يحفل ايضاً بآلاف من العبيد الصقالبة وغيرهم نواة الجيش الذي يعتمد عليه الملك في تحقيق أهدافه وبسط نفوذه وضرب كل حركة من شأنها تهديد سلطانه بل ان العبيد العامريين (الصقالبة) كانوا جيشاً كاملاً جيد التدريب قدره المؤرخون

(١) المغرب ، ص ٤٣ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

بثلاثة عشر الفاً[1] » ، وكان الفتيان الصقالبة أول من يقدم فروض الطاعة للملك الجديد في عهد الخلافة[2] ، فبينهم كبار قواد الجيش ومديرو القصر والمشرفون على خزائن الاسلحة والحرس الخاص ونخبة القوى المسلحة الاندلسية .

ولكن هذه القوى كثيراً ما تصبح عوامل فوضى واضطراب بعد أن ترسخ اقدامها وتعظم مكانتها ، كما حدث في المشرق للأتراك الذين جمعهم المعتصم العباسي فأفلت زمامهم من ايدي الخلفاء بعده ، وكما حدث في اسبانية نفسها مع الفتيان الصقالبة العامريين . فقد استغل هؤلاء اضطراب الحال في قرطبة في أوائل القرن الخامس، فاستأثر قادتهم بالحكم في كثير من المدن الاندلسية، فاستقل خيران العامري وزهير الصقلبي في المرية ومرسية ووضع مجاهد العامري يده على دانية ، وحكم مظفر ومبارك في بلنسية كما قام واضح الفتى وغيره بأدوار مهمة جداً في الفتنة التي حدثت في قرطبة والتي أدّت الى انحلال الخلافة الأموية فيها وقيام ملوك الطوائف [3] .

اما ملوك الطوائف فقد وجهوا عناية خاصة الى اقتناء العبيد ورأوا في هذه الوسيلة خير سبيل لتوطيد سلطانهم ، وتذكر كتب التاريخ مثلاً ان اول ما فعله القاضي ابو القاسم بن عباد الذي استأثر بالحكم في اشبيلية هو استكثاره من شراء العبيد من كل نوع[4] . وكانت ثروته الطائلة هي التي ساعدته على ذلك ، ومن ثم على القضاء على منافسيه وأعدائه ، وكان كل ثري يقتني من العبيد بقدر ما تتطلبه حاجاته وما تسمح به مقدرته .

وعدا هذه المهمة فقد كان العبيد يستخدمون للقيام بأعمال اخرى . فكانوا يستعملون دون شك قوة منتجة في الاعمال الصناعية والحرفية وحتى في

(١) Levi Provençal, H.E.M., T.H, PP. 122 - 130
(٢) ابن حيان ، المقتبس (مخطوط فاس) .
(٣) انظر حول هذا الموضوع . احمد مختار العبادي ، الصقالبة في اسبانيا .
(٤) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابو القاسم بن عباد .

الزراعة احياناً كما كانوا يقومون بالخدمة في قصور الأرستقراطية . ويستخدم العبيد ايضاً ولا سيما النساء والغلمان منهم وسائل للمتعة واللهو وسنعود للحديث عن الجواري عند تحدثنا عن المرأة في هذا العصر .

من ذلك كله نتبين ان حالة العبيد لم تكن على وجه العموم سيئة جداً ولا سيما في قصور الأمراء والملوك ، اذ كانوا يتمتعون بمستوى حياة جيد بل قد يصلون الى مراكز رفيعة جداً .

المرتزقة :

ذكرنا انه لكي يكون الحكام الاندلسيون لانفسهم قوة مسلحة يثبتون بها سلطانهم ، فانهم التجأوا الى أسلوبين : شراء العبيد ، الذي تحدثنا عنه في السطور السابقة ، واستئجار المرتزقة الذين كانوا يجمعون من كل مكان لقاء أجر معين ليكونوا محاربين ممتهنين .

كان الخلفاء الاندلسيون في القرون التي سبقت عصر ملوك الطوائف يعتمدون اعتماداً كبيراً على أثر الدعوة للجهاد في نفوس الناس . فكانوا كلما أرادوا تهيئة حملة للغزو في بلاد النصارى أعلنوا الجهاد المقدس فأقبل عليهم المسلمون من كل حدب وصوب مدفوعين بدوافع مختلفة ، من أهمها الدوافع الدينية والاقتصادية ، اما في القرن الخامس الهجري ، أي في عصر ملوك الطوائف فلم يكن باستطاعة هؤلاء اللجوء الى هذا الاسلوب ، بسبب ظروف كثيرة اهمها ما ذكرناه من عدم وجود أساس شرعي معيّن لسلطتهم ، ولكون حاجتهم الى القوة المسلحة لم تكن عموماً لغرض الجهاد ، وانما لاستخدامها في نزاعاتهم الداخلية وفي فرض سلطتهم على رعاياهم ، فكان لا بد لهم اذن من اللجوء الى استعمال المرتزقة بنطاق واسع . وكان كل ما يتطلب من المرتزقة في ذلك العصر هو ان يطيعوا سادتهم طاعة عمياء ، وأن يكونوا ممتهنين لصنعة القتال . اما الأصل الذي جاءوا منه والعنصر الذي ينتسبون اليه والدين الذي

يعتنقونه ، فكان قليل الأهمية بالنسبة للملوك ؛ فبينما كان العامريون في أواخر القرن الرابع يعتمدون على القبائل البربرية التي جاءوا بها من افريقية الشمالية ، كان ملوك الطوائف على وجه العموم يعتمدون على العناصر الاندلسية ، او على المحاربين النصارى الذين كان يؤتى بهم غالباً من الشمال لقاء اجور معينة وكان استعمال المحاربين المسيحيين الشماليين يكون عادة اما لمدة معينة تختلف طولاً وقصراً[1] او لمهمة بذاتها[2] . ونستطيع ان نقول ان استخدام المرتزقة من مسيحيي الشمال كان صفة مميزة من صفات عصر ملوك الطوائف في الاندلس . والسبب الواضح لذلك كان دون شك الحاجة الماسة التي يشعر بها هؤلاء الملوك الصغار الى القوة في حروبهم الداخلية الدامية ، وما يتمتع به هذا النوع من المحاربين من كفايات عسكرية ، ينقل لنا مؤرخو الاندلس اطرافاً منها .

* * *

هذه باختصار نظرة عاجلة وموجزة على القاعدة الاقتصادية التي كان يقوم عليها المجتمع الاندلسي ، والطبقات الاجتماعية التي نشأت عنها وعلاقات هذه الطبقات مع بعضها البعض .

لقد اتضح لنا رجحان مركز طبقة الملاكين العقاريين الاقتصادي والسياسي والأساليب التي تتبعها للمحافظة على هذا المركز الاقتصادي والسياسي . ان رجحان مركز الارستقراطية اقتصادياً وسياسياً وفكرياً في المجتمع كان في الواقع الصفة الخاصة والمميزة للمجتمع الاسلامي الذي يكون المجتمع الاندلسي جزءاً منه وهي التي تكون على وجه العموم الميزة الرئيسية للمجتمع الاقطاعي في جميع اشكاله المختلفة .

---

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابو القاسم بن عباد ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ١١٩ .

(٢) انظر نموذجاً لذلك في: Dozy, Mus. Esp., T. III, p. 105, Dozy, Abbad, T. II, P. 93.

الأرستقراطية والثقافة

وكان من أهم نتائج رجحان كفة الارستقراطية هذه ونفوذها في الميدانين الاقتصادي والسياسي انها احتلت مركز الصدارة في الحياة الثقافية وفي توجيهها فانتشرت مفاهيمها في جميع ميادين الثقافة والفكر ، سواء في ذلك المجالات التشريعية او الفكرية او الدينية او الفنية او الادبية .. وليس معنى ذلك أن الارستقراطية كانت تصدر الأوامر مباشره الى العلماء والشعراء والفنانين الخ.. ليعالجوا هذا الموضوع او ذاك بهذه الطريقة دون تلك . ولكن احتلالها مركز القيادة في المجتمع فسح لها المجال لتحقيق توجيهها ، سواء أكان هذا التوجيه إرادياً ام غير إرادي .

على أن قولنا هذا لا يعني مطلقاً أنه لم تكن هنالك تيارات ثقافية تولد بعيداً عن الارستقراطية ، بل وربما تسير ضد مصالحها ايضاً ، ولكن المجال لم يفسح لتطور مثل هذه التيارات ، نظراً لعدم دعمها من قبل النظامين الاقتصادي والسياسي القائمين، هذا من جهة ؛ ومن جهة اخرى فان المؤرخين على وجه العموم أهملوها بأصرار لأنها لا تتعلق بالارستقراطية ولا ترضي ميولها او لان الارستقراطية نفسها قاومت مثل هذه التيارات بشدة وعنف لانها تهدد مصالحها كما حدث في المشرق للخوارج والقرامطة وما نتج عن حركتيهما

من تيارات ثقافية ، وعلى كل حال فيجب أن لا نطمع في أن نرى المؤرخين يعنون بمثل هذه التيارات وهم انما يؤلفون كتبهم ، على وجه العموم ، تحت رعاية أمير أو ملك أو أسرة ذات سلطان او نفوذ . وحتى إذا ألفوها وهم بعيدون عن هذا التأثير مباشرة فهم يفكرون دون ريب فيمن ستقدم اليه هذه الكتب فيدفع فيها ثمناً يعظم كلما وافقت هذه الكتب هواه وارضت ذوقه . وهل من قراء قديرين على دفع ثمن مرتفع غير اولى الامر واصحاب الثراء ! . ولعل ما حدث للفيلسوف الأندلسي أبي الوليد بن رشد يمكن ان يكون مثلاً حياً على ما نقول : لقد ورد في أحد كتب هذا الفيلسوف الكبير أنه رأى الزرافة عند «ملك البربر» دون ألقاب تفخيم وتعظيم. ووصل خبر ذلك الى أبي يوسف بن عبد المؤمن الملك الموحدي ، فعدها إهانة لا تغتفر ، وعبثاً حاول ابن رشد أو من دافع عنه الادعاء بأنه كتب «ملك البرين» وأن النساخ حرفوا ما كتبه ، فأهانه «وأمر به فاقيم فجعل كل من يمر به يلعنه ويبصق في وجهه ثم أمر بنفيه الى يسانه مدينة اليهود» .(١)

ولعل في رواية عبد الواحد المراكشي صاحب المعجب لهذه الحكاية ، ما يصور لنا بدقة موقف المؤرخ من الحاكمين ، فيقول متحدثاً عن محنة ابن رشد هذه : «فأما سببها الخفي (أي سبب المحنة) ، وهو أكبر أسبابها ، فان الحكيم أبا الوليد – رحمه الله – أخذ في شرح كتاب الحيوان لأرسطاطاليس صاحب كتاب المنطق ، فهذبه وبسط أغراضه وزاد فيه ما رآه لائقاً به ، فقال في هذا الكتاب عند ذكره الزرافة وكيف تتولد وبأي ارض تنشأ «وقد رأيتها عند ملك البربر ...»جارياً في ذلك على طريقة العلماء في الاخبار عن ملوك الأمم واسماء الاقاليم ، غير ملتفت الى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحيلو الكتاب من الاطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق . فكان هذا مما أحنقهم عليه . غير أنهم لم يظهروا ذلك ، وفي الجملة فانها كانت من أبي

(١) ابن سعيد ، المغرب ، ص ١٥٥

الوليد غفلة ... (١)» وهكذا نجد المؤرخ المراكشي نفسه يرى أن ابن رشد كان مخطئاً حين أشار إلى الملك الموحدي هذه الاشارة ولم يسبقها بعبارات التعظيم والتبجيل . وهو مع ذلك لم يقدم كتابه للملك ولا أهداه اليه وإنما ألفه لمحبي الفلسفة وقارئي كتبها .

ومظاهر تأثير الارستقراطية الراجح هذا يبدو لنا واضحاً في جميع نواحي الحياة الثقافية . ففي ميدان التشريع بذل رجال التشريع ومفسرو القانون جهدهم في الدفاع عن حقوق المالكين وتركيزها ، وفي سند نظام الرق الذي يخدم مصالحهم وفي حفظ النساء في منزلة واطئة وتركيز اتجاهات القضاء والقدر وحقوق السلطان الخ ... وكل ما من شأنه سند نفوذ الارستقراطية وتثبيت سيطرتها في مختلف الميادين .

وفي ميدان الفنون كالعمارة والبناء يبدو تأثير التوجيه الارستقراطي بشكل واضح . فمظاهر العمارة ورقيها لا تبدو إلا في القصور الباذخة والجوامع الفخمة والقلاع الشامخة وما فيها من زخارف دقيقة وجهود لا ينهض بأعبائها إلا أولو الثراء ، فلا يمكن تصور وجود فن للعمارة آنذاك لا تشمله الأرستقراطية برعايتها ولا يستجيب لذوقها . وقل مثل ذلك عن الفنون الاخرى كالموسيقى والغناء والنحت وما شابه ذلك .

ولم يكن الأدب ليستطيع أن يتملص من هذا التوجيه والتأثير كما سنرى ، ولكن الشيء الذي نستطيع تأكيده في هذا الموضوع ، هو أنه الى جانب هذا الفن وهذا الأدب اللذين كانت توجههما الارستقراطية ، كان هناك فن وأدب نشأ في احضان الطبقات الأخرى في المجتمع مستجيباً لحاجات خاصة بهذه الطبقات . ولكن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تحدثنا عنها لم تكن تسمح لهما بالبقاء طويلاً وتثبيت أقدامهما في ميادين الثقافة ، فذهب

(١) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٣٠٥

بها الزمن دون ان يتيسر لنا الاطلاع عليهما او معرفة قسم مهم منهما .

ولا بد أن نبدي قبل الاستطراد في الحديث حول هذا الموضوع حقيقة مهمة جداً ، وهي أننا حين نعطي للارستقراطية الاسلامية هذا الدور المهم في التوجيه الثقافي والفني والأدبي ، لا نقصد مطلقاً النيل من هذه الثقافة أو من هذا الفن والأدب ، ولا نهدف الى إهانة هذه الارستقراطية ولومها لقيامها بهذا الدور الحساس في المجتمع ، بل قد يكون الامر بعكس ذلك تماماً ، إذ أننا ببحثنا هذا نوضح دور الارستقراطية التأريخي في الحضارة الانسانية ، ونريد أن نبين حقيقة تأريخية تقودنا اليها دراستنا للمجتمع الاسلامي ، وهي أن الحضارة الاسلامية ومنها الحضارة الأندلسية بما فيها من فن عمارة وبناء وتشريع وفلسفة وفن زخرفي وموسيقي وأدب مما لا تنكر قيمته وأثره في الحضارة البشرية ولدت ونشأت وترعرعت تحت ظل الأرستقراطية الاسلامية وحمايتها وتشجيعها وتوجيهها ، وهذا ما يحفظ للأرستقراطية دورها المفيد في مرحلة من مراحله .

***

ولم يكن المجتمع الأندلسي مجتمعاً مستقلاً بذاته استقلالاً تاماً في تكوينه الاقتصادي والاجتماعي والتشريعي والثقافي الخ ... فقد جعلت منه الظروف التأريخية فرعاً من المجتمع الاسلامي ، ولكنه كان – كأي فرع من فروع هذا المجتمع – تابعاً تطوراً خاصاً به ينسجم مع الظروف التي أحاطت به من جهة ، ومع التطور السابق والمرحلة التي وصل اليها المجتمع الاسلامي عامة من جهة اخرى .

ولا شك أن المجتمع الاندلسي لم يحتفظ بهذه الروابط القوية مع المجتمع الاسلامي إلا لأن التشابه في التكوينين الاقتصادي والاجتماعي كان يوجه المجتمعين بالشكل العام نفسه ، مع وجود خلافات خاصة سببتها الصفات المميزة لكل منهما لذا وجدنا مثلاً تشريعات أهل المشرق سدت حاجة المجتمع

الاندلسي ، بعد أن أضاف لها الاندلسيون ما تتطلبه حياتهم العملية من تغيير أو إضافة .

الأرستقراطية والأدب :

وكما أن الحضارة الاندلسية ، كما قلنا ، فرع من الحضارة الاسلامية فان الأدب الاندلسي الذي بين أيدينا ما هو إلا فرع من الأدب العربي ، كما أن ما ذكرناه عن دور الارستقراطية الموجه في الحضارة والثقافة يصدق على دورها الموجه في الادب . فعلى الأسس التي وضعها الأدب العربي منذ نشوئه طور المجتمع الارستقراطي الاندلسي أدبه الخاص به . الا أن هذا التطور قد أخذ دون شك شكلا خاصاً ينسجم كما ذكرنا مع الصفات الخاصة بالمجتمع الاندلسي لذلك فمن العبث دراسة الأدب الاندلسي دون اعتبار المراحل التي قطعها الأدب العربي في تطوره وتأثير هذا التطور العميق فيه . وعلى ذلك فهنالك عاملان رئيسان وجها الأدب الاندلسي وغذياه ، الاول هو ان هذا الأدب تبنّته ووجهته وغذته الارستقراطية الاندلسية قبل غيرها من الطبقات . والثاني أن هذا الادب إنما هو جزء لا يتجزأ من الأدب العربي ، فهو مرتبط بتطوره ومتصف بصفاته العامة . وهذان العاملان متصلان ببعضهما أوثق اتصال ، فقد أصبح الادب الاندلسي في الواقع جزءاً من الادب العربي لأن الارستقراطية العربية هي التي حكمت الاندلس وسببت ارتباط هذه البلاد ، ارتباطاً وثيقاً بمواطن العرب الأصيلة في الجزيرة العربية والشام والعراق .

يقول بول فاليري الأديب والناقد الفرنسي المعروف عن تاريخ الآداب وتطورها بـ « أنها في الوقت نفسه تاريخ تطور وسائل الوجود والعيش لأولئك الذين زاولوا الادب خلال العصور ، ففيه نجد جميع الحلول الممكنة لمشكلة العيش رغم القيم الفكرية ، من تملق ومديح للعظماء او للأغنياء او للشعوب ، واستجداء واحتيال ونصب وانتهاب بقوة السلاح وقتل وكل ما تحدثت عنه القوانين واستغلال للنساء وابتزاز للأموال بالتهديد وامتهان أية مهنة من المهن

وفي اثناء ذلك ايجاد الوقت للكتابة والانتاج الأدبي ، وبعد ذلك كله تأتي المتاجرة بهذا الانتاج وهي – بدقة – اسوأ جميع هذه الوسائل[1] .

واذا كان بول فاليري يلقى هذه النظرة الشاملة على تاريخ الآداب لدى جميع الشعوب ، فان أبا حفص بن الشهيد أحد كتاب وشعراء الاندلس في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس يؤكد مثل هذا الرأي في إحدى مقاماته . لقد كان الشعراء والكتاب في الواقع إما من الطبقة الارستقراطية ، وعندئذ يصفون حياتهم ويعكسون في أدبهم قيمهم الفكرية والخلقية ومقاييسهم في الحياة وموقفهم منها او أنهم من طبقات أخرى غير الطبقة الارستقراطية وفي هذه الحالة ما على الاديب إلا أن يستخدم نبوغه لتحسين ظروف حياته ورفع مستوى معيشته . وما من سبيل لذلك في تلك العصور سوى أن يقدم إنتاجه الى الطبقة الغنية القادرة على أن تجزيه بمكافأة ترضيه أو بتعبير أدق ، القادرة على أن تقدم له ثمناً ما ، لان الطبقات الاخرى لم يكن بوسعها ذلك . وقد كانت الفترة التي نتحدث عنها تفسح المجال واسعاً أمام الادباء للقيام بذلك . فقد كانت الارستقراطية الاندلسية في مستوى ثقافي رفيع ، تعنى بالادب بل وتزاوله في اكثر الاحيان . وكان من نتائج انقسامها وأسبابه توزع الثروة في مختلف المدن الاندلسية ، مما فتح أمام الشعراء والكتاب أبواباً كثيرة متعددة . هذا الى أن الارستقراطية الاندلسية لم تكن تجهل ، مطلقاً أهمية الأدب ولا سيما الجيد من الشعر فقد كان سجلاً خالداً لمآثر الملوك وأمجاد العظماء . لذلك كانت تشجع الشعراء وتغدق عليهم الجوائز في سخاء حين يعرفون كيف يثيرون إعجابها ويحظون برضاها. وعن ذلك نشأت ظاهرة مهمة في تاريخ الأدب ، فان كثرة الشعراء وتعدد الأدباء وشدة التنافس بينهم وما تحدثنا عنه من ظروف أدت حتماً الى أن تقف الارستقراطية منهم موقف الحكم ، فالمقدم منهم من فاز باعجابها وحاز على رضاها واحتل لديها

---

(1) Grenier (Jean), Congrès International d'Esthétique, T.I.P.354.

منزلة ذات بال وخطر . أمـــا اولئك الذين لا يحظون بذلك فيطويهم الزمن ويعرض عنهم المؤرخون . ومن ذلك نشأ تيـــار هام أوجدته هذه الظروف ونشره نقاد الأدب ومؤرخوه آنذاك ، وهو أن الشاعر المبدع الذي يستحق الذكر هو من حـــاز على اعجاب الملوك وجوائزهم بمدائحه الشعرية وقصائده الرنانة . فخير الشعر يجب أن يكرس لهؤلاء الملوك وأحسن الأدب يجب أن يوضع في خدمتهم . وقـد كان لهذه الفكرة أعمق التأثير في توجيه الادب وفي كتابة تاريخه وفيما نقل إلينا من أخبار الكتاب والشعراء مما لا نريد أن ندخل الآن فى تفاصيله . ويعرب ابن وهبون أحد شعراء اشبيلية الكبار في القرن الخامس الهجري عن هذه الفكرة حين يقول في إحدى قصائده[1] :

ألستم معشر الامـــلاك طائفةً ... تقضي بتخليدهـــا هذي الأناشيد
فان نقصتم أناساً من نوالكم ... فحقٌ منكم لأهـل الشعر تزيـد
لكم خلقنـــا ولم نخلق لأنفسنا ... فانمـــا نحن تحميد وتمجيـد
يا صاحب المجد إن المجد سائمة ... تضل إن لم يكن بالشعر تقييد

كانت هذه الفكرة مسيطرة على الاوساط الأدبية يتأثر بها الشعراء كما يتأثر بها النقاد والمؤرخون ، وتقدم لنا كتب التاريخ الادبي شواهد كثيرة على ذلك. لقد كان مؤرخو الادب أنفسهم حين كتابتهم لتاريخهم لا يأبهون الا قليلاً بغير الاوساط الارستقراطية ولا سيما بلاطات الملوك . فالشاعر الذي ليس وجيهاً أو ارستقراطياً ، أو لا يستطيع الحظوة لدى هذه الطبقة بالاعجاب لا يلفت نظر المؤرخين ولا يجلب اهتمامهم. ولعل من اسباب ذلك أن الاديب لا يستطيع تعريف نفسه والحصول على الشهرة دون هذا السبيل ، إذ لم تكن هنـــالك من وسائل للنشر والاذاعـة سوى مجالس الأمراء ودواوين الاغنيـاء والوجهاء . ولكن يبدو أن هـذا لم يكن السبب الرئيسي في إعراض المؤرخين عن هؤلاء

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٢ ، ف ابن هبون ، (و ١٣٧ م القاهرة) .

الادباء ، اذ لم يكن الأديب بنظرهم يستحق الذكر إن لم يحتـــل منزلة الارستقراطية ولا سيما في قصور الملوك .

وابن بسام ، مع أنه أحسن من أرخ الادب الأندلسي وأكثر من عني بجمع شوارده وأحسن من نقده في عصره ، يذكر حين يتحدث عن عبد العزيز بن اللبانة ، أن هذا الشاعر مع إجادته في نظم الشعر وتفننه فيه فانه – أي ابن بسام – يعرض عن ذكره وذكر شعره ، لأنه ، رضي بحاله ولم يتقـدم الى العظماء والملوك فيحظى لديهم بالرضى والاعجاب [1] . وهذا يفسر بوضوح لماذا فقد ، مع الاسف ، جزء مهم من الانتاج الأدبي لهذا العصر ولغيره من العصور المشابهة مما يمكن أن يكون موضع إعجابنا واستحساننا .

إذن فلم يكن نبوغ الشاعر الأدبي وحـده هو الذي يدفـع مؤرخ الأب العربي الى دراسته ونقل إنتاجه إلينا ، بل إن موقف المؤرخ الشخصي ورأيه الخاص واختياره الذي تفرضه عوامل موضوعية وذاتيـة متعددة تقوم كلهـا بدور رئيسي في ذلك . ولبول فاليري في هذا الموضوع رأي صائب يستحق الاعتبار ، فهو يقول : «ان كان هنالك أدباء حظوا بأن يسجـلوا في تاريخ الأدب الواسع فان ذلك كان بفضل عاملين مستقلين الأول : لا بد أن يكون الانتاج الأدبي نفسه ، والآخر هو قيمة هذا الانتاج بنظر أولئك الذين عرفوه وتذوقوه ، أولئك الذين نشروه ونقلوه وحفظوه وسمحوا له بحياة جديـدة [2] . إذن فقد أسهم في حفظ النص ذوق المؤرخين ، وذوق الـذين اشتروا انتاج المؤلف ، وذوق أولئك الذين احتفظوا بكتابه طيلة قرون . نعم ذوق أولئك الذين نشروه بين الناس . فمن يمكنه أن يشتري في عصرنا ذاك وفي القرون التي تلته إنتاج المؤلفين اللهم إلا الأغنياء والموسرين!!.. ومن يمكن أن يحتفظ بهذه الكتب مخطوطة في الخزانات غيرهم !!.. فهل من غرابة ان كان

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٣ ، ف ابو بكر الداني ابن اللبانة .

(2) Paul Valéry, Variétés. T.V.P. 302.

ما لدينا من أدب القدماء هو ما اختاره هؤلاء الاغنياء والموسرون لنا ومـا حرصوا هم على الاحتفـاظ به ؟!.. ألم يكن زبائن الكتـاب دائماً من هذه الطبقة !!..

أليس من الطبيعي اذن أن يأخذ الكتاب والمؤلفون ومؤرخو الأدب بنظر الاعتبار رغبة زبائنهم وقرائهم ، الذين هم في الوقت نفسه أسياد المجتمع، حين ينتجون ما ينتجون وحين يختارون من مأثور النظم والنثر ما يختارون ؟!. أعتقد أن هذه أمور لا تحتاج الى نقاش كبير ، فجل مؤرخي الأدب أهدوا كتبهم وقدموها لأمراء ووجهاء كانوا يعتقدون أن عملهم هذا سيرضيهم وأنهم سيحظون منهم بجزاء وخير ، فليس إذن مما يدعو للعجب أن يحاولوا ارضاءهم وسد حاجاتهم الفكرية والنفسية والعاطفية ، كما كان يفعـل الشعراء أنفسهم ولكن بأسلوب آخر . وهذه الاتجاهـات التي دفعت الظروف الموضوعيـة التاريخية الكتاب اليها ، أصبحت بمرور الزمن تقاليد أدبية سائدة تؤثر أعمق التأثير في منتجي الأدب وقرائه وناقليه وكونت ما نستطيع تسميته بالمفاهيم الأدبية للعصر . وهذه المفاهيم كانت قائمة على الاعتراف ، بشكل شعوري ، بسيادة الذوق الأرستقراطي والتوجيـه الأرستقراطي في الأدب والشعر وفي النقد الأدبي وتاريخ الأدب .

شكل التعبير الأدبي

كانت الارستقراطية الاندلسية التي تطورت منـذ زمن الفتـح ، على وجه العموم ، عربية في أصلها وفي ثقافتها ومفاهيمها الفكرية أيضـاً . وكانت علاقاتها مع المسلمين في الشرق قوية جـداً ، لانهـا كانت تعتبر نفسها جزءاً لا يتجزأ منهم، فاللغة العربية بشكلها الخالص ، هي التي كانت لغتها حـين قدمت البلاد ، وكان الأدب العربي بمجموعه هو أدبها . والعرب كانوا يحرصون على نقاء لغتهم . أما التمسك بقواعد اللغة فشيء يكاد يتفق عليـه جميع متكلميها ، فليس من المستغرب إذن أن نرى الارستقراطية العربية وهي

القابضة على مقاليد الحكم تتمسك في أثناء القرن الثاني والقرن الثالث والقرنين الرابع والخامس باللغة العربية تمسكاً شديداً ، ويزداد نفوذ هذه اللغة وتمكنها في البلاد كلما قويت قبضة الارستقراطية العربيـة في الميدانـين الاقتصادي والسياسي وكلما ازداد انتشار الاسلام وانتشر معه القرآن وعلومه .

وما دامت اللغة العربية هي لغة الارستقراطية وادبائها ، فهي اذن اللغة التي يكتب بها كل الادب الذي توجهه هذه الطبقة وترعاه . وكون كل مـا وصلنا من الأدب الاندلسي تقريباً مكتوباً بهذه اللغة هو بحد ذاته دليـل على النفوذ الذي كانت تتمتع به الارستقراطية العربية فيهذا الميدان بالاضافة الى ما ذكرناه سابقاً ، إذن فاللغة العربية صفة من الصفات المميزة لـلأدب الاندلسي الذي نعرفه والذي اشرنا الى ارتباطاته الاجتماعية .

ولا شك في أن هنالك أدباً من نوع آخر ، يستعمل لغة شعبية غير هـذه التي نراها في الادب الاندلسي الذي ندرسه ، ولكن لم يصلنا من هـذا الادب إلا النزر اليسير بسبب ما ذكرناه من عدم تبني الارستقراطية له وميلها نحوه . لهذا كله فليس من اليسير أن نعثر في الادب الاندلسي (عـدا الازجال القليلة التي وصلتنا) على تعابير محلية أندلسية كثيرة . بل نستطيع أن نقول إنه ليس في هذا الادب الذي وجهته وغذته الارستقراطية الاندلسية إلا نادراً ألفـاظ أندلسية خالصـة ، كما لا وجود لتركيب نحوي أو لغوي أندلسي يختلف عن ذلك الذي في المشرق . فقد استعمل الادباء الاندلسيون الفاظ المشارقة ونحو المشارقة للتعبير عما أوحته لهم حياتهم وحاجاتهم النفسية والعاطفية والفكرية، فاختفت الالفاظ الخشنة والغريبة التي كان يستعملها قدماء الشعراء كما كان الحال في المشرق في نفس الفترة لانها لم تعـد تناسب نفسية المجتمع الجديـد وذوقه ومصادر ايحائه الادبي . فألفـاظ الشعراء المولدين في المشرق انتقلت الى الاندلس في الفترة نفسها بسبب التأثير الكبير لادب المشارقـة على الادب الاندلسي من جهة ، وبسبب الحـاجات المـتماثلة لكلا المجتمعين من جهـة

أخرى (1) ..

ولكن إن لم يكن هنالك كثير من الالفاظ الاندلسية المحلية في الادب الاندلسي الرسمي، او لم يكن هناك تراكيب لغوية أندلسية، فاننا لا نستطيع القول بعدم وجود أسلوب أندلسي خاص . فاننا نجد في قسم كبير من الشعر الاندلسي نوعاً من الصياغة الاندلسية المتأتية على وجه العموم من اختيار الالفاظ وصياغة الجمل تغلب عليه الرقة بل والهلهلة أحياناً . والواقع أننا لا نستطيع أن نحدد هذا الاسلوب الاندلسي لأنه متأت من مجموعة من الصفات بل والايحاءات التي مصدرها لا تركيب الالفاظ وصياغة التعابير فحسب ، وانما مضمونها المستوحى من الحياة الاندلسية أيضاً . وتبدو هذه الصفات على وجه الخصوص في نوع من الموسيقى الخاصة المنبعثة من الكلمات الرقيقة البعيدة عن الغرابة والوثيقة الاتصال عادة بالطبيعة وما تحمل من ايحاءات جميلة، ويمكن أن يلحظ هذا الاسلوب الاندلسي في الموشحات الاندلسية التي كان لها أعظم الأثر في المشرق ، بل ان تأثيرها هذا استمر في الشعر العربي حتى وقتنا الحاضر وليس في وجود هذه الصفة الخاصة في الشعر الاندلسي ما يجلب العجب والاستغراب ، فالحضارة والبعد عن المواطن العربية الاصيلة كلها كانت عوامل فعالة في ذلك . الا أن من المهم أن نلاحظ أن هذا الاسلوب الاندلسي في النظم لا يبدو بنفس القوة والوضوح لدى جميع الشعراء الاندلسيين ، بل انه في الواقع لم يظهر بوضوح الا في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الهجريين . ونستطيع أن نلاحظ كذلك أن ظهوره في الموضوعات التقليدية كالمديح والرثاء أقل وضوحاً منه في الموضوعات الشخصية كالغزل ووصف الطبيعة . فوجوده في شعر ابن اللبانة وأبي عامر بن مسلمة أوضح منه في شعر ابن وهبون أو ابن عمّار ، وهو أقل وضوحاً في مديح هذا الاخير او في مديح ابن زيدون

---

(1) V.Blachaire, Le poète al-Mutanabbi et l'Occident musulman, extrait de la revue des Etudes Islamiques, an. 1929, cahier I, PP. 127-135.

مثلا منه في موضوعاتها الاخرى التي يصفان بها مشاعرهما الخاصة .

وقد ساد في القرن الخامس الهجري ، كما كان الحال في المشرق ، اتجاه للعناية بالشكل ، فكثر التزويق اللفظي وزاد اصطناع المحسنات البيانية والبديعية والبحث عن الاستعارات والتشبيهات الغريبة النادرة التي لا تستهدف في كثير من الاحيان سوى رسم صورة شكلية لا حياة فيها ، فلا يقصد منها تشديد قوة التعبير وانما تصبح غرضاً في ذاتها دون ما يمكن أن تحمله في طياتها من تأثير .

وقبل أن نترك هذا الموضوع يجب ان نذكر ان شكل التعبير لم يكن يقتصر على اللغة العربية الفصحى ، فقد نما وتطور حتى في الاوساط الارستقراطية منذ أواخر القرن الثالث نوع من الادب كان ينظم باللغة الدارجة التي لم تكن تلتزم بقواعد اللغة العربية الفصحى ، كما كانت مزدحمة بالكلمات التي من أصل محلي او بربري، وقد أطلق على هذا النوع من الشعر اسم «الزجل» وقد ازدهر ازدهاراً كبيراً في القرن الخامس وكان له في اشبيلية ميدان نشاط واسع ، الا أن ما تبقى لدينا منه نزر يسير ، وهو نوع خاص من الادب قائم بذاته لا تنطبق عليه الاحكام التي أطلقناها على الادب الاندلسي باللغة الفصحى والذي يكون القسم الاكبر مما بين أيدينا من أدب الاندلسيين .

الموضوعات الرئيسية في الشعر الأندلسي

وكما لاحظنا تأثير الأرستقراطية في شكل التعبير فان تأثيرها في مضمون التعبير الادبي وموضوعه واضح كل الوضوح .

ونستطيع أن نميز على وجه العموم في الادب الاندلسي ثلاثة أنواع من الموضوعات الشعرية ، الاول هو الناتج مباشرة من سيطرة الارستقراطية الاقتصادية ونفوذها السياسي . ونقصد به شعر التكسب وما شابهه كالمدائح والمراثي والتهاني ، يقدمها الشاعر للأمير او الغني ليحصل منه على الجزاء ومعالجة الموضوعات التي يقصد منها التكسب تقتصر عموماً على الشعراء غير الأرستقراطيين، فقلّ أن نجد شاعراً من الاغنياء يقول المديح او الرثاء والتهاني تكسباً ، فان نظم فيها فللتعبير عن شعور شخصي وإرضاء لعاطفة خاصة في الوقت الذي نرى فيه الشعراء الذين ينشأون في الطبقة الوسطى او العامة يكثرون من المديح على وجه العموم ، يقدمونه لمن يدفع ثمنه ، وهل غير الأمراء والأغنياء قادر على ذلك .

الا إنه ليس من الصواب اعتبار شعر المديح مجرد رياء كاذب واختلاق محض. فالواقع أن الشاعر عندما يمدح لا يحاول أن يرسم صورة الممدوح ، وانما يحاول أن يرسم صورة شخصية تتمثل فيها كل الصفات التي يقدرها المجتمع ، شخصية

مثالية قد تكون بعيدة كل البعد عن الممدوح الا أن الشاعر يحاول طبعاً أن يربطها بشخصية. لذلك فان دراستنا لهذا النوع من الشعر – كما اعتقد – يجب أن تكون قائمة على هذا الاساس ، أي باعتبار كل قصيدة مدح صورة لشخصية مثالية يرسم الشاعر خطوطها بعد ان يستوحي صفاتها من القيم الخلقية للمجتمع ، ومن النادر أن نجد شاعراً مادحاً يستقصي فعلاً صفات الرجل الممدوح وهو ينظم قصيدته .

والنوع الثاني من الموضوعات الأدبية هي تلك التي توحيها حياة الاستقراطية نفسها ، كوصف مجالس الأنس والخمر وألوان المتع التي كانت تحفل بها القصور كالحدائق والجواري والغلمان وما الى ذلك مما يتصل بحياة الامراء الموسرين . ومن الطبيعي جداً أن يكون اكثر من يعالج هذه الموضوعات هم شعراء الاستقراطية انفسهم لانها تتصل مباشرة بحياتهم ، ولكن الشعراء الآخرين الذين انبثقوا من طبقات أخرى كانوا هم ايضاً يعالجونها ، ليس بقدر ما يشاركون في مثل هذه الحياة فحسب ، وانما لان هذه الموضوعات جزء من التقاليد الادبية للعصر ولأنها تدخل في النطاق الذي رسمته الارستقراطية للشعر. ومع ذلك فان ثلاثة من هذه الموضوعات لا تقتصر على الحياة الارستقراطية ، وانما لها تأثيرها في حياة طبقات الشعب الاخرى ، ونعني بها: المرأة والحب ، والطبيعة ، والخمر . وسنعود للحديث عنها .

اما النوع الثالث من الموضوعات فهي تلك التي يوحيها المجتمع أو تخلقها الحياة العملية وآليتها أو طريقة عملها التي يطلق عليها غالباً اسم « القضاء والقدر» . فأصل هذا النوع من الافكار والمشاعر اجتماعي قبل كل شيء ، ولو أنه قد يستوحى من حالات شخصية تماماً . ولكن هذه الحالات الشخصية ما هي على الاكثر الا انعكاس لمؤثرات عامة وجدت سبيلها في المجتمع فأثرت على افراده ، وان لم تكن كذلك فهي لا تغير او تفقد أثر هذه المؤثرات والتيارات .

واهم هذه الموضوعات الشعرية هي تلك التي تصف الاحداث العامة والافراح والآلام التي تنجم عن هذه الحوادث، واحكام القدر القاسية، وتمرد الانسان او احتجاجه على هذه الاحكام التي قد تكون فظة عنيفة احياناً وغير منطقية في أحيان أخرى، وهذا بالاضافة الى الاضطرابات السياسية وما ينشأ عنها من مشاكل عامة وخاصة. وقد كان للتباين الطبقي والنزاع السياسي المرير وما نتج عنهما من مشكلات أثر في تطوير نوع من التفكير التشاؤمي، نلاحظ خطوطه واضحة لدى شعراء القرن الخامس الاندلسيين. فالحياة حلم خاطف، والمستقبل يخفي في طياته المفاجآت المزعجة، والمجتمع لا يعطي للنبوغ حقه ولا يقدر الكفاءات حق التقدير وهذا الموضوع الأخير طالما عولج من قبل الشعراء الناشئين في الطبقات غير الموسرة، ممن يرى نفسه متخلفاً في مركزه ومنصبه، في حين ان أولئك الذين يقلون عنه نبوغاً وكفاءة ومقدرة يحظون بكل متع الحياة. ولعل خير مثل نعطيه لهؤلاء الشعراء هو عبد الجليل ابن وهبون.

المرأة والحب

للمرأة كما هو معلوم دور مهم في الحياة ولا سيما في الادب، ولكن القاعدة الاقتصادية التي يقوم عليها المجتمع تؤثر في مركزها ونشاطها وعلاقاتها بالرجل كما في غير ذلك من المظاهر تأثيراً عميقاً. فكانت حال المرأة في الاندلس تختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية التي تنتمي اليها. وقد كان تملك الرجل لكل وسائل الانتاج ومسببات العيش (كالارض والعقار والادوات..) السبب الرئيسي لهبوط مركز المرأة الاجتماعي.

وكان لتطور ملكية الرجل الفردية في عصور التاريخ السابقة أثره في تشديد تبعية المرأة للرجل، حتى غدت أخيراً جزءاً من هذه الملكية وأصبحت أداة من أدوات المتعة واللهو وانتاج الاولاد ولا سيما في الطبقات الغنية. واستناداً على هذا الأساس قامت التنظيمات التشريعية والاجتماعية فعكست هذه العلاقة

الاجتماعية وثبتتها مشددة بذلك عدم المساواة بين المرأة والرجل.

والمجتمع الاسلامي في ذلك العصر مثل واضح لهذا الدور من تاريخ البشرية فقد كان أهم ما يميز وضع المرأة في المجتمع الاندلسي على وجه العموم هو انخفاض مركزها الاجتماعي وتبعيتها للرجل. إلا أنه من المؤكد أن العلاقة بين المرأة والرجل لم تكن تأخذ الشكل نفسه تماماً في جميع طبقات المجتمع الاندلسي، فقد كان البون الشاسع بين حياة الارستقراطية وحياة العامة ينعكس في جميع مظاهر حياتها، ومنها الوضع الاجتماعي للمرأة؛ لذا فمن غير المعقول التحدث عن المرأة الاندلسية، كما يفعل كثير من المؤرخين، دون اعتبار هذا التباين الاجتماعي وأثره في مركز المرأة في كل من طبقاته فيجعلون من ولادة او مهجة القرطبية مثلا للمرأة الاندلسية.

المرأة عند العامة:

ان ما لدينا من معلومات حول وضع المرأة لدى العامة قليل موجز شأن كل ما نقل إلينا من اخبار العامة. الا ان ما نستطيع أن نقوله هو ان انحطاط منزلة الرجل بين العامة لم تكن بالشكل الفاضح الذي كانت عليه في الارستقراطية، فان المستوى الواطىء لحياة العائلة لدى العامة جعل العلاقة بين المرأة والرجل في هذه الطبقات قائماً على نوع من التعاون والتضامن الذي فرضته الحياة مما لا نحس بوجوده لدى الارستقراطية. فقد كان على الرجل العامي ان يعمل بجهد خارج المنزل لكي يحصل على قوت العائلة وعيشها اليومي، في الوقت الذي كانت فيه المرأة تشتغل بجهد ايضاً داخل البيت لتدبير شؤونه وتربية الاطفال. ولدينا من المبررات ما يدفعنا الى الاعتقاد ان المرأة في الريف كانت تقوم بواجبات اكثر اتساعاً خارج حدود المنزل، فكان نشاطها يمتد الى الأعمال التي تستهدف الحصول على قوت العائلة.

وفي المدن نفسها كانت المرأة العامية تتجاوز في أعمالها الواجبات المنزلية أحياناً فتساهم في الحصول على القوت في داخل المنزل، بل وحتى في خارجه

احياناً ، فيذكر لنا المؤرخ الاندلسي ابن بسام مثلاً حين تحدثه عن أبي بكر بن اللبانة الشاعر الاندلسي المعروف ، أن أم هذا الاخير كانت امرأة عاملة مجدة أخذت على عاتقها إعالة اولادها ببيع اللبن[1] .

ونستطيع أن نقول من جهة أخرى أنه لم يكن بين نساء العامة إماء، أي نساء مملوكات الا شذوذاً . فان ارتفاع أسعار الجواري بالنسبة لدخل الرجل العامي الضئيل الذي سبق أن تحدثنا عنه يجعل هذا النوع من الملكية بعيداً عن قدرته وعسيراً جداً على مورده . وبالرغم من عدم وجود معلومات دقيقة عن هذا الموضوع ، فاننا نعلم أن سعر الجارية قد يصل الى ألفين او ثلاثة آلاف دينار[2] تبعاً لسنها وجمالها وثقافتها وصفاتها الاخرى . وحتى اذا فرضنا أن سعر الجارية لا يتجاوز بضع مئات من الدنانير فان الحصول على هذا المبلغ حلم مستحيل التحقيق بالنسبة للأكثرية الساحقة من الناس ولا سيما بالنسبة للعامة كما يتبين لنا مما ذكرناه عن مستوى حياة هذه الطبقة .

صحيح أن أثمان العبيد تنخفض خلال فترات الغزو والانتصارات كما حدث في أثناء حكم المنصور بن ابي عامر في القرن الرابع حيث يذكر بعض المؤرخين أن سعر الجارية انخفض احياناً الى عشرين ديناراً فقط[3] . ولكن هذا الرقم الذي يعادل مورد البائع في السوق او الحرفي في بضعة شهور ، كان دون شك حداً أدنى يضرب به المثل لارخص انواع جواري الخدمة اللاتي يستخدمن لقضاء الحاجات المنزلية في قصور الأغنياء ، لذا فهو لا يسمح لنا بتصور وجود الاماء في عائلات العامة . ولهذا الامر أهميته الكبرى في منزلة المرأة في هذا الوسط وفي علاقتها بالرجل ، وفي المحل الذي تشغله من مشاعره وعواطفه ومن ثم في تعبيره الادبي . الا أن انعدام المعلومات حول الانتاج الادبي لهذه الطبقة

(١) الذخيرة ، ق ٣ ، ف ابن اللبانة .
(٢) البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٣٠٨ .
(٣) نفح الطيب ، ج ٢ ص ١٢٧ .

لا يسمح لنا بتكوين فكرة واضحة عن الشعر الذي أنتجته . ولكن الشيء المنطقي والذي تبدو آثاره فيما وصلنا من زجل الاندلسيين ذي المصدر الشعبي يدفعنا الى الاعتقاد ان حياة العامة كانت جديرة بجعل عواطف الرجل والمرأة ومشاعرهما سريعة الالتهاب في علاقاتهما مع بعضهما البعض ــ ولا سيما اذا اعتبرنا أيضاً الحواجز التي وضعها العرف والدين بين الاثنين والتي أشرنا الى أصولها الاجتماعية فيما سبق . ولكن الظواهر تدل على أن هذه الحواجز ، كانت أعلى وأسمك بكثير في الطبقتين الارستقراطية والوسطى منها لدى العامة . وهذا لا يعني ان المرأة العامية كانت اكثر حرية في ان تحب وفي ان تعبر عن مشاعرها وعواطفها باخلاص ، فسنرى ان شعور المرأة الارستقراطية بالحاجة الى الحب ربما كان أشد بكثير من شعور اختها العامية .

المرأة في الوسط الارستقراطي :

يختلف حال المرأة في الوسط الارستقراطي عن حالها لدى العامة ، اذ يحتوي الوسط الارستقراطي على نوعين من النساء :

النساء الحرائر والاماء او الجواري .

المرأة الحرة :

نستطيع تصور حال المرأة الحرة في الوسط الارستقراطي ، اذ ادركنا انها لم تكن مضطرة عموماً إلى القيام بأي عمل لا في داخل البيت ولا في خارجه، فما هي مشاغلها اذن ؟. فان لم تكن متزوجة فما عليها الا ان تنتظر الزوج الذي يملأ حياتها ويغذي عواطفها المتفتحة للحب ، فاذا طال هذا الانتظار فقد يؤدي الى نتائج نفسية تؤثر في عقلية المرأة وفي سلوكها سواء تجاه الرجال او تجاه النساء الاخريات . أما اذا تزوجت فيكون همها الاول انتزاع حب زوجها واعجابه ليزداد تعلقه بها بمختلف الوسائل . ولكن المجتمع بتقاليده وعاداته ونظمه لا يسمح لها بتحقيق هدفها هذا بسهولة ولا يجعل مهمتها يسيرة فمن

حق الرجل الذي يكفله العرف والقانون ان يحب نساء اخريات ، لانه يستطيع اذا توفرت له الامكانية المادية ان يتزوج بأربع نساء وأن يشتري من الجواري العدد الذي يرغب فيه . وهكذا ترى المرأة جهودها لان تحَب (بفتح الحاء) محوطة بالعراقيل وطريقها مليئة بالاشواك،فهي اما أن ترضى من الغنيمة بالفشل اذا تعلق زوجها بزوجة اخرى من زوجاته او بجارية حسناء من جواريه او بعدد منهن ، وإما ان تحظى بحبه وعطفه ، دون ان يعني ذلك مطلقاً انقطاع صلته الجنسية بنسائه الاخريات إلا في الحالات الشاذة[1] . ففي الحالة الاولى ، وهي دون شك الغالبة ، تنتج نتائج نفسية تؤثر في عواطف المرأة وفي سلوكها سواء تجاه بنات جنسها او تجاه الرجال . اما في الحالة الثانية فتشعر دون شك بالرضى والاغتباط ، اذا لم يكن في زوجها ما ينفرها منه ، ولكنها في الغالب تخوض معركة مستمرة للحظوة به والاحتفاظ بحبه لئلا يهرب منها الى زوجة ثانية او جارية اخرى .

هذا ما نستطيع استخلاصه من التحليل لما نعرفه عن حياة الحرائر في المجتمع الاندلسي . ويبدو واضحاً ان في هذا العرض الموجز فراغات واسعة لا نريد ان نملأها بالتصورات والافتراضات ، مع ان ما نعرفه عن حياة النساء في المجتمع الاسلامي قد يساعد على ذلك ، الا اننا نفضل انتظار الحصول على معلومات تاريخية وثيقة تسمح بسد هذا النقص وملء الفراغ .

نستطيع ان نصل من ذلك كله الى ان الشاغل الرئيسي للمرأة الحرة الارستقراطية في الاندلس كان على وجه العموم هو الحب ، فهو الذي يوجه مشاعرها وعواطفها وسلوكها حتى يتقدم بها العمر ، اما الاطفال فقد كان انشغالها النفسي بهم اكثر من انشغالها العملي ، إذ يتولى تربيتهم عموماً الجواري والحاضنات ويؤيد هذا الرأي الكاتب الاندلسي المعروف ابن حزم اذ يقول في كتابه المعروف عن فلسفة الحب : « وانك لترى المرأة الصالحة المسنَّة المنقطعة

(١) ابن حزم ، طوق الحمامة ، صفحة ٣٠٢ .

الرجاء من الرجال ، وأحب اعمالها اليها وأرجاها للقبول عندها سعيها في تزويج يتيمة واعارة ثيابها وحليها لعرس مقلة ، وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء الا أنهن متفرغات البال من كل شيء الا من الجماع ودواعيه والغزل وأسبابه والتآلف ووجوهه ، لا شغل لهن غيره ولا خلقن لسواه[1] .

ولم يكن المجتمع الاسلامي يعلم أبناءه احتقار الجسد او سحق الشعور الجنسي ، وان كان يحاول تقييده كما رأينا بقيود تلتئم مع تكوينه الاقتصادي والاجتماعي . ومع ذلك فهو لم يعن في هذا الميدان ـ أي في ميدان العلاقات الجنسية ـ بالمرأة الارستقراطية قدر عنايته بالرجل ، بل انه أهملها اهمالاً يكاد يكون تاماً واكتفى بفرض القيود عليها ، على عكس ما فعله مع الرجل ، يدلنا على ذلك التشريع والعرف اللذان كانا سائدين في البلاد ، والاخبار التي نقلها المؤرخون الاندلسيون بصورة مباشرة او غير مباشرة عن هذا الموضوع . وهذه الاخبار — على قلتها — تسمح لنا بأن نتصور وجود حياة عاطفية قوية لدى النساء في الوسط الارستقراطي اكثر بكثير من تلك التي تضع حدودها القوانين والعرف : وتقدم لنا ولادة[2] وصديقتها مهجة القرطبية[3] نموذجاً قد يكون قليل الانتشار ولكنه يعكس على كل حال سلوك المرأة الارستقراطية الحرة اذا تيسر لها ازالة بعض الحجب والظهور على مسرح الاحداث .

ومن المؤكد ان التقاليد والقوانين والنظم الاجتماعية التي تنظم علاقة الرجل الارستقراطي بالمرأة الارستقراطية بغض النظر عن طريقة نشوئها كانت مفروضة على النساء والرجال على حد سواء ، فعلى كل منهم أن يقبلها ويطيعها كما هو الحال مع جميع التقاليد والقوانين التي تخص جوانب الحياة الاخرى ، لذلك فقد كانت النساء على وجه العموم يقبلن هذا ولا يفكرن ، في غالب

(١) ابن حزم ، طوق الحمامة ، (القاهرة) ، صفحة ٥٠ .
(٢) انظر عن ولادة صفحة ١٦٢ — ١٦٣ .
(٣) ابن دحية الكلبي ، المطرب ، ف . مهجة القرطبية .

الاحيان ، في أن من الممكن ان توضع الامور في غير هـــذا الموضع ، وتحدد علاقاتهن بالرجال عـلى غير هذا الشكل . ولكن هـذا القبول كما هو كائن لم يكن بدون استثناء تخالف فيه القـاعدة العامة من قبـل نساء لا يردن التسليم بهذه التقاليد . فقد نقل لنـــا أحد المؤرخين الاندلسيين ، ابن سيد الناس اليعمري ، في مجموعة نصوص أدبية لم يتيسر لها الطبع حتى الآن ، نص عقد زواج بقلم ابن خلصة كتبه في أواخر القرن الخامس ، يثير غير قليل من الدهشة والاستغراب ، تشترط فيه الزوجة على الزوج أن لا يتزوج امرأة أخرى ولا يتسرى بجارية ، وأن يكون بيدها حق الطلاق متى شاءت[1] .

ويتحدث ابن حزم عن أخيه عـلى أنه حـال غريب يبعث العجب ويجدر بالذكر ، فيقول انه – أي أخاه – لم يتصل طيلة حيـاته بامرأة غير زوجه ، كما يقول ايضاً ان زوجته حزنت لوفاته حزناً شديداً وأنها رفضت الزواج من غيره ، وكان عزاؤها هو انه لم يتصل بامرأة غيرهـــا قط[2] ، وهذا يظهر الأهمية الخاصة لحدث مثل هذا يقتصر فيه الرجل على امرأته . وهاتان الحالتان اللتـان اشرنا إليهما ليستا كثيرتي الوقوع دون شك ، ولكنهما تظهران بوضوح ان في الاندلس من النساء من كن يثرن عـلى العرف المتبع والقـاعدة السائدة محاولات تحريم مـــا هو حلال بمثل العقد الذي كتبه ابن خلصة او بغير ذلك من الوسائل .

الاماء او الجواري :

ونقصد بهن النساء المملوكات اللاتي يبعن ببيع العبيد وهن يكون دون شك جزءاً من هذه الطبقة – اي الرقيق – ولكن لهن صفاتهن الخاصة التي فرضتها عليهن أنوثتهن والظروف التي أحاطت بهن وامكانياتهن .

---

(١) مخطوط الاسكوريال ، رقم ٤٨٨ .
(٢) ابن حزم ، طوق الحمامة ، صفحة ٣٠٢ .

ينقسم الجواري عمومـــاً الى نوعين : – أحدهما ، يشمل الجواري اللاتي يستخدمن في القصور لقضاء الحاجات المنزلية ومـا شابهها ويطلق عليهن اسم « جواري الخدمة » . ولا شك ان جواري الخدمـة كن على وجـه العموم من الجواري اللاتي جاوزن سن الشباب أو ممن لا يصلحن للمتعة والتسلية . أمـا الآخر فيشمل مـــا يطلق عليهن عادة في الاندلس « جواري اللذة »[1] وهن اللاتي يستخدمن لتسلية أسيادهن وجلب المتعة الى نفوسهم بمختلف الوسائـل ، وقد كن على وجه العموم يثقفن ثقـافة خاصة تساعدهن على أداء واجباتهن ، فكن يتعلمن رواية الشعر والغناء والموسيقى والرقص، ويخترن من بين الجواري الشواب الحسان ، وأثمانهن مرتفعة جداً ، وتزداد ارتفاعاً كلما تعددت صفات الجارية واتسعت ثقافتها . ويحتـل قسم من الجواري منزلة كبيرة في القصور ، فترتفع مكانتهن بقدر ما لهن من تأثير على اسيادهن .

وعدد هؤلاء الجواري، ولا سيما جواري اللذة، يختلف تبعاً لثروة الاسياد ، فكان الحكام والأمراء يمتلكون منهن المئات فقيـل ان المعتمد مثلاً كان يمتلك حين خلع عن العرش ثمانمائة امرأة[2]، وكان للشخصيات الارستقراطية الاخرى عدد يتناسب وثرواتهم .

فماذا كانت مشاغل الجواري في هذا العصر ؟!..

اما جواري الخدمة فكانت مشاغلهن بخدمـة أسيادهن في القصور تشغل قسماً كبيراً من وقتهن . وأما جواري اللذة فكان واجبهن جلب المتعة والسرور الىنفوس أسيادهن،فقد كن على وجه العموم يبحثن عن حب السيد ورضاه،ولا شك أن عددهن الكبير كان يجعـل مهمتهن هذه صعبة الأداء وغايتهن عسيرة التحقيق ، فمن المعلوم أن اللاتي يستأثرن بقلب السيد ، هن جوار معدودات

---

(١) ابن حزم ، طوق الحمامة ، صفحة ٢٠٦ .
(٢) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ف المعتمد .

إن لم تكن جارية واحدة . بل إن الامر قد يتجاوز هذا الحد ، فيحدثنا ابن حزم انه يعرف رجلاً كان له اكثر من ستين جارية ، ولكنه مع ذلك كان يقصد منازل البغايا معللاً ذلك بأنه كان كالكلب لا ينبح الا على من لا يعرفه[1]!

والقانون الاسلامي في الاندلس يعاقب الجارية التي تزني بخمسين جلدة بل إن بعض الفقهاء لا يوقع عليها العقاب ، ويترك الامر لسيدها ليختار ما يحلو له من جزاء[2] ، وهكذا نرى القانون شديداً في محاسبة الحرائر ، ولكنه أميل الى اللين في معاقبة الجواري .

نخرج من ذلك كله بأن حال الجواري مع أسيادهن لم تكن بأحسن من حال الحرائر ومع ذلك فقد كانت الجارية تتمتع نسبياً ببعض الحرية التي لا تتمتع بها الحرة لا سيما اذا لم تكن موضع عناية سيدها وحبه ، ولذلك فان ما أشرنا اليه من نتائج نفسية وعاطفية يصدق على الجواري كما يصدق على الحرائر ، بل إن هنالك من العوامل ما يجعل الحياة العاطفية تأخذ شكلاً اكثر نشاطاً لدى الجواري منها لدى غيرهن نظراً لمركزهن الاجتماعي المنخفض الذي لا يؤثر على سمعة الاسياد ولحريتهن النسبية .

هذه النظرة العاجلة على حياة المرأة في الطبقة الارستقراطية يقودنا الى الاعتقاد بأن الحب يحتل مكاناً هاماً في تفكير المرأة الارستقراطية، كما يمكن أن يحتل مكاناً تختلف أهميته في حياتها . إن من المؤسف أن لا يكون بين ايدينا عدد كاف من الاخبار او من الحكايات والقصص الاندلسية التي يمكن ان تزودنا بمعلومات قيمة عن حياة المرأة العاطفية في هذا الوسط . ولعل ابن حزم واحد من قلائل استطاع إعطاءنا في كتابه « طوق الحمامة في الألفة والالاف » بعض النبذ المختصرة في هذا الموضوع . ونستطيع ان نقول ان من

(١) ابن حزم ، طوق الحمامة .

(٢) ابن رشد ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ج ٢ ، صفحة ٣٦٥ .

نتائج حياة المرأة هذه وسلوكها الذي نجهل اكثر تفصيلاته، تلك الافكار التي انعكست في العقلية الارستقراطية عن المرأة، فقد كانوا يتصورونها ويصورونها دائماً مخلوقاً خبيثاً همه الدس والكيد ، لا يسعى إلا لارضاء شهواته وإشباع رغباته منقاداً لعواطفه انقياد الأعمى ، واستناداً الى ذلك فهم يعاملونهن بحيطة وحذر ويحرصون على حفظهن في قصور لا يسمح لهن بالخروج منها إلا في حالات خاصة وبحذر غير قليل . ولا أعتقد اننا بحاجة لذكر المزيد في هذا الموضوع ، فحال الحريم في القصور والشدة التي يراقبن بها أوضح من ان يحتاج الى تفصيل .

إلا ان الوسط الارستقراطي لم يكن يهمل تعليم النساء فلدينا كثير من الاشارات التي تدل على طول باع المرأة في الشعر والادب . وابن حزم نفسه يذكر ان النساء هن اللاتي اعتنين بتربيته «فعلمنه القرآن ورونه الاشعار»[1] . كما أن مالدينا من شعر النساء الاندلسيات رغم قلته ، يدل على طول باع كثير منهن في صناعة الشعر ونظم القريض .

هذه الحياة التي استعرضنا خطوطها العامة وهذه الثقافة والدلائل التي تشير الى اهتمام النساء بالشعر والادب كلها تدفعنا الى الاعتقاد بوجود أدب نسائي جدير بالتقدير ولكننا نخشى أن يكون الجزء الاكبر من هذا الادب قد فقد الى الابد ، إذ لم تكن للمرأة حرية التعبير ليستطيع انتاجها الادبي لا سيما العاطفي منه أن يخرج من بين الحجب السميكة التي ضربت عليها ويخترق الاجيال والعصور للوصول الينا ، والمؤرخون الاندلسيون أنفسهم اكتفوا بالاشارة الى قسم من الشاعرات وذكر أبيات متفرقة قليلة من انتاجهن ، وكان للعوامل التي سبق أن تحدثنا عنها، فيما يتعلق باختيار مؤرخي الادب الاندلسيين وأذواقهم أثرها أيضاً في اهمال هذا الانتاج الادبي القيم ، والذي كان جديراً - كما أعتقد - بأن يحظى منا بالاعجاب .

(١) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١٢٦ .

الرجل والحب في الوسط الارستقراطي

يختلف موقف الرجل الارستقراطي من المرأة في علاقاته معها كل الاختلاف عن موقفها منه ؛ فقد كانت الطريق ممهدة جداً أمام الرجل لاشباع حاجاته وارضاء نزواته الجنسية، والمرأة لا تمثل غير ملك خاص وأداة للهو والمتعة . ولكن ذلك لم يكن يمنعه طبعاً من الشعور بالحب لاحدى زوجاته او جواريه . ولا شك أن في حياة كل رجل ارستقراطي تقريباً تلعب امرأة أو عدة نساء أدواراً تختلف أهمية ، سواء أكان ذلك في وقت واحد أو في أوقات متفاوتة ، ويأخذ هذا الشعور اما مظهر تعلق شديد بالمرأة واما السرور بالاجتماع بها ، ولكن نادراً ما نرى في الوسط الارستقراطي ذلك الحب العنيف الذي يملك على الرجل لبّه وعقله ويستولي على كل مشاعره . هذا اذا اعتمدنا في تقدير هذه العواطف على ما لدينا من شعرهم .

ولهذه الظاهرة أسبابها الواضحة في حياتهم وفي مركز المرأة في الوسط الذي يعيشون فيه . فالقسم الاكبر من شعر الحب الذي تركته لنا هذه الفترة ينقصه عمق الشعور والسمو العاطفي . فهو على وجه العموم تعبير عن فرح سطحي بلقاء فتاة حسناء او حزن لفراقها ، ونادراً ما يعكس لنا الشاعر صورة حبيبته ، وحتى اذا ورد اسمها ، فانه قلما يصور شخصية متميزة مثيرة تتميز بجمال خاص وفتنة معينة ، وغالباً ما لا يرى القاريء سوى المرأة عموماً ، تلك التي يحب الرجل لقياها ويأسى لفراقها .

والحب في الشعر العربي موضوع تقليدي ، لذا كثيراً ما كان الشاعر يغترف من معانيه وافكاره القديمة وينقلها بأسلوب جديد يعنى باختيار كلماته وزخرفة تعابيره ، فالعناية بالشكل كانت صفة بارزة من صفات أدب هذه الفترة . وعلى ذلك فقلما نرى في شعر الارستقراطيين الغزلي ما ينفذ الى النفوس ويمتلك القلوب ، وان كان فيه كثير من براعة التركيب ومتانة الصياغة وقوة البناء .

ويصدق هذا الحكم على القسم الاكبر من شعر هذه الطبقة، كما سنرى ذلك واضحاً عند دراستنا لشعرائهم . اما شعر الحب الذي نجد فيه صدق العاطفة وعمق الشعور فيجب ان نبحث عنه عند الشعراء الذين عرفوا للمرأة حقها فتعلقوا بها واجتنوا حلوها ومرها ، وهم عادة من غير هذا الوسط .

فنستطيع اذن القول ان الحب بمعناه الجنسي كان يحتل مكاناً في حياة الوجهاء والاغنياء، فالمرأة كانت وسيلة من وسائل اللهو والمتعة لا يمكن ان يستغني عنها ذو المال والنفوذ ، بل كان لا يتردد في امتلاك اكبر عدد منها ، ولذا فنحن حين نتكلم عن الحب لدى هذه الطبقة ، علينا اعطاؤه معنى خاصاً يناسب مفهومها لهذه العاطفة وينسجم مع موقفها منها .

فحب الرجل الأرستقراطي يتميز بصفتين رئيسيتين : الاولى ، أن الإخلاص فيه لا يعني الاقتصار على المرأة الحبيب في صلات الرجل الجنسية وحتى العاطفية وإنما تفضيلها على غيرها . والثانية ، أن علاقة الحب بين الرجل الأرستقراطي والمرأة انما كانت تعني قبل كل شيء حبه لها ، أما شعورها نحوه فهذا ما لا أهمية له ، أو إن شئت فقل قليل الأهمية ، لأن المرأة على وجه العموم مضطرة على الخضوع لرغبات الرجل ونزواته . وهذا ناتج عن ان المجتمع لا يعطي مطلقاً ، لا نظرياً ولا عملياً ، للمرأة الحق بان تحب من تشاء . فهناك رجل واحد في حياة كل امرأة يجب عليها حبه وطاعته وهو زوجها أو سيدها الذي لا يد لها في اختياره .

واعتبارنا لهاتين الصفتين في مفهوم الحب لدى الارستقراطيين الاندلسيين له أهمية في فهم شعر الحب في هذه الفترة وإدراك حقيقة عواطف الشعراء تجاه من يتغزلون بهن . فالمعتمد الذي أحب اعتماد مثلاً وبقي على شعوره هذا الى اليوم الاخير من حياته ، كما تجمع المصادر التأريخية ، لم يمنعه ذلك الحب مثلاً من أن يمتلك ثمانمائة امرأة وأن يميل لغيرها من النساء ويتغزل بسحر وجوهرة وام عبيدة وغيرهن ويأنس بقربهن ويرضي شهواته ونزواته معهن او مع

سواهن . وكانت اعتاد دون شك تعرف هذه الحقيقة وتقبلها ، فالناس لم يكونوا يفهمون حب الرجل بغير هذا الشكل ؛ وقل مثل ذلك عن كثير من الحالات المشابهة .

الغزل بالغلمان

بقي أن نقول كلمة في حب الغلمان الذي كان ، كما يبدو، شائعاً في الأندلس ، كما يدل على ذلك الشعر الذي وصلنا من ذلك الزمان . إن من العسير في الواقع أن نوضح الاسباب النفسية والاجتماعية لهذه الظاهرة الغريبة. فاذا كان من الممكن أن نتصور الحرمان الجنسي سبباً رئيسياً من اسباب هذا الاتجاه في الطبقات الفقيرة ، فان مثل هذا السبب يفقد اهميته تماماً في الاوساط الارستقراطية التي ابتذلت فيها المرأة والتي كان انتشار حب الغلمان فيها لا يقل عن انتشاره في غيرها من الطبقات ، ان لم يزد عنها . وربما كان السبب الرئيس ، فضلاً عن عادة اقتناء الغلمان ، هو البحث دائماً عن وسائل جديدة للمتعة ، فكان الغلمان احدى هذه الوسائل .

ومما يلفت النظر في هذا الموضوع ، ان التعلق بالغلمان والتغزل بهم لم يكن منتشراً فحسب ، بل إنه لا يبدو أمراً معيباً او غير مرغوب فيه لا سيما في الوسط الارستقراطي ، لذا فهو يرد لدى كثير من شعراء هذا العصر . فأبو عامر بن مسلمة يروي في كتابه « حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح » كثيراً من المساجلات التي تدور حول وصف الغلمان ، يشارك فيها الشعراء الوجهاء المعروفون في اشبيلية ، ومنهم ابو عامر نفسه ، فيذكر مثلاً أن أبا الاصبغ بن عبد العزيز كتب اليه والى ابن الابار وقد رأى معهما غلاماً فيما سلف وسيما ثم عذر (أي ظهر عذاره) وأدبر ، بأبيات أولها :

أمفترسي ظبي أغر غرير   ومقتنصي بدر أنار منير
لئن نلتما بالسحر في كل غرة   ففي مقل الغزلان كل غرور
وقد يحرم الرامي المصيب فريسة   ويرزقها بالسحر كل سحور

فطيبا جميعاً واطربا وتمكنا   فليس الذي أدركتما بيسير
هل الراح الا وجهه ورضابه   فان جمعت حلت ... نكير

فيجيبه ابن الابار :

لعمرك إن الظبي غير غرير   وإن محيا البدر غير منير
بدت لحية في وجهه هي لحنة   أتاحت له موتاً بغير نشور

وفي مناسبة اخرى يكتب أبو الاصبغ الى ابن الابار(٢) :

أما وخدّ له معذّرْ   ومبسم الخاتم الجوهرْ
وخصره المتعب المعنى   بثقل ما ضاق عنه مئزر
ولمّة أسبلت أثيثا   كأنه وابل معطّر
وورد خدّيه بعد سكر   والغنج في لحظه المحبر
ان خلته ضيغماً قطوباً   او اسداً عابساً غضنفر
فهو من الحسن كل بدر   وهو من الطيب كل عنبر
ريقته خمرة ولكن   شيب شذاها بطعم سكر
مظفر كاسمه مظفر   اخلاق ليث وخلق جؤذر

فيجيبه ابن الابار :

لست بصاب الى معذّرْ   بل انا في حبه معذَّرْ
لا اعشق الظبي ذو لجام   لأنه في الظباء منكر
اهواه والخد منه صبح   حتى اذا ما دجا تقيَّر
احسن ما فيه ان تراه   بين مهاة وبين جؤذر
متوّجاً لمّة ...   بتاج كسرى وملك قيصر

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، فصل يشتمل على مقطوعات ابيات لجماعة من الادباء .
(٢) المصدر السابق .

إن ماس فالمرط منه مغمر | بما حواه الوشاح معسر
يرفق بالخلق حين يغضي | وينظر الموت حين ينظر
متى يلم عـــاذل عليه | يبـــدو له وجهه فيعذر
كم علّني الراح ثم حيّا | احوى مريض الجفون احور
كأنمـــا سحر وجنتيه | نوّم اجفـــانه لتسهر
مـــا زلت اشتفّها ونقلي | طـــلاه والمبسم الجوهر
اسكن في طرّة وثغر | فصرت في جنـــة وكوثر

فانظر الى هـذا الاعجاب العميق والتحسس بالجمال في كل جوانب الغـلام المحبوب والذي قد يقتصر كما هو الحال لدى ابن الابار على صفاته الأنثوية ، وقد يتعداها الى قسم من صفات الرجولة كالعذار والقوة والبـــأس ، كما هو الحال لدى ابي الأصبغ . وهؤلاء الشعراء الذين اشرنا اليهم هم وجوه إشبيلية آنذاك واشرافها وابرز اعيانها .. ومثل هذه الظواهر نجدهـا لدى كثير من الشعراء الاندلسيين الآخرين من مختلف الطبقات .

وليس المجتمع الأندلسي بدعا في هـــذه الظاهرة بين المجتمعات القديمة والحديثة . فكثير من العلماء الذين درسوا هذا الموضوع يؤكدون ان هـــذه الظاهرة الجنسية كانت منتشرة ومألوفة جداً في المجتمعات القديمـة المتحضرة ، ولا سيما لدى الاغريق والرومان في ازهر فترات حضارتهم . كما لوحظ ان انتشارها بين الشعوب البدائية واسع جـــداً . وقـــد درس كثير من علماء التحليل النفسي وعلماء النفس والاجتماع هذه الظاهرة ، ولعل اهم هذه الدراسات هي تلك التي قـــام بها شيخ مدرسة التحليل النفسي سيغموند فرويد [1] .

---

(1) Sigmund Freud, Trois Essais Sur la Théorie de la Sexualité P,2

وأستطيع القول إن الظواهر التي لاحظها فرويد في مقالته هذه تنطبق لحد كبير على النماذج التي يمكن أن نراهـــا خلال تحليلنا للغزل بالغلمان الذي نشأ وتطور في المجتمع الاسلامي المتحضر . وأقول المتحضر ، لأننا لا نلاحظ مطلقاً هذه الظاهرة في الشعر العربي البدوي ، بل ولا حتى في الأدب الذي نشأ في فترة انتقال العرب من البداوة الى الحضارة ، أي في القرن الاول الهجري ، وإن كان من المنطقي أن تكون جذور هذه الظاهرة قد بدأت في هذه الفترة او في أواخرها على الأقل . ولست الآن بصدد تحليل العوامل التي أدت الى ظهورها ، وانما أكتفي بالاشارة الى أن وجود النماذج التي عرضها فرويد في الاندلس كوجودها بين الشعراء المشارقة . فـــاذا كان ابن زيدون والمعتمد مثلاً قد توجها بغزلهما نحو المرأة ، فـــان ابن عمّار وابن الابار وأبا الاصبغ بن عبد العزيز وكثيراً غيرهم قد انجذبوا نحو الغلمان بقدر انجذابهم نحو النساء ، إن لم يكونوا أكثر من ذلك . وقل مثل ذلك عن الشعراء الآخرين .

الطبيعة في الأدب الاندلسي :

وتأثير الطبيعة في شعر الاندلسيين في هذا العصر ليس موضع جدال أو نقاش فقد كانت الطبيعة هي الاطار الذي كان الشاعر يقضي فيه ساعات لهوه ومتعته وسروره . ويبدو أن عـــادة الخروج لا سيما في الفصول الملائمة الى خارج المدينة ، والى المتنزهـــات والحقول والبساتين ، كانت شائعة جداً لدى الاندلسيين ، كما كان الناس ولا سيما الاغنياء والموسرون يوجهون اهتماماً خاصاً لزراعة الزهور وتنظيم الحدائق ويظهر تأثير حب الطبيعـة في جميع مواضيع الشعر الاندلسي ، فلا نكاد نقرأ قصيدة أندلسية سواء أكانت في الوصف أم الرثاء أم المديح أم غير ذلـك إلا ونلمح آثار الطبيعة في مخيلة الشاعر واضحة بينة ونلمس تعلقه بها في ثنايا التعابير المجازية والتشبيهات والاستعارات .

ولكن التقاليد الأدبية التي كانت سائدة في ذلك العصر واهتمامهـا الزائد بالشكل والزخرفة اللفظية من جهة ، وعناية المؤرخين واهتمامهم بحياة الأمراء

والملوك ومن يحيط بهم من جهة اخرى ، جعل ما نقل الينـا في هذا الموضوع رغم انه ليس بالنزر اليسير لا يمثل كل، بل ولا اكثر، ما قيل في هذا الموضوع، ومع ذلك فنستطيع ان نقول ان الشعر الاندلسي يضم احسن مـا قيل في الادب العربي من شعر الطبيعة . والطبيعة كما قلنا متغلغلة في جميع موضوعات الشعر الاندلسي ولدى جميع شعرائه ولا سيما في هذا القرن ، ولعل خير ممثل لهذا التاثر العميق بالطبيعة هو الشاعر المعروف ابن خفاجة .

اما عن شعر الطبيعة في اشبيلية في القرن الخامس الهجري وهو ما يهمنا الان على وجه الخصوص ، فمن المؤسف ان تكون العناية الشديدة باللفظ والاغراق في استعمال المحسنات البديعية والبيانية ولا سيما التشبيهات الشكلية التي يختفي وراءها الحب العميق للطبيعة والاعجاب بها والامتزاج واياها ، هو الاتجاه الغالب في شعر العصر . فالعناية بالتشبيهات والاستعارات التي تقصد لذاتها كانت في الواقع الصفة البارزة المميزة لهذا الادب المستوحى من الطبيعة ولا سيما من الزهور . وقد شغل هذا الشعر محلا مهما جدا في شعر الشعراء الارستقراطيين على وجه الخصوص . والاستعارة او التشبيه ان لم يكونا الغرض من الصور التي يسهمان في رسمها نقل شعور الشاعر وتاثره الحقيقي بموضوع شعره ، فانهما يصبحان عملية فكرية تعنى قبل كل شيء بايجاد علاقات شكلية جامدة . فالتشبيه يجب ان يتوخى عندما يرسم صورة شعرية نقل شعور الاديب واحساسه العميق والا فلا جدوى فيه .

وعلى كل حال فلسنا الان بصدد بحث هذا الموضوع باطناب وتفصيل ، فسنرى امثلة واضحة على ما نقول في استعراضنا لشعر هذه الفترة ولشعرائها

ها نحن قد القينا نظرة عاجلة على المجتمع الاندلسي في القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي) محاولين توضيح العلاقات التي تربط الكيان الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الاندلسي بنتاجه الادبي . وقد حاولنا ان نرسم الخطوط العامة التي تربط الظواهر التاريخية بعضها ببعض دون ان

نحاول الاطناب في الشرح والاسهاب في ضرب الامثلة ، ففيما ياتي سنرى التطبيق الواضح والشواهد البينة على كل ماسبق ان قلناه في هذه الدراسة الموجزة .

لقد قلنا ان الادب ظاهرة تاريخية مرتبطة ارتباطا وثيقا بمختلف الظواهر التاريخية الاخرى ومنها الاقتصادية والاجتماعية والسياسة . فهو اذن يتطور بتطورها ويتاثر بتغييرها وتبدلها دون ان ينفصم عن اصله الذي نشأ منه وتاريخه الذي اعتمد عليه وجذوره التي انبثق منها .

وسنحاول في الصفحات القادمة بعد إلقاء نظرة على تأسيس مملكة اشبيلية المستقلة والظروف التي أحاطت بها ، أن نبدأ باستعراض النشاط الأدبي في هذه المدينة في النصف الأول من القرن الخامس، ومميزاته التي تختص به وأحسن ممثليه ، معتمدين على ما قمنا به في الصفحات السابقة من دراسة للروابط التي تربط الحياة الأدبية بالتكوينين الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع الاندلسي ، دون إهمال الأدباء المنتجين أنفسهم ، والذين يسهمون بتفكيرهم وعواطفهم بدور كبير في إنتاج الأدب وتوجيهه ، دون أن يستطيعوا على وجه العموم الخروج من الطريق الواسع الذي رسمه لهم التاريخ[1] .

(١) لقد حالت ظروف خاصة دون ظهور هذه الدراسة قبل هذا الوقت فقد سبقتها دراستان الاولى لابن عمار والثانية للمعتمد ظهرتا على التوالي في عامي ١٩٥٧ و ١٩٥٨ هما في الحقيقة تكملة لهذا البحث واستمرار له .

الفصل الثاني

استقلال اشبيلية السياسي

انحلال الخلافة في قرطبة

من الواضح أنه كان لاستقلال إشبيلية في عـام ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) نتائج مهمة جداً على سير النشاطين الاقتصادي والأدبي. وقد رأينا أن هذا الاستقلال كان نتيجة عوامل عديدة يختلف تأثيرهـا قوة وضعفاً باختلاف مـا أحاطها من ظروف .

كان المنصور بن أبي عامر قد استدعى فريقـاً من قبيلتي صنهاجة وزناتة البربريتين ليلحقهم بجيشه ويستعين بهم في حروبـه الكثيرة وغزواته المتعددة لمسيحيي الشمال. وقد بقي هؤلاء البربر بقيادة رئيسهم زاوي بن زيري يكونون عنصرا مهما جدا في الجيش الاندلسي ، حتى اذا حدثت الفتنة بعد ثورة العامة في قرطبة ضد عبد الرحمن بن ابي عامر الملقب بشنجول ، قام هؤلاء بدور مهم فيها واسهموا بقسط وافر من النشاط الذي تطلبه النزاع الدامي الذي قـام آنذاك(١). لقد كان البربر مضطرين كل الاضطرار الى اتخـاذ موقف معين في العراك المرير الذي كان يضع الطامعين في الخلافة من بني امية احدهما في وجه الآخر ، فهم غرباء في البلاد ، جاءوا لخدمة ملوكها لقاء أجر معيَّن ، وصناعتهم

---

(1) Levi - Provençal, T. II, P. 191

حمل السلاح ليس غير ، حتى اذا جاءت عائلة بني حمود البربرية (رغم انتسابها الى علي بن أبي طالب) ، انضوى البربر تحت لوائها وأصبحوا من أشد المدافعين عنهـــا . وكان من الطبيعي جداً أن يقف الاندلسيون ضد هؤلاء البربر الذين كانوا يمثلون خطراً يهدد جميع الطبقات ولا سيما الأرستقراطية القابضة بيدها على زمام السلطة ، فيناصبونهم العداء ويحاولون إخراجهم من مدنهم بكل مـا يتيسر لهم من سبل ووسائل . وقد أخذ هذا التهديد شكلاً خطيراً بعد مجيء العائلة الحمودية من افريقية وانتزاعهـــا السلطة من أيدي الخلفاء الأمويين . فالقرطبيون الذين رفضوا ولاية العهد لعبد الرحمن بن أبي عـــامر بعد الخليفة هشام المؤيد الأموي ، اضطروا تحت ضغط البربر الشديد الى قبول عـــائلة افريقية بربرية على عرش الخلافة . وقد شعر الاندلسيون ومنهم سكان إشبيلية بالألم الممض والقهر الشديد عندما رأوا القرطبيين يضطرون للخضوع لهؤلاء البربر الذين كانوا يعتبرونهم من الدخلاء .

ان من الواضح أن السلطة المركزية في قرطبة بعد ابتداء الفتنة ، وهو الاسم الذي يطلقه المؤرخون على النزاعات الدامية التي قامت بين الاندلسيين ومرشحيهم للخلافة من جهة وبين البربر ومرشحيهم من الجهة الأخرى ، أقول ان من الواضح أن السلطة المركزية فقدت تأثيرها على الأقاليم والمدن الاندلسية التي كانت تنتظر بفارغ الصبر استقرار الامور لتتخذ ما يلائمها من مواقف . وقد كان من نتيجة اضطراب الاحوال في قرطبة أن أحس الحكام المحليون الذين ساندتهم الارستقراطية المحلية في جميع المدن الاندلسية الكبيرة بامكانية الانفصال عن قرطبة والاستقلال التام في ادارة شؤونهم ، بـــل انهم شعروا بضرورة ذلك ، لا سيما بعد انتزاع الحموديين للخلافة .

اما اشبيلية وهي موضوع دراستنا ، فقد عيّن الخليفة الحمودي الاول في قرطبة « علي بن حمود » أخاه « القاسم بن حمود » حاكماً عليهـــا . ولم يكن

القاسم هذا مجرداً من بعض صفات الرجـــل السياسي القدير(١) ، لذا فقد بذل جهداً غير قليل في اجتذاب الشخصيات الاشبيلية الكبيرة اليه ، واعتمد على وجه الخصوص على قاضيها الثري محمد بن اسماعيل بن عباد الذي أقام معه علاقات ودية طيبة(٢) . وعندما قتل علي بن حمود في قرطبة في ذي القعدة من عام ٤٠٨ هـ (٢٢ آذار ١٠١٨ م) دعي القاسم لتولي الخلافة مكان أخيه القتيل(٣) فعهد الى القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد بادارة شؤون المدينة ، ولكن القاسم ابن حمود لم يستطع البقاء طويلاً في قرطبة اذ ثار ضده ابن أخيه يحيى بن علي ابن حمود ، فاضطر القاسم في ٢٢ ربيع الثاني عام ٤١٢ هـ(٤) (٥ آب ١٠٢١م) الى ترك هذه المدينة والالتجاء الى اشبيلية التي استمرت على تأييدها له ورفضت مبايعة ابن أخيه يحيى(٥) ، وهكذا نجد اشبيلية تتمرد لاول مرة على السلطة المركزية في قرطبة ، وهـذه الظاهرة لا تعني ــ كما سنرى ــ تعلق الاشبيليين بالقاسم بن حمود ، وانما شعورهم بضعف الادارة المركزية وقدرتهم على الانفصال عنها ومن ثم رغبتهم في التخلص من الحموديين .

ولم يستطع يحيى بن حمود الصمود في قرطبة اكثر من عام ونصف ، فقد ابتدأ يشعر بتضاؤل ثقته بالبربر الذين يحيطون بـــه ويدافعون عنه من جهة وبتعاظم خطر ثورة العامة في قرطبة من جهة اخرى، ولذلك فقد فضل ترك هذه المدينة والالتجاء الى مالقة في جنوب الاندلس ، وعندمـــا سمع القاسم بأخبار ترك يحيى لقرطبة توجه من اشبيلية اليها ودخلها دون صعوبة وتولى زمام السلطة فيها في الثاني عشر من ذي القعدة عام ٤١٣هـ (١٦ شباط ١٠٢٣م)(٦) .

---

(١) Levi - Provençal, H. M., T. II, P. 331 .
(٢) البيان المغرب ، ج ٣ ، صفحة ١٩٥ .
(٣) البيان المغرب ، ج ٣ ، صفحة ١٩٥ Levi - Provençal, H.E.M.,T II,p 328
(٤) البيان المغرب . ج ٣ . صفحة ١٣١ « « « « « « « « «
(٥) البيان المغرب . ج ٣ . صفحة ١٣٢ « « « « « « « « «
(٦) « « « « « « « « «

وما كاد القاسم يغادر اشبيلية حتى هبّت ريح الثورة والتمرد ضد سلطان الحموديين في المدينة . ويقدم لنا ابن خميس بعض المعلومات القيمة عن القطيعة بين القاسم والاشبيليين في كتابه عن ادباء مالقة[1] فيذكر ان القـــاسم سمع بأخبار تشير الى ان الاشبيليين يريدون التمرد على سلطانـــه ، وان ثورة مثل هذه قد تكون لمصلحة او لتأييد ابن اخيه يحيى ، فقرر ارسال عدد من الجنود البربر لاحتلال المدينة ، وارسل اوامره الى اشبيلية لاخلاء عـــدد من المنازل يكفي لاسكان جنوده ، ويبدو انه اراد ان يحتفظ لنفسه بملجـأ يؤمه اذا ما ضاقت عليه السبل في قرطبة ، فقد كان يدرك جيـــدا ضعف مركزه وتحفز العامة في المدينة للوثوب ضده ، فلم ير خيرا من اشبيلية لتحقيق هذا الغرض .

وعندما وصلت أوامر الخليفة الحمودي الى القاضي ابن عبـاد ، استدعى هذا الأخير وجهاء اشبيلية وشخصياتها البارزة يشاورهم في الأمر ويطلب منهم البت في الموقف الذي يجب اتخـــاذه من أوامر القاسم ، فكان قرارهم تجاهل هذه الأوامر والدفاع عن مدينتهم بالقوة تجاه البربر القادمين ، فأجمعوا أمرهم على ذلك وجمعوا المال والسلاح ووزعوا رواتب الجند الاندلسيين ووضعوهم تحت امرة مجلس مكون من كبار وجهاء المدينة وأثريائها البارزين واسندوا اليه أمر ادارة المدينة والدفاع عنها وكان اول ما فعله هذا المجلس هو اصداره الاوامر بمهاجمة قصر الحاكم الحمودي واعتقال ابني القاسم وارسالهما الى قرطبة مع عائلاتيهما ويذكر ابن خميس أيضاً ان الاشبيليين، لكي يأمنوا هجوم القاسم عليهم ، كتبوا الى يحيى بن حمود في مالقه يعرضون عليه تبعيتهم الاسمية ، فأسقط في يد القاسم ، ولم يكن الوضع في قرطبة يساعده على القيام باي عمل كان ضد اشبيلية .

اما يحيى فقد طلب الى الاشبيليين أن يسلموه المدينة ويسمحوا لجنوده بدخولها ، ولكنهم رفضوا ذلك وعرضوا عليه أن يدفعوا اليه خراجا ،

---

(١) ابن خميس ، ادباء مالقه صفحة ١٤٤ (مخطوط الرباط) .

ويذكروا اسمه في خطبة الجمعة ويضربوا النقود باسمه على ان لا يدخل الى مدينتهم . فرفض يحيى هذا العرض وهدد المدينة بالويل والثبور، وسار بجيشه فعلاً الى اشبيلية فخرب مزارعها ودمر قراها ، دون أن يستطيع حمل الاشبيليين على الرجوع عن قرارهم ، فاضطر بقبول شروطهم وطلب منهم رهينة تضمن له تنفيذ هذه الشروط فقدم له القاضي ابو القاسم بن عباد ابنه عباداً (الذي سمي فيما بعد بالمعتضد) والذي كان عمره آنذاك حوالي سبع سنوات

وقد قضى عباد فترة من الزمن في مالقة في قصر يحيى بن حمود ، ويقـال انه لعب ذات يوم مع ابن ليحيى قرب حوض ماء ، فسقط ابن يحيى في الحوض وغرق. فحزنت أمه حزنا شديدا واتهمت عباداً باغراق ابنها وطلبت الى يحيى قتله فرفض يحيى وفضل اعادته الى أبيه حلا للمشكلة[1]

وقد كان لاستعداد القاضي لهذه التضحية وتقديمه ابنه رهينة لدى يحيى أثر كبير دون شك في نفوس الاشبيليين . ويشير ابن بسام الى تقديم القاضي لابنه رهينة لدى ابن حمود دون ان يذكر تفاصيل الأمر كما ذكره ابن خميس ، ويقول ان هذا العمل ترك أعمق الاثر في نفوس أهـــل اشبيلية وقوى مركز القاضي ابن عباد لديهم الى حد كبير[2] .

لم يستطع القاسم بن حمود البقاء طويلا في قرطبة ، فقد اضطر بعد بضعة أشهر من قدومه اليها الى تركها اثر ثورة شعبية قامت في المدينـة في الحادي والعشرين من جمادى الآخرة عام ٤١٤ هـ (٩ ايلول ١٠٢٣)[3] وقـد اغلق الاشبيليون أبواب مدينتهم في وجـــه الملك الطريد ورفضوا استقباله هـو وأتباعه من البربر ، فلم يجد القاسم بدا بعد أن فقد الامل في دخول اشبيلية من

---

(١) ابن خميس (أدباء مالقة) صفحة ١٤٤ (مخطوط الرباط) الذخيرة ق ٢ ف.

(٢) الذخيرة ق ٢. ف. القاضي ابو القاسم بن عباد .

(3) Levi - Provençal, H.E.M., T,II, P. 333.

الالتجاء الى رعش ، وهناك هاجمه ابن اخيه واقتاده أسيراً وألقاه في سجن حيث قضى نحبه هناك .

ومن ذلك الوقت ابتدأت تلوح بوضوح مظاهر تبدل سياسي كانت نتيجة لتطور عوامل كثيرة سابقة ، وقد كان لهذا التبدل السياسي نتائجه المهمة في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ...

مملكة اشبيلية المستقلة

إذن فقد أخذت الارستقراطية الاشبيلية زمام السلطة بيديها في المدينة . وتشكل – كما ذكرنا – مجلس يضم أكبر وجهاء المدينة وأوسعهم ثراء لادارة المدينة وتصريف شؤونها . وانتخب القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد والمنسوب الى قبيلة لخم العربية وأغنى أشراف إشبيلية ، اذ يمتلك لوحده ثلث المدينة او ثلثيها(١) ، رئيساً لهذا المجلس(٢) ، وكان المجلس يضم فضلا عن القاضي ابن عباد وجهاء المدينة أبا بكر محمد بن الحسن الزبيدي ، ومحمد ابن يريم الالهاني ، وعبدالله بن علي الهوزني وغيرهم(٣) ... ويذكر ابن عذاري ان المجلس كان يضم القاضي والشخصين الأولين فقط(٤) .

وعلى كل حال فان القاضي ابن عباد لم يأل جهداً في احتكار السلطة لنفسه وتقليص نفوذ زملائه ، بل والتخلص منهم(٥) . وقد استطاع أن يصل الى غرضه هذا بعد جهد غير قليل ، وساعده على ذلك اضطراب الاحوال العامة من جهة وما تيسر له الوسائل ولا سيما ثراؤه الضخم من جهة أخرى ، هذا بالاضافة الى صفاته الشخصية من طموح وذكاء وخبرة ونفوذ بين الناس...

---

(١) الذخيرة . ق٢ . ف ابو القاسم بن عباد .
(٢) البيان المغرب . ج ٣ صفحة ٣١٥ .
(٣) المعجب صفحة ٩٤ .
(٤) البيان المغرب . ج ٣ صفحة ٣١٥ .
(٥) المعجب . صفحة ٩٤ . الذخيرة . ق ٢ . ف القاضي بن عباد .

وعلى ذلك فنستطيع القول إن القاضي أبا القاسم بن عباد كان مؤسس مملكة اشبيلية – في القرن الخامس الهجري – أقوى واكثر ممالك الطوائف ازدهاراً وأصدقها تمثيلا للحضارة الاندلسية في ذلك القرن بمختلف وجوهها ، وكان هو اول ملوك أسرة بني عباد الشهيرة التي شغلت المغرب الاسلامي حوالي ثلاثة ارباع القرن .

وقد كان لظهور مملكة اشبيلية الغنية نسبياً والفتية على المسرح السياسي والعسكري وتطورها ، أهمية كبيرة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لهذه المدينة ؛ ومن الواضح ان الشروط الضرورية للازدهار الأدبي كانت تسير جنباً الى جنب مع التطور السياسي لهذه المملكة حتى وصل قمته بعد استقرار المملكة في أواسط القرن الخامس . ورغم أن التطورين السياسي والأدبي كانا مستمرين دون توقف، فيمكننا مع ذلك اعتبار مجيء المعتمد بن عباد الى عرش اشبيلية عام ٤٦١ هـ (١٠٦٩ م) بداية لدور الاستقرار السياسي وما صاحبه من ازدهار أدبي ملحوظ . وتقسيم عصر بني عباد في اشبيلية من الناحية الأدبية الى هذين القسمين له مبرراته في التطور الذي حدث على الحركة الادبية بعد هذا التاريخ . ولكن ليس معنى ذلك أن مجيء المعتمد الى عرش اشبيلية قد سبب تغيراً مفاجئاً نتج عن تبدل السلطان وانما أخذ هذا التطور الذي كان مستمراً قبل مجيئه شكلا متميزاً قد تكون شخصية المعتمد نفسها لعبت فيه دوراً مهماً الا أنها لم تكن كل أسبابه ولا أهمها على كل حال .

وعلى ذلك فمن الممكن تسهيلا للبحث ، تقسيم التاريخ الادبي لاشبيلية في عهد ملوك بني عباد الى قسمين ، يبتدىء الاول بعام ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) اي منذ استقلال هذه المدينة وينتهي بعام ٤٦١ هـ (١٠٦٩ م) اي بوفاة المعتضد عباد بن عباد ، فهو يشتمل على فترة حكمي القاضي أبي القاسم وابنه المعتضد وهي الفترة التي هيأت للفترة الزاهرة التي تلتها . ويبتديء القسم الثاني بعام ٤٦١ هـ (١٠٦٩ م) أي بمجيء المعتمد الى العرش وينتهي بخلعه عام ٤٨٤ هـ .

ولا شك ان تأثير هذه الفترة يستمر بعدها بزمن غير قليل ، ويمكن اعتبار هذه الفترة ـ على قصرها ـ أخصب فترات تاريخ المسلمين في إسبانية أدباً وانتاجاً وأرفعها فناً شعرياً ونثراً أيضاً. وقد خصص هذا البحث لاستعراض الفترة الاولى وبيـــان الظروف التاريخية السياسية والاجتماعية التي أحاطت بالحركة الادبية واتجاهاتها العامة وأبرز ممثليها وهو عرض لا بد منه لفهم هذا العصر وإدراك طبيعة الاطار التاريخي الذي جرى فيه النشاط الادبي الذي لم تشهد له الاندلس مثيلاً في تاريخها . امـــا الفترة الثانية فقد سبق ان نشرنا حولها دراستين مهمتين ، الاولى عن المعتمد بن عبـــاد والثانيـــة عن محمد بن عمار ولنـــا وطيد الامـــل أن نستطيع مواصلة نشر دراسات أخرى في المستقبل القريب .

القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد :

لم يكن مجيء القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد الى الحكم صدفة حسنة أو سيئة ، وانما كان يمتلك بين يديه كل مـــا يتطلبه تحقيق هـــذا المشروع من أدوات ووسائل .

ورغم أن النسب لم يكن وسيلة مهمة لبلوغ السلطة في ذلـــك العصر، اذ رأينا كثيراً من مغموري النسب بـــل ومن مجهوليه كالمماليك، يتسنمون أرفع المناصب ويصلون الى الحكم ، فقد كان القاضي أبو القاسم بن عباد ينتسب الى أصل عربي نبيل وينتهي الى قبيلة لخم الحميرية المعروفة . وأما أبوه فكان ذا الوزارتين أبا الوليد اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو ابن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم . وكان جده عطاف كما يقول المؤرخون أول من دخل الاندلس في جيش بلج القشيري[1] . وقـد كان اسماعيل بن محمد

(١) البيان المغرب ، ج ٣ ، صفحة ١٩٤ .

الى جانب شهرته في العلوم الدينية ، كما يذكر المؤرخ ابن حيان ، معروفاً بثرائه الواسع الذي كان يبلغ ثلثي كورة اشبيلية ، كما يؤكد أنـــه لم يكن بين رؤساء الاندلس من يوازيـــه في ثروته[1]. لذا فقد كان نفوذه واسعاً جداً في اشبيلية . وقد عينه المنصور ابن أبي عامر قاضياً وحاكماً للمدينة . وعندما جاء المظفر بعد أبيه المنصور الى الحكم عزله من منصبه واستدعاه الى قرطبة وولى مكانه أبا عمرو الباجي ، ولكن يبدو أن استياء الاشبيليين من هـــذا العمل دفع المظفر الى اعادة النظر في قراره وارجاع اسماعيل بن عبـــاد الى منصبه[2] وقد بقي في مركزه هذا حتى توفي عام ٤١٠ هـ (١٠١٩ م) ، وكان على عرش الخلافة في قرطبة آنذاك القاسم بن حمود فولى بعده ابنـــه أبا القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد وخوله جميع سلطات أبيه[3]. وقد رأينا كيف أن أبا القاسم بن عباد كان أول ثائر ضد سلطة القاسم بن حمود عندما سنحت الفرصة الا أن الشيء الذي لا شك فيه أن تولية القاسم بن حمود للقاضي أبي القاسم ابن عباد في اشبيلية لم يكن امتيازاً خاصة تفضل به الخليفة الحمودي على قاضي اشبيلية ، وانما كان نتيجة طبيعية لمركز هذا الأخير ونفوذه الواسع ومنزلته ومنزلة عائلته العـاليتين في مدينته[4] ولا سيما منزلة أبيه الذي مرّ ذكره ، ومظهراً من مظاهر سياسة التهدئة التي اتبعها الخليفة الحمودي . وفضلاً عن ذلك فقد كان أبو القاسم بن عباد يمارس فعلياً سلطات أبيه عندمـــا تقدم به السن وأقعدته الشيخوخة[5].

(١) القاضي عياض ، المدارك ، صفحة ٣٢٠ .
(٢) القاضي عياض ، نفس المصدر .
(٣) المصدر السابق (القاضي عياض ، المدارك) ، النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس صفحة ٩٤ ويذكر ابن عذاري في البيان المغرب ج٣ ، صفحة ١٩٤ ، أن وفاة القاضي اسماعيل بن عباد كانت في عام ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) .
(٤) ابن خلدون ، المقدمة صفحة ٢١ .
(٥) القاضي عياض « المدارك » صفحة ٣٣٠ ، البيان المغرب ج ٣ صفحة ١٩٤ ، النبـاهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، صفحة ٩٤ .

اذن لم يكن مجيء أبي القاسم بن عباد الى الحكم في اشبيلية مفاجأة تبعث على الدهشة والاستغراب ، بل كان نتيجة طبيعية ومنطقية لسير الأحداث ، وكانت ثروته أداة فعالة لا في وصوله الى الحكم فحسب بل في تدعيم سلطانه وتوسيع نفوذه والمحافظة على مركزه ايضاً ؛ فكان اول شيء فعله هو تقويته للوسيلة التي يستعملها في القضاء على اعدائه في الخارج والداخل(١)، ويبدو من بعض ما رواه لنا ابن عذاري من اخبار هذا العصر ان قسماً من جيش ابن عباد كان من العجم(٢). كما كان لمركزه في المدينة لا سيما بعد ان انقذها من البربر اثر في توسيع نفوذه بين الخاصة والعامة .

اما سياسته الداخلية فكانت قائمة على استعمال جميع الوسائل للتخلص من منافسيه بشدة وحزم . وقد نجح في ذلك بفضل صرامته وما تهيأ له من وسائل سبقت الإشارة اليها . فنكل بهم ومزقهم شر ممزق ، فكانت سياسته هذه سبباً في سمعته المعروفة لدى المؤرخين الاندلسيين بشدة الفتك وقوة البطش٣. وقد كان في اضطراب الاوضاع وكثرة المغامرين والمنافسين الطامحين وما احاط بمجيئه الى الحكم من ظروف ما يبرر سياسته هذه .

اما في الخارج فقد كان الخطر الكبير يتأتى من البربر وعلى رأسهم يحيى بن حمود . وقد سبق ان ذكرنا ان القاضي أبا القاسم بن عباد قد رضي بالاعتراف بخلافة يحيى اسمياً فقط على ان لا يدخل هذا الاخير الى شبيلية . ولكن ما كاد حاكم اشبيلية يشعر بنمو قوته وقدرته على الصمود والمقاومة حتى قطع صلته بيحيى واستعد للوقوف في وجهه. ولم يكن البربر يهددون آنذاك اشبيلية فحسب ، بل كانوا اعظم خطر يخشاه الاندلسيون لا سيما بعد ان أصبح لهم خلفاؤهم ونعني بهم بني حمود . لذا فقد كان همهم وفي مقدمتهم الاشبيليون

(١) البيان المغرب ج ٣ ، صفحة ١٩٦ ، الذخيرة ق ٢ ف ، ابو القاسم بن عباد .
(٢) البيان المغرب ج ٣ صفحة ١٨٩ .
(٣) البيان المغرب ج ٣ صفحة ٣١٥ ، الذخيرة ق ٢ ، ف . القاضي ابو القاسم بن عباد .

مقاومة هذا الخطر وايقافه عند حده . وقد أشار جميع المؤرخين الاندلسيين الذين تعرضوا لهذه الفترة الى النزاع الدامي الذي قام بين البربر والقرطبيين(١). ونستطيع أن نقول الآن إن إشبيلية أخذت على عاتقها مهمة الكفاح ضد البربر حالما حصلت على استقلالها بعد أن انتهى دور قرطبة ، وقبل أن يوجه أبو القاسم بن عباد كل جهوده لمحاربة البربر ورئيسهم يحيى بن حمود اضطر الى أن يدخل في معركة حامية مع الأفطس أمير بطليوس قبيل قدوم سنة ٤٢١هـ (١٠٣٠ م) كانت نتيجتها اندحار هذا الأخير وانسحاق جيشه . وقد كان حليف ابن عباد في هذه المعركة محمد بن عبدالله البرزالي أحد أمراء البربر من قبيلة زناتة وحاكم مدينة قرمونة المستقل(٢) . اننا نعرف أن مدينة باجة ضمت الى مملكة إشبيلية في أثناء حكم القاضي ابن عباد ، ولكن ابن عذاري يذكر أن ذلك كان عام ٤٣٢ هـ (١٠٤١م)(٣) . الا ان جميع المؤرخين الذين تحدثوا عن ولاية المعتمد بن عباد حفيد القاضي أبي القاسم ذكروا أن ولادة هذا الأخير كانت في باجة في شهر ربيع الأول من عام ٤٣١ هـ (١٠٤٢م) . فلا بد إذن أن يكون احتلال بني عباد لهذه المدينة كان قبل هذا التاريخ . وقد استطاع ابن الأفطس الانتقام للهزيمة التي مني بها ، فأعد للجيش الاشبيلي كميناً عندما كان عائداً من حملة قام بها في بلاد النصارى ، وكان الجيش بقيادة اسماعيل ابن القاضي ابن عباد ، فأوقع به(٤) .

بقي أمر يحيى بن حمود يقلق بال ابن عباد ، إذ كان لا بد لهذا الأخير أن يتخلص من نفوذه المعنوي ومن خطره الكبير؛ ولكي يحقق القاضي غرضه الأول قام بخطوة جريئة ، إذ دان بالطاعة الاسمية الى خليفة آخر غير يحيى،

(١) انظر على وجه الخصوص ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ،
Levi - Proveçal, H.E.M.T.II, PP. 326 - 337.
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٢ .
(٣) البيان المغرب ، ج ٣ ص ١٩٣ .
(٤) البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٠٣ .

ودعا الأمراء الأندلسيين الى أن يفعلوا مثله . ولم يكن القاضي من الغباء بحيث يبايع خليفة جديداً بعد أن كان قد بايع يحيى الذي لا يزال على قيد الحياة ، فقد ضجر الأندلسيون من تعدد الخلفاء ، لذلك ادعى عام ٤٢٦ هـ (١٠٣٥م) أنه عثر على الخليفة الأموي هشام المؤيد الذي قيل إنه قتل في بداية الفتنة على يد المهدي الثائر ضد بني عامر . ولكن عندما ارتقى سليمان المستعين الى عرش الخلافة وجد أن هشاماً لا يزال حياً فقيل إنه هو الذى قتله ، ولكن قتله لم يكن علناً أمام الناس ، وعلى ذلك فقد ابتدأت الحكايات تنسج حوله فقيل إنه سافر الى المشرق وقيل إنه عاد من الحج الى هذه المدينة او تلك ، وإنه اشتغل في المساجد وباع الحصر ، الى آخر ما يمكن أن تخلق حادثة مثل هذه من أقاصيص[١]. ووجد القاضي ابن عباد في الغموض الذي أحاط بنهاية هشام فرصة نادرة جديرة بأن تنتهز فادعى أنه لا يزال حياً يرزق وأنه عثر عليه في إشبيلية ودعا أمراء الطوائف الى مبايعته . ورغم أن الشك كان كثيراً في ادعاء حاكم اشبيلية فان الأمراء الاندلسيين أرسلوا رسلهم للتأكد من شخصيته . وقيل إنه عرض عليهم في غرفة مظلمة ، وإنه كان شديد الشبه بالخليفة الأموي ، وإن قسماً من جواري القصر القرطبي وعبيده قد شهدوا بأنه هو ، ورغم كل هذه التقولات والشكوك فقد وجد قسم كبير من ملوك الطوائف الفرصة سانحة للتملص من نير بيعة بني حمود التي اضطروا اليها اضطراراً . ويبدو أن أكثرهم اعترفوا ردحاً من الزمن اسميا بالخليفة المقيم في إشبيلية وذكروا اسمه على المنابر ، بل يقال إن احتفالاً رسمياً جرى في جامع قرطبة نفسه بمناسبة رجوع الخليفة الشرعي[٢]. ويقول ابن حماده إن قسماً من الأمراء البربر كحبوس بن زيري ملك غرناطة وابن عبدالله البرازلي حاكم

(١) حول هذا الموضوع انظر : ابن خميس (ادباء مالقة) مخطوط الرباط ص ١٩٧ ، الذخيرة ق ٢ ، ف أبو القاسم بن عباد ، البيان المغرب ، ج ٣ ص ١٨٩ ، المعجب ص ٩٦ .

(٢) ابن خميس ـ أدباء مالقة ـ « مخطوط الرباط » ص ١٩٩ .

قرمونة قد اعترفا هما أيضاً بالخليفة هشام المزعوم ، مما دفع يحيى بن حمود الى الكتابة اليهما محتجاً[١] . ويبدو أن محمد بن عبدالله البرازلي قد اعترف فعلاً بهشام الدعي « كما يسميه بعض المؤرخين الاندلسيين » كما سنرى بعد قليل ، وأما مبايعة حبوس صاحب غرناطة فأمر بعيد الاحتمال لما نعرفه من صداقته الحميمة ليحيى بن حمود وعدائه الشديد لابن عباد . والظاهر مما يرويه المؤرخون أن فريقاً من الناس صدقوا ادعاءات ابن عباد واعتقدوا بها[٢]. بل إن مؤرخاً كابن فياض كان يعتقد هو ايضاً بأن هشاماً هذا ما هو إلا الخليفة هشام بن الحكم نفسه .

وما كاد يحيى بن حمود يرى تفاقم خطر ابن عباد وخطر دعوته للخليفة المزعوم على مركزه المعنوي والمادي المتضعضع في الاندلس ، حتى قرر وضع حد لخطرهما وإزالتها من الوجود ، فدعا الزعماء البربر الى معاونته ولا سيما حبوس بن زيري ملك غرناطة ومحمد بن عبدالله البرزالي أمير قرمونة ، ولكن هذا الأخير الذي يبدو أنه اعترف بهشام أو أنه كان ميالاً للاعتراف به رفض الاستجابة الى هذا النداء ، فقرر الخليفة الحمودي السير أولاً نحو قرمونة وتصفية الحساب معها قبل النهوض الى إشبيلية ، ولم يكن في طاقة محمد البرزالي مقاومة يحيى بن حمود فما كادت تصله أخبار توجهه اليه حتى ترك مدينته وتوجه الى إشبيلية مستجيراً بابن عباد . ومن قرمونة التي احتلها ، أراد يحيى ان يعد العدة لمهاجمة اشبيلية ، ولكن القادة البربر الذين كانوا يصاحبونه رأوا أن تنفيذ مثل هذا القرار يحتاج الى استعداد كبير فاشبيلية مدينة حصينة ، ولا بد أن يحسب حساب الحصار الطويل الذي يجب ضربه حول المدينة قبل احتلالها . ولذلك نصحوه بأن يستعد لذلك في الموسم القادم

(١) نفس المصدر .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٨ .

فوافق يحيى على اقتراحهم وقرر البقاء في قرمونة – بانتظار عـودة جيوشه بعد استعدادها لحصار اشبيلية(١) .

ولم تكن قرمونة تبعد عن إشبيلية أكثر من ثلاثين كيلومتراً(٢) . فكان وجود يحيى بهذا القرب من ابن عباد ، الشغل الشاغل لهذا الأخير ، فبث حول قرمونة العيون التي عادت اليه بأخبار رحيل جيوش يحيى فشرع القاضي ابن عباد بانتهاز الفرصة وإرسال جيش قوي بقيادة ابنه اسماعيل مصحوباً بمحمد ابن عبدالله البرزالي أمير قرمونة الهارب لمفاجأة يحيى ، وقـد نظم اسماعيل بالاتفاق مع محمد البرزالي خطته على أساس جذب يحيى وإغرائه بالخروج من أسوار مدينة قرمونة الحصينة ومهاجمته بعد ذلك بعنف . وفي ليـلة من ليالي محرم عام ٤٢٧ هـ (تشرين الثاني ١٠٣٥) برزت بعض سرايا الاشبيليين أمام اسوار قرمونة بينما اختفى القسم الأكبر من الجيش الاشبيلي خلف التلال المحيطة بالمدينة بعيداً عن نظر المدافعين عنها . ويقـال إن يحيى كان في مجلس أنس مع ندمائه وقد لعبت الخمر برأسه عندما أنبأه حراس الأسوار بأن فرساناً من الاشبيليين ظهروا أمام المدينة محاولين مهاجمتها ، فما كاد يسمع بهذا النبأ حتى قرر الخروج بنفسه لملاقاتهم ، فجمع رجـاله الذين لم يكن يتجاوز عددهم كما يذكر المؤرخون الثلاثمائة ، وانقض على الاشبيليين بما عرف عنه من شجاعة وجرأة ، فـدافع الفرسان الاشبيليون عن أنفسهم منسحبين نحو الكمين الذي أعدوه ؛ وعندما وصلوا اليه هجم الجيش الاشبيلي برمته على يحيى ورجاله من جميع الجهات ، ورغم التباين الكبير في العدد فقد كانت المعركة عنيفة جداً أبدى فيها ابن حمود شجاعة فائقة ، إلا أن عسكره الصغير سحق تحت وطأة عدد الاشبيليين الكبير وجرأة وإصرار إسماعيل بن عباد قائدهم ، وقتل يحيى نفسه وحز رأسه وأرسل الى إشبيلية . ويقال إنه عندما وصل رأس يحيى

(١) ابن خميس « ادباء مالقة » مخطوط الرباط صفحة ٢٠٠ .
Levi - provençal, La Péninsul Ibérique, P. 190

وأخبار النصر الى القاضي ابن عبـاد في إشبيلية خر ساجداً يشكر الله على هذا الظفر الرائع غير المتوقع . ولم يكن فرح القرطبيين وغيرهم من الاندلسيين الذين كان يحيى يعكر عليهم صفو حياتهم ويهددهم باستمرار ، بأقل من فرح الاشبيليين بمصرع الخليفة الحمودي(١). لقـد كان فقدان يحيي خسارة كبيرة للبربر ، إذ فقدوا بموته رئيساً قوياً قادراً على لمّ شملهم وجمع شتاتهم ، فلجأت قبيلة صنهاجة الى غرناطة واستقرت فيها برئاسة حبوس بن ماكسن بن زيري، وانتشرت قبيلة زناتـة في الحصون المستقلة المتفرقة في الجنوب الغربي من الاندلس حتى اكتسحها العباديون .

اطمأن ملوك الطوائف ولا سيما العباديون على وجود دويلاتهم واستقروا بعض الاستقرار، ولو أن العداء بين بني عباد وبربر غرناطة بقي مستمراً ولكنه لم يكن على أية حال خطراً كبيراً يهدد احدهما بالقضاء المبرم والانهيار التام. فقد حاول حبوس بعد مرور فترة من الوقت على مصرع يحيى أن يهاجم إشبيلية في ذي القعدة من عام ٤٢٧ (تموز ١٠٣٦ م) على رأس جيش من البربر الصنهاجيين والزناتيين ، ولكنه اضطر الى العودة من حيث أتى دون أن يحصل على نتائج ذات بال(٢) .

وكان من آثار موت يحيى أيضاً أن بعض ملوك الطوائف ومنهم أبو الحزم ابن جهور أمير قرطبة أنكر بيعة هشام الدعيّ . وعبثاً حاول ابن عبـاد أن يثني ابن جهور عن قراره ، فأرسل حملة بقيادة ابنه اسماعيل عاثت بأطراف قرطبة وضواحيها ، ولكنها عادت دون جدوى ، بل إنهـا تعرضت لهجوم مباغت قام به باديس بن حبوس بن زيري الذي خلف أباه على ملك غرناطة، قتل أثناءه قائد الجيش الاشبيلي اسماعيل بن عبـاد ابن القاضي وولي عهده

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٨ .
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩١ .

وكان ذلك في عام ٤٣١هـ (١٠٣٩ م)(١)، فعين أبو القاسم بن عبـــاد مكانه ابنه عباد .

وفي التاسع والعشرين من جمادى الاول عام ٤٣٣ هـ (٢٤ كانون الثاني سنة ١٠٤٢ م) توفي القاضي ابن عباد تاركاً لخلفه أبي عمرو عباد مملكة – وان كانت صغيرة – لكنها مستقرة وقائمة على أسس متينة لحد غير قليل .

أبو عمرو عباد المعتضد بالله

ارتقى ابو عمرو عباد بن القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد عرش إشبيلية في اليوم الأول من جمادى الآخرة من عام ٤٣٣ هـ (٢٥ كانون الثاني ١٠٤٢م)، باسم المعتضد بالله ، وعمره حين تولى مقاليد الحكم ستة وعشرون عاماً ، اذ كان قد ولد في السابع والعشرين من صفر عام ٤٠٧هـ (٤ آب ١٠١٦م)(٢). طموح وجريء وقاس جداً ، تلك هي الصفات الرئيسية لهذا الملك . لقد كان مطمعه الأول توسيع رقعة مملكته بعد أن ضمن له أبوه لحد كبير الاستقرار الداخلي النسبي . كان يحتاج الى كثير من الحرص والحذر . فقد تركت سياسة القاضي القاسية تجاه منافسيه جروحاً عميقة في نفوس كثير من أشراف أشبيلية. فكانت هناك دون شك عناصر غير قليلة تختفي منتظرة فرصة ملائمه للانقضاض على بني عباد . ولكن المعتضد سد جميع السبل امام هذه العناصر ؛ فقد كان شديد القسوة مع كل من يلمس منه عداء ، بل وكل من يبعث في نفسه ريبة وشكاً ، فلم يكن أحد من وزرائه وخاصته المقربين اليه مطمئناً على نفسه أو ضامناً لحياته من غضب السلطان . بل إن المعتضد قتل ابنه إسماعيل بيـده حين اكتشف مؤامرة قام بها إسماعيل ضده(٣) . ولكي يخيف اعداءه ويرعبهم

(١) الحلة السيراء ، ف المعتضد ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ص ١٨٠ .
(٢) الحلة السيراء ، ف. المعتضد .
(٣) الذخيرة . ق ٣ . ف. ابن عبد البر .

فقد صنع امام داره حديقة ملأها من رؤوس ضحاياه من الامراء والوزراء بينهم عدد غير قليل من وزرائه وخواصه(١).

ولم تكن قسوته تجاه أعدائه في الخارج بأقل منها تجاه أعدائه الداخليين؛ فقد استعمل جميع ما قدر عليه من وسائل الدهاء والمكر والقوة والمفاوضة ليحقق غرضه في القضاء عليهم وتوسيع رقعة مملكته ومد سلطانه . وقد نجح نتيجة جهوده هذه في بسط نفوذه على جنوب غربي الاندلس ، ومــلأ قلوب جميع ملوك الطوائف الاندلسيين بالرعب والفزع .

فبعد احتلاله «مارتـله» التي يحكمها ابن طيفور(٢) دخل المعتضد في نزاع دام مع المظفر بن الافطس ملك بطليوس ، الذي قدم مساعدته لابن يحيى أمير ولبة الذي هاجمه المعتضد . وقد دام هذا النزاع أمداً ليس بالقصير استطاع الملك الاشبيلي فيه أن يستنفد قوى خصمه ويسحق عدداً غـير قليل من جنوده ، ويستولي على قسم من حصونه ، حتى اضطر ابن الافطس في ربيع الاول من عام ٤٤٣ هـ (حزيران ١٠٥١ م) ان يعقد هدنة مع المعتضد متجنباً حشر نفسه في المستقبل بينه وبين خصومه(٣).

وحوالي هـذه المدة (٤٤٣هـ (١٠٥١ – ١٠٥٢م) اضطر محمد بن سعيد ابن هارون بعد نزاع شاق أن يترك للملك الاشبيلي مدينته شنتمرية الغرب وما حولها من الحصون التي كانت خاضعة له ؛ وفعـل مثله عز الدولة عبد العزيز البكري الذي تخـلى للمعتضد عن شلطيش(٤) . وفي عـام ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ – ١٠٥٤م) احتل الاشبيليون لبلة التي كان يحكمها بنو يحصب(٥)،

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف. المعتضد .
(٢) البيان المغرب ج ٣ ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .
(٣) الذخيرة ، ق ٢ ف. المعتضد ؛ البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ .
(٤) البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٤١ .
(٥) البيان المغرب ، ج ٣ ص ٣٠١ .

ثم دخلوا بعد معركة عنيفة مدينة شلب المهمة في جنوب غربي الاندلس[1] .

ولما انتهى المعتضد من هذه المنطقة ولى وجهه شطر أمراء البربر المنتشرين في جنوب إشبيلية وجنوبها الشرقي ، فانتزع عام ٤٥١هـ (١٠٥٩م) الجزيرة الخضراء وهي المنطقة المطلة على مضيق جبل طارق ، من القاسم بن محمد بن حمود[2] .

وقبل أن يظهر الملك الاشبيلي نياته العدائية تجاه أمراء البربر ، قام بعمل جريء حار في وصفه المؤرخون ، فقد دعا أمراء الحصون المستقلة المحيطة باشبيلية الى مأدبة فخمة في إشبيلية . ويقول ابن عذاري إن عددهم كان مائتين ، بينهم محمد بن نوح الدمري حاكم حصن مورور ، وابن خزرون حاكم أركش وابن أبي قرة حاكم مدينة رندة ، وقبل أن يستطيعوا العودة ، أصدر أوامره بالقبض عليهم وإلقائهم في السجن ثم قتلهم جميعاً عدا ابن أبي قرة[3] الذي كان له عليه فضل سابق . وقيل إن المعتضد قضى عليهم جميعاً بادخالهم الى حمام ساخن وبنائه لبابه فبقوا فيه الى أن قضوا اختناقاً .

ولكن قضاءه على هؤلاء الأمراء ، رغم أنه سهل مهمة المعتضد لم يسمح له بالاستيلاء على ما كان في أيديهم الا بعد معارك طاحنة خاضها مع خلفائهم دامت مدة طويلة . ففي عام ٤٥٧ هـ (١٠٦٥م) استطاع ان يضم مدينة رندة الحصينة الى مملكته إثر ثورة داخلية قامت فيها . وفي عام ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) وافق حاكم مورور عماد الدولة مناد بن نوح الدمري بعد مقاومة طويلة عنيدة أن ينزل للمعتضد عن إمارته على أن يقضي ما بقي من حياته في

(١) البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٩٧ .
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٣ Dozy, his. mus., T.III, P.237
(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٥ .

أمن وسلام باشبيلية[1] ، وفي عام ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) وافق المستظهر أمير قرمونة على التخلي عن مدينته بعد مقاومة فاشلة للملك العبادي[2] . وقبل أن يتوفى المعتضد استطاع تصفية حسابه مع القاسم بن محمد بن خزرون فقهر مدينته الحصينة أركش بعد أن كان قد احتل كل ممتلكاته خارج أسوارها إثر مؤامرة دبرها متفقاً مع قسم من وجهاء المدينة[3] . وكان من نتيجة ذلك كله ان انضمت الى مملكة اشبيلية جميع القلاع والحصون المحيطة بها والتي كانت تابعة لهؤلاء الأمراء .

وهكذا استطاع المعتضد أن يكون لخليفته قبل وفاته مملكة واسعة نسبياً قوية الدعائم متينة البنيان ، مستقرة في الداخل مهيبة الجانب في الخارج ومما يدل على قوة نفوذها في الأندلس هو أن أكثر ملوك الطوائف اضطروا لأن يعترفوا بخلافة هشام المزعوم القائم في إشبيلية والذي كان المعتضد يدعي أنه حاجبه ، فكان اسمه يذكر في صلاة الجمعة في أكثر جوامع الاندلس . ويقول ابن حيان إن ابن هود أمير مقاطعة سرقسطة وعبد العزيز ابن أبي عامر أمير بلنسية وابن صمادح حاكم المرية ، وابن الافطس أمير بطليوس ، وحتى ابن ذي النون امير طليطلة ، كلهم قد اعترفوا بهشام ، هذا عدا الأمراء الصغار الذين كان بينهم بعض الأمراء البربر كأسحاق بن محمد البرزالي وابن نوح ، وابن خزرون الخ ... الذين فعلوا نفس ما فعله الآخرون[4] . ولكن في عام ٤٤٥ هـ (١٠٦٣ م) أعلن المعتضد أن الخليفة هشام المزعوم كان قد توفي منذ عام ٤٣٦ هـ (١٠٤٤م) ، وأنه أخفى موته لأسباب تتعلق بأمن الدولة . ومن العسير طبعاً ان ندرك الحقيقة عن مصير هشام هذا ، ولكن ما نستطيع

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٦ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٩٤ .
(٣) نفس المصدر .
(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٩ .

قوله هو أن المعتضد وطد دعائم مملكته ولم يجد بعد حاجة في البحث عن أساس شرعي لسلطته ، أو أنه لم يعد يرى جدوى في هذا الادعاء ، فقرر إنهاء هذه القصة ووضع حد لها . صحيح ان العدو الرئيسي للمعتضد وهم بربر غرناطة وعلى رأسهم باديس بن حبوس بن زيري لا يزالون يتربصون به الدوائر ، إلا ان كل محاولاتهم للنيل منه قد فشلت ، في الوقت الذي نجح هو في أن يوجه اليهم ضربات قاصمة وينتزع من باديس كل حلفائه من الأمراء البربر باستيلائه على حصونهم وقلاعهم ومقاطعاتهم . وقد حاول الملك الاشبيلي عام ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م)(١) الاستيلاء على مدينة مالقة المهمة الواقعة في جنوب شبه الجزيرة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تابعة لمملكة غرناطة ، فأرسل اليها جيشاً بقيادة ابنه الامير محمد « المعتمد » ، ولكن محاولته هذه فشلت(٢) . على أن ذلك لا يمنعنا من القول إن المعتضد قد واصل مهمة الكفاح ضد البربر التي بدأ بها أبوه ، وانه نجح في القضاء على خطرهم الذي استفحل في أوائل القرن الخامس الهجري وهدد جميع المدن الأندلسية .

ولكن عدواً جديداً بدأ ينمو في زمن المعتضد ، أكثر خطراً بكثير من سابقه على كيان هذه الدويلات الصغيرة ، بل على كيان الاسلام كله في اسبانيا ، عدواً متنامياً تزداد قوته وكفاءته باستمرار وتدفعه معنوية عالية . ولم يكن خطر هذا العدو كبيراً جداً في زمن المعتضد ، ولكن بوادر أهميته وخطره كانت واضحة بينة . وسنرى أنه سيصبح الشبح المرعب الذي يقض مضاجع ملوك الطوائف في الأندلس ، ونعني بهذا العدو مسيحيي الشمال .

لقد حدث عام (١٠٥٥م) تغير مهم جداً لدى المسيحيين في الشمال ، فقد اتجه فردناند الاول بعد ان نجح في توحيد مملكتي ليون وقشتالة (كاستيليا) وهما أقوى مملكتين مسيحيتين في شمال إسبانية تحت سلطانه أقول اتجه الى

(١) عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار ص ١٦٨ .
(٢) حول هذا الموضوع انظر : صلاح خالص : المعتمد بن عباد

الجنوب ووجد الفراغ اللازم للتعرض للمسلمين ، وبعد ان احتل بعض القلاع والحصون أجبر ملوك سرقسطة وطليطلة وبطليوس على ان يدفعوا له إتاوات سنوية يأمنون بها شره ويتقون غاراته(١) .

وفي عام (١٠٦٣) أرسل فردناند الاول عساكره الى المقاطعات المحيطة بإشبيلية فأحرقت القرى ودمرت المزارع . ومع أن المعتضد كان بلا شك أقوى ملوك الاندلس المسلمين ، فانه اعتقد أن من الحكمة ان يحذو حذو الملوك المسلمين الذين سبقوه ، فقدم الهدايا النفيسة الى فردناند وعقد معه معاهدة تعهد بموجبها بدفع إتاوة سنوية كما فعل غيره من الأمراء المسلمين وسمح للمسيحيين بنقل رفات القديس أوغست من إشبيلية ، فترك فردناند مملكة إشبيلية وولى وجهه شطر مناطق أخرى ، فاحتل قبرة ، وأجبر المسلمين القاطنين بين نهري دويرو وموديكو على الجلاء عن مساكنهم . ثم انطلق نحو بلنسية وضرب حولها الحصار ، ولكنه مات أثناء ذلك ، فانسحبت جيوشه وعادت من حيث اتت(٢) .

ومما يبعث على الدهشة والاستغراب أن يذكر في سبب وفاة المعتضد، هذا الملك القاسي السفاك ، صاحب حديقة الرؤوس ، والذي كان يقتل لأدنى شبهة ، أقول مما يبعث على الدهشة والاستغراب أن يقال إن سبب وفاته كان موت ابنة صغيرة له ، حزن على فقدها حزناً شديداً حتى أدركه الموت بعد وفاتها بأربعة أيام .

(١) Dozy, Mus. Esp.. T III, p. 74 ; Pedal, Espana del Cid,T.I, P135
(٢) Dozy, Mus. Esp., T III, P. 75.

الفصل الثالث

الحياة الأَدبية في إشبيلية
بين عامي ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) و ٤٦١ هـ (١٠٦٩ م)

لم تكن وسائل دراسة الأدب وتعلمه آنذاك ، بعيدة عن متناول أيدي كثير من الناس ، ممن ينتمون الى طبقات اجتماعية مختلفة ؛ فالمساجد ، وهي مراكز التعليم والثقافة الدينية والأدبية بدرجاتها المختلفة ، كانت مفتوحة أمام جميع من يسمح لهم الوقت بالتردد عليها ، مهما كانت طبقتهم ومنزلتهم الاجتماعية . ولكن الشيء الذي لا شك فيه أن الفرص لم تكن متكافئة بين جميع أبناء طبقات المجتمع الأندلسي المختلفة ، سواء أكان ذلك في ميدان الثقافة العامة ، أو فيما يختص منها بالأدب والشعر على وجه الخصوص . فقد سبق أن ذكرنا أن الفرد الأرستقراطي ، عدا الامكانيات الاقتصادية المتوفرة لديه كان يعيش في جو يختلف كثيراً عن ذلك الذي يعيش فيه ابن العامة. ولهذا الاختلاف دوره الهام في النشاط الأدبي لكل منهما . فالأديب الارستقراطي مثلاً يجد في المحيط الذي يعيش فيه كثيراً من عناصر الغذاء الأدبي الذي يحتاجه ويوجهه في اتجاه خاص . ولكل طبقة من الطبقات الأخرى مؤثراتها الخاصة التي تدفع بأدبائها الى التوجه في هذا الطريق دون ذاك .

أدب الأرستقراطية

كانت الارستقراطية الأندلسية ، كما سبق أن ذكرنا هي التي احتضنت الحضارة الاسلامية ، وعلى وجه الخصوص اللغة العربية، التي وجدت في الوسط الارستقراطي مرتعاً خصباً تنمو وتزدهر فيه . وقد رأينا أن هنالك أسباباً تاريخية وسياسية هي التي دفعت الأرستقراطية الأندلسية الى اتخاذ مثل هذا

الموقف وتبني اللغة العربية والأدب العربي[١] . لذا كان أبناء هذه الطبقة يترعرعون منذ الطفولة في وسط ملائم يستطيعون فيه تعلم هذه اللغة في شكلها الاكثر نقاء ، وتتهيأ لهم الفرص لاستيعاب تاريخ الأدب العربي والاطلاع على مراحل تطوره المختلفة ، أكثر بكثير من تهيؤها لأبناء الطبقات الأخرى. إننا نستطيع أن نقول في الواقع إن الظروف المحيطة بالأرستقراطية الاشبيلية آنذاك كانت ملائمة جداً لتوجيه أبنائها الى مزاولة الأدب ومزاولة نظم الشعر بلغة عربية سليمة كتلك التي استعملها أبناء المشرق العربي .

ولم يكن الشعر لدى الأوساط الأرستقراطية مجرد مظهر من مظاهر ارتفاع المستوى الثقافي والتعمق في دراسة الأدب بل كان حاجة نفسية وعاطفية ماسة تتطلبها حياة هذه الطبقة . فقد كانت الفنون وجميع وسائل المتعة واللهو كالشعر والموسيقى والغناء والرقص والزخرفة والعمارة تكون جزءاً رئيسياً من حياة أصحاب الثراء في ذلك العهد . ويبدو من استعراض حياة ذلك العصر أن من صفات الرجل النموذجي لدى الأرستقراطيين كانت مقدرته على كتابة رسالة بليغة ونظم الشعر في وصف الخمر ومجالس الأنس والأزهار ، والتغزل بالجواري والغلمان وغير ذلك مما تتطلبه الحياة ، اذا ما اقتضت المناسبات ذلك . إلا أن الشيء الذي لا شك فيه هو أن الرغبة في نظم الشعر بل وحتى المقدرة على نظمه ، لا تعني مطلقاً ضرورة وجود الكفاءة الادبية ، فهناك عوامل كثيرة تتعلق بحياة الشاعر بنفسه أو بظروفه الخاصة والعامة تلعب دورها في إنماء هذه الكفاءة أو القضاء عليها . وقد رأينا كثيراً من الشعراء المتمكنين من ناحية النظم والمتقنين لقواعد اللغة لم يستطيعوا النجاح في ارتقاء سلم المجد الأدبي وإثارة إعجاب القراء او السامعين والوصول الى مصاف الشعراء.

وبناء على ما مر ، فان من الطبيعي أن لا يكون النشاط الأدبي في

(١) انظر موضوع : الارستقراطية والثقافة ، فيما تقدم .

الاوساط الأرستقراطية الأندلسية قد بدأ باستقلال هذه المدينة ، بل كان له وجود واضح قبل هذا التاريخ وأن هذا الاستقلال كان ذا أثر في تطور هذا النشاط كما سنرى بعد قليل ، إذن فقد كان في إشبيلية حركة أدبية قبل الاستقلال ، ولكن هذه الحركة لم تخرج عن حدودها ولم يتسن لها الاشتهار ، وقد لا يكون مبعث ذلك قلة أهمية الحركة نفسها ، بقدر عدم اهتمام مؤرخي الأدب بها لأنها لم تكن تتصل مباشرة بالحكم القائم . وقد كانت جميع موضوعات هذا الشعر كما ذكرنا سابقاً مستوحاة من الحياة التي يحياها هؤلاء الناس ومن ظروفهم المحيطة بهم .

وكان أول أثر من آثار استقلال إشبيلية هو أن الأرستقراطية في هذه المدينة استقلت وأصبح لها رئيسها الخاص الذي التفت حوله ، وقد نتج عن هذا الاستقلال نتيجتان كان لهما أثرهما العميق في الأدب . الأولى ، هي أن استقلال اشبيلية السياسي أثر في زيادة الرفاه الاقتصادي. وكان للأرستقراطية ولا سيما العائلة الحاكمة النصيب الأوفر من هذا الرفاه . والثانية نشوء مركز أرستقراطي جديد أكثر أهمية من الاوساط الأرستقراطية التي سبقت الاستقلال والذي تمثلت فيه ، بل وتجسمت الفعاليات التي تكتفي بها الحياة الارستقراطية ولا سيما الفعاليات الأدبية ، ونعني به بلاط ملوك بني عباد .

ومن الطبيعي أن يشدد وجود البلاط الملكي الباذخ من شدة الفعاليات الأدبية في الوسط الارستقراطي وأن يخلق جواً مناسباً لتطور بعض التيارات الأدبية لا بين الارستقراطيين فحسب ، بل وفي الطبقات الأخرى أيضاً ، كما سنرى ذلك في حينه .

لقد أشرنا فيما سبق الى الموضوعات الأدبية الرئيسية التي توحيها الحياة الأرستقراطية وها نحن الآن نحاول أن نتلمس مدى تأثر الادباء بهذه الاغراض وتمثيلهم لها فيما أنتجوه من أدب في هذا الوسط .

ومن المؤسف أن لا تكون لدينا معلومات كثيرة عن هذا الموضوع خلا ما

يتعلق بحياة البلاط، نظراً لما سبق أن ذكرناه من اهتمام المؤرخين به،ومع ذلك فان المعلومات القليلة التي قدمها لنـــا مؤرخو الآداب الأندلسية ولا سيما ابن بسام ، تدل بوضوح على وجود حركة أدبية أرستقراطية ذات شأن كبير[1] .

بنو عباد والشعر :

وتقدم لنا أسرة بني عباد مثلا واضحا جداً للدور الذي يمكن أن تقوم به أسرة ارستقراطية في الحياة الأدبية، وللأهمية التي يحتلها الأدب وعلى وجه الخصوص الشعر في حياتها . ومن المؤكد أن التقاليد العلمية التي توارثتها هذه الأسرة ساعدت على إحلال الأدب لديها هذا المحل وإعطائه هذه الأهمية .

فقد كان القاضي أبو القاسم بن محمد بن اسماعيل بن عباد يزاول نظم الشعر، ويقدم لنا ابن بسام[2] في كتابه جملة مما نظمه من مقطوعات قصيرة ؛ وفعل مثله ابن خاقان[3] وابن الأبار[4] والحميري[5] وغيره من مؤرخي الأدب. وجلّ هذه المقطوعات الصغيرة في وصف الازهار والحدائق أو في الفخر والحماسة ، ولكنها على وجه العموم لا تلفت نظر ناقد الادب الحديث ولا تستثير إعجابه وكل ما يمكن ان تشير اليه هو مقدرة القاضي ابن عبـــاد على النظم وتعلقه بالشعر، كما تقدم لنا نماذج للموضوعات التي يعالجها شعراء هذه الطبقة. ولنقدم مثلا من هذا الانتاج ؛ يقول القاضي في وصف الياسمين[6] :

وياسمين حسن المنظر	يفوق في المرأى وفي المخبر
كأنه من فوق أغصانـــه	دراهم في مطرف أخضر

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق ٢ .
(٢) الذخيرة ق ٢ ف. ابو القاسم بن عباد .
(٣) ابن خاقان ، مطمح الانفس ومسرح التأنس .
(٤) الحلة السيراء ، ف. القاضي ابن عباد .
(٥) البديع في وصف الربيع .
(٦) الذخيرة ق ٢ ، ف، القاضي ابن عباد ؛ دوزي ، بنو عباد ج ٢ ص ٢٣ .

وقال في وصف الياسمين ايضاً[1] :

يا حبذا الياسمين إذ يزهرْ	فوق غصون رطيبة نضّرْ
قد امتطى للجمال ذروته	فوق بساط من سندس أخضر
كأنه والعيون ترمقه	زمرّد في خـــلاله جوهر

وقال يصف زهر الظيّان[2] :

ترى ناضر الظيّان فوق غصونه	إذا هو من ماء السحائب يغتذي
وحفّت به أوراقـه في رياضه	وقد 'قدّ' بعض مثل بعض وقد حذي
كصفر من الياقوت يلمعن بالضحى	منضدة من فوق قضب الزمرّذ

وإن كان في هذه الابيات ما يستلفت النظر ، فهو على وجـــه الخصوص استيحاء الشاعر لكل افكاره ومعانيه وتشبيهاته من محيطه الباذخ الذي عاش فيه ، فالرياض الغناء والسندس الاخضر والزمرد والجوهر ومـــا شابه ذلك موارد يستلهم منها الشاعر الصور والأفـكار .

وقال وقد اشتد به الحنين الى غائب[3] :

أدار النوى كم طاب فيك تلذذي	وكم عقتني عن دار أهيف أغيدِ
حلفت به لو قـد تعرض دونه	كماة الاعادي في النسيـج المسرّد
لجرّدت للضرب المهند فانقضى	مرادي ، وعزماً مثل حد المهنّد

وعلى كل حال ، فهذه الابيات وأمثالهـا لا تسوغ لنـا وضع القاضي في مصاف الشعراء .

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف. القاضي ابن عباد .
(٢) الذخيرة ق ٢ ، ف. القاضي ابو القاسم بن عباد ، دوزي ، بنو عباد ، ج ٢ ص ٢٣
(١) دوزي ، بنو عباد ج ٢ ص ٢٣ ، الفتح بن خاقان ، مطمح الانفس ، ص ١٦ .

المعتضد الشاعر :

اما ابنه المعتضد فقد كان أطول منه باعاً في صناعة النظم وأكثر تمكناً من سبك القريض ، كما يذكر جلّ المؤرخين ، وكما تدل على ذلك البقية الباقية من شعره . ويذكر ابن خميس وابن بسام أن له ديواناً من الشعر يحوي ستين ورقة جمعه ورتبه ابن أخيه اسماعيل[1] ، ولكنه مع الأسف الشديد لم يصل الى أيدينا فنطلع عليه ، إلا أن ما ورد في كتت تاريخ الادب من قطع شعرية متناثرة له يمكن ان تعطينا فكرة واضحة عن مكانته الادبية ومنزلته بين شعراء العصر .

والمعتضد كغيره من شعراء الارستقراطية يستجيب لحاجاته النفسية وما تتطلبه حياته الخاصة حينما ينظم ما ينظم من شعر وما يبدع من قصيد . فهو لا يتكلف ويتصنع لارضاء آخرين من ذوي النفوذ عليه والتأثير في حياته ، اللهم إلا ان يكون هو نفسه راغباً في ذلك كما كان يفعل حين يكتب لأبيه القاضي في أثناء حياته أو كتلك المقطوعات التي بعث بها الى والد زوجته الموفق أبي الجيش أمير دانية .

ولدينا مما كتبه لأبيه قصيدة مهمة تستحق الالتفات لما فيها من أفكار وعواطف تعكس موقف الأمير من أبيه الحاكم من جهة ، ولمتانة أسلوبها وقوة سبكها اللذين يعطياننا مثلاً من قوة المعتضد الشاعر على صناعة القصيد من جهة أخرى . ويبدو أن الأمير نظم هذه القصيدة إثر أزمة عنيفة حدثت له مع أبيه اضطرته الى تركه والابتعاد عنه بل وربما الهجرة عن اشبيلية ، ثم استدعاه أبوه بعد ذلك فكتب هذه الأبيات يصف فيها موقفه، والقصيدة كما سنرى حافلة بمشاعر صادقة وإخلاص ظاهر يبين خلال السطور ، يقول في مطلعها مادحاً كما يتطلب واجب البنوة والتبعية :

---

(١) ابن خميس ، ادباء مالقة (مخطوط الرباط) ؛ الذخيرة ق ٢ ، ف. المعتضد .

بالا يا ملكاً يرتجى ويهاب ... وبحراً له في المكرمات عباب
ومولى عدى . . . ... يصوب بها من راحتيه سحاب
اطعتك في سري وجهري جاهداً ... فلم يك لي إلاّ الملام ثواب

وفي هذا البيت الأخير نرى عتاباً رقيقاً واحتجاجاً هادئاً حاول به الشاعر تسويغ تركه لأبيه، كما يبدو من الأبيات التالية، وهو ترك لم يكن له منه بد ، فقد كان كل ما حوله يضطره اليه :

ولما كبا جدي اليك ولم يسغ ... لنفسي على سوء المقام شراب
وقل اصطباري حين لا لي عندكم ... من العطف الا قسوة وتباب
فررت بنفسي أبتغي فرجة لها ... على أن حلو العيش بعدك صاب

فهو إذن لم يكن راضياً عن هذا الفراق الذي اضطر اليه اضطراراً ، فما كاد يأتي رسول أبيه حتى استجاب له :

وما هزني إلا رسولك داعياً ... فقلت أمير المؤمنين مجابُ

ويصف عودته بعد ذلك واستجابته لدعوة أمير المؤمنين، الذي ربما يقصد به الخليفة هشام المزعوم الذي تحدثنا عنه ، فنحن نعرف أن المعتضد قد عين حاجباً في أثناء حياة أبيه ، ومع ذلك فيبدو أن الأزمة كانت شديدة بين الأمير وأبيه ، وأن تأثر الأمير بهذه الأزمة كان عميقاً لحد صمم معه على عدم العودة كما يزعم ، ولكن حبه لأبيه قد غلبه على امره :

وما كنت بعد البين الا موطناً ... بعزمي على أن لا يكون إياب
ولكنك الدنيا اليّ حبيبة ... فما عنك لي إلا إليك ذهاب

أما هذا الخلاف العنيف فقد كان، كما يظهر في الأبيات الأخيرة في القصيدة، يرجع الى تباين في الطباع ومخالفة في السلوك ، وربما كان إسراف الأمير

وبذخه مما اغاظ والده الحريص وأثار تأثره ، فأسرف في لومـه وأمعن في التقتير عليه حتى اضطره الى تركه، لذا فهو يعتب على أبيه لهذه المعاملة القاسية ويعرب له عن رأيه الصريح في صحة سلوكه وسلامته ويطلب اليه أن يخفف من لومه ، فلا يسرف فيه ، فكل ما يفعله إنما هو لمصلحته وجـذب قلوب الناس اليه :

وفضلك في ترك الملام فأنه وحقك في قلبي ظبا وحراب
اذا كانت النعمى تكدر بالأذى فما هي إلا محنة وعذاب
ولا تقبضن بالمنع كفي فأنه ـ وجدك ـ نقض للعلا وخراب
فوالله ما أبغي بذلك غير أن تحلى بجدوى راحتيك رقاب
ويهدي اليك الناس دون تصنع محبة صدق لم يشبه كذاب
فكل نوال لي اليك انتسابه وأنت عليه بالثناء مثاب

إذن فقد كان الخلاف بين الأمير وأبيه خلافاً في أسلوب معاملة الناس ، وفي القيم التي يجب أن يتمسك بها تجاههم .

والقصيدة كما نرى رغم سهولة ألفاظها ، ورقة تعبيرها ، متماسكة البناء قوية التعبير عن مشاعر الأديب وعن مقاصده .

ومن أدب الرسائل الشعرية لدينا أيضاً قصائد ارسلها للموفق أبي الجيش الذي تزوج المعتضد ابنته ، وهي مقطوعات في المديح ، يفتتحها بالغزل فمطلع احداها (١) :

ما خلد ....

ومطلع الثانية (٢) :

أترى اللقاء كما نحب يوفق فنظل نصبح بالسرور ونغبق

(١) ديوان ابن زيدون ، ص ٣٧٣
(٢) نفس المصدر ، والحلة (٢ : ٤٧ تحقيق الدكتور مونس)

ومطلع الثالثة (١) :

عرفت عرف الصباء اذ هبّ عاطره من أفـق من أنا في قلبي أشاطره

وهي مقطوعة جميلة يقول فيها :

أراد تجديد ذكراه على عجل وما تيقن أني الدهر ذاكره
ينأى المزار به والدار دانية يا حبذا الفأل لو صحت زواجره
ذخري أبا الجيش هل يقضي اللقاء لنا فيشتفي منك جفن أنت ناظره

والرسائل الشعرية تحتل عموماً جزءاً مهماً من أدب تلك الفترة، فقد كانت عادة التراسل بالشعر منتشرة في الوسط الارستقراطي ، بل كان من أخلاق ذلك العصر أن يجاب الشعر بالشعر حتى ان أحد الأمراء غضب لأنه بعث لشاعر جائزة مع أبيات لم يجبه عليها فقال في ذلك :

قل لمن قد جمع العلم وما أحصى صوابه
كان في الصرة شعر فتنظرنا جوابه
قد أثبناك فهلا جلب الشعر ثوابه

وعدا هذا الضرب من الشعر ، فقد عالج المعتضد موضوعات أخرى تتصل بحياته سواء منها الخاصة أو العامة ، وأهم هذه الموضوعات الفخر والغزل ؛ فقد غلب على أكثر ما لدينا من شعره ، وهما موضوعان منتزعان دون شك من حياة الشاعر وينقلان لنا باخلاص بعض النواحي المهمة من تفكيره وشعوره .

فأما الفخر فقد رسم لنا المعتضد خلاله شخصيته كما يتصورها هو أو كما يريدها ان تكون ، فمن ثنايا ذلك نستطيع ان نرى نفسيته بأعمق خطوطها

(١) ديوان ابن زيدون ص ٣٧٤ والحلة ٢ : ٤٧

وأوضح ألوانها ، والا أفيمكن ان يصور لنا مؤرخ طموح المعتضد ومدى اعتداده بنفسه كما وصفه هو نفسه حين يقول (١) :

هذي السعادة قد قامت على قدم	وقد خلقت لها في مجلس الكرم
فان أردت – الهي – بالورى حسناً	ملكتني لزمام الدهر والأمم
اقارع –الدهر– عنهم كل ذي كلب	واطرد –الدهر– منهم كل ذي عدم

فهو يريد من الله ان يملكه لزمام الدهر والأمم ، لانه خليق بهذه المنزلة بل لأنها من حقه ، ولم لا وهو يعتقد انه يمتلك كل ما يؤهله لذلك ، أليس هو كما يقول عن نفسه في إحدى مقطوعاته (٢) :

أطلت فخار المجد بالبيض والسمر	وقصرت أعمار العداة على قسر
ووسعت سبل الجود طبعاً وصنعة	لأشياء في العلياء ضاق بها صدري
فلا مجد للانسان ما كان ضده	يشاركه في الدهر بالنهي والأمر

وفي مقطوعة أخرى (٣) :

أقوم على الأيام خير مقام	وأوقد في الاعداء شر ضرام
وأنفق في كسب المحامد مهجتي	ولو كان في الذكر الجميل حمامي
وأبلغ من دنياي أنفس سؤلها	وأضرب في كل العلا بسهام
اذا فضح الأملاك نقص فانه	يبينه عند الأنام تمامي

وامثال هذه المقطوعات متعددة في شعره ، ونستطيع في الواقع أن نرى خلال الأبيات التي وصف فيها أخلاقه وصفاته صورة للشخصية الارستقراطية النموذجية كما تفهمها وتريدها تلك الطبقة آنذاك تبعاً لمقاييسها في الحياة ،

(١) ديوان ابن زيدون ص ٣٧٣ والحلة ٢ : ٤٥
(٢) ديوان ابن زيدون ص ٣٧٦ والحلة ٢ : ٤٣
(٣) ديوان ابن زيدون ص ٣٧٠ والحلة ٢ : ٤٤

والتي يلاحظ انها لا تنسجم مع المقاييس الدينية أو مقاييس الاخلاقيين من الفقهاء والعلماء، والا فأين هو من العفة والتقوى والتواضع والتمسك بأهداب الدين التي يتطلبها الوعاظ والمرشدون والمتشبثون بتعاليم القرآن وأحكامه حين يقول (١) :

لعمرك إني بالمدامة قوّال	وإني لما يهوى الندامى لفعال
وإني للخلّ الخليل لناعشٌ	وإني للقِتل المناوي لقتال
قسمت زماني بين كد وراحة	فللرأي أسحار وللطيب آصال
فأمسي على اللذات واللهو عاكفاً	وأضحي بساحات الرياسة أختال
ولست على الادمان أغفل بغيتي	من المجد إني في المعالي لمحتال
إذا نام أقوام عن المجد ضلة	أسهد عيني أن تنام بي الحال
وإن راق أقواماً من الناس منطق	يروق، بدا مني مقال وأفعال

فهو اذن رجل يجتمع فيه النقيضان ، الاسراف في اللهو والتمتع من جهة، وشدة العزم في اكتساب المجد وبلوغ العلا من الجهة الأخرى . هذه هي صفات الارستقراطي الاندلسي النموذجية ، فهو حين يسمر الندمان وتتقارع الكؤوس يكون أكثرهم إمعاناً في التمتع وأبعدهم إيغالاً في مسالك الأنس ، اما اذا جد الجد فهو في مقدمة الساعين جرأة وشجاعة وإقداماً (٢) :

زهر الأسنة في الهيجا غدت زهري	غرست اشجارها مستجزل الثمر
ما إن ذكرت لها في معرك جلل	الا تجللته بالصارم الذكر
حتى لصرت وأعدائي تخاطبني	يا قاتل الناس بالأجناد والفكر

وصفة اخرى أكثر المعتضد من ذكرها في شعره لانها يجب ان تتوفر في

(١) ديوان ابن زيدون ص ٣٧٠ والحلة ٢:٤٥ .
(٢) ديوان ابن زيدون صفحة ٣٧١ والحلة ٢:٤٦.

الانسان الكامل كما يتصوره هو وكما يتصوره معاصروه ، وهي صفة الكرم والبذل والسخاء ، لنستمع اليه حين يقول(١) :

لقد بسط الله المكارم من كفي	فلست على العلات منها أخا كف
تمادي بيوت المال من فرط بذلها	يميني قد اسرفتِ ظالمتي كفي
لعمرك ما الاسراف فيّ طبيعة	ولكن طبع البخل عندي كالحتف

ومثل ذلك كثير في شعره .

ولا نريد أن نطيل كثيراً في هذا الجانب من شعر المعتضد رغم أهميته، إلا ان ما قدمناه من ابيات يمكن ان تكون امثلة واضحة على هـــذه الناحية من نفس المعتضد وعلى مقدرته على التعبير عنها .

ولكن حياة المعتضد حافلة بمشاغل اخرى غير ما ذكرناه ، وهذه المشاغل كانت تثير عواطفه ومشاعره لانها تكون جزءاً مهماً من حياته ، ولا سيما ما يتعلق منها بحياته الخاصة، كوصف النساء والخمر ومجالس الانس . واذا اعتمدنا على ما لدينا من اشعار ، فيبدو أن النساء كن يلعبن دوراً مهماً في حياته وفي عواطفه، بل ويظهر انه عالج موضوع الحب اكثر من معالجة أي موضوع آخر وأكثر من أي شاعر آخر من شعراء عصره ، اذا ما أخذنا بنظر الاعتبـــار نسبة شعر الغزل الى ما لدينا من بقية شعره .

والحب الذي كان يعبر عنه هذا الملك كان نموذجـــاً لحب الارستقراطي الاندلسي كما سبق ان صورناه في فصل سابق ، ذلك الحب الذي يجلب المتعة واللذة ويهيىء للرجل ضروباً من الانس ، اما الآلام والاحزان التي يسببهـــا الهجر والفراق ويثيرها البعد عن الحبيب والحواجز بين المحبين فلا نكاد نجد لها

(١) ديوان ابن زيدون ص٣٧٠ والحلة٢ : ٤٤ .

أثراً عميقاً في نفسه ، وهذا امر طبيعي ، فلم يكن الملك ليقاسي آلام الحب وتحت متناول يده مئات الجواري الحسان جلبن له من كل حـــدب وصوب ، وأية امرأة هذه التي تستعصي عليه بهجرها وهو الآمر الناهي صاحب الحـــل والعقد. وإن تعرض المعتضد الى وصف آلامه فهي آلام سطحية تقليدية فيها من المتعة اكثر مما فيها من شقاء ، وهي نوع من عبث المحبين أكثر منها أحزاناً عميقة وآلاماً متأصلة . لنمعن النظر في أبياته التالية لنتلمس هذه الناحية من حياته العاطفية والشكل الذي ظهرت به(١) :

رعى الله من يصلى فؤادي بحبـــه	سعيراً وعيني منه في جنة الخـــلد
غزالية العينـــين شمسية السنا	كثيبية الردفين ، غصنية القـــد
شكوت اليها حبهـــا بمدامعي	وأعلمتها ما قد لقيت من الوجـــد
فصادف قلبي قلبها – وهو سالم –	فأعدى وذو الشوق المبرح قد يعدي
فجادت – وما كادت – علي بخدها	وقد ينبع المـــاء النمير من الصلد
فقلت لها : هـــاتي ثناياك إنني	أفضـــل نوار الأقاحي على الورد
وميلي على جسمي بجسمك فانثنت	تعيد الذي أملت منهـــا كما تبدي
عناقاً ولثماً أوريا الشوق بيننـــا	– فرادى ومثنى – كالشرار من الزند
فيا ساعة – ما كان أقصر وقتها	لدي – تقضت غير مذمومة العهـــد

وكيف يمكن أن يكون حب الملك الاشبيلي وهو الباذخ المترف إن لم يكن كذلك !! أما هذه الدموع التي يتحدث عنها وآلام الحب التي يقاسيها فهي ليست آلام الحرمان ودموع الهجران، وإنما آلام من نوع خاص هي سر متعة الحب ولذته ، كما يبدو واضحاً في قول المعتضد نفسه في أبيات(٢):

(١) ديوان ابن زيدون صفحة ٣٧٢ والحلة ٢ : ٤٧ .
(٢) ديوان ابن زيدون صفحة ٣٧٢ .

ينـــادون قلبي والغرام يجيب ... وللقلب – في حين النداء – وجيب
مشوق دعاهالشوق والوجد والهوى ... يجيب نــــداء الحب وهو يجيب
يقاسي فؤادي الوجد والحب واصل ... فكيف تراه ان جفـــاه حبيب !
إذا أخطأ الاحباب ترتيب حالهم ... فإن فؤادي دائمـــاً ليصيب
علـيم بأسرار الغرام لأنـــه ... بصـــير بأدواء الحسان طبيب
يواصلن سراً ثم يصرفن ظـــاهراً ... وذلـــك من أفعالهن عجيب

فهؤلاء اللاتي يحبهن الشاعر لم يعذبنه بالبعاد والهجران وإنما كن قريبـات منه واصلات لعهده، ومع ذلك فهو يقاسي عنت الوجد وآلام الجوى،فكيف به اذا كن قاطعات هاجرات ! ، إنه لا يستطيع ان يتصور هـذا النوع من الآلام لأنه لم يذقها ، رغم انه كثير الصلة بالنساء عارف بأسرارهن . وهؤلاء النساء وإن تظاهرن بالتمنع وتصنعن الصد ، فإنهن يستجبن لرغباته ويرتمين في احضانه وهو يظهر العجب من ذلك، كأن المحبين جميعاً مثله وكأن النساء كلهن مثل حبيباته .

وان رأينا في قسم من أبيات المعتضد حرقة وألماً في قوله[1] :

غصن من التبر فوقه ورق ... كأنه الصبح تحتـــه شفق
يا أبدع النـــاس في محاسنه ... رق على من أذابــــه الأرق
مددت كفي رجاء رأفتكم ... لا تتركوني ينالـــني الفرق
بحر دموعي مغرّق جسدي ... تداركوا مهجـــتي وبي رمق

فمـا ذلك إلا لأنه لا يتصور الحب دون وجد شديد ووله عميق ، بل انه كان ، كما يقول متحدثاً عن الحب ، في شوق ووجد دائمـــين ، يملكان عليه نفسه ويكويان فؤاده ، فحياته كلها شوق الى المرأة ووجد بها ، حتى وان

(١) ديوان ابن زيدون صفحة٣٧٥ .

تمتع بها وحظي بقربها ، استمع اليه يقول شارحاً معنى الحب[1] :

يا جاهل الحب إن الحب ذو سند ... مهما أخبر
أيجهل الحب من أضحت به حرق ... تـكاد من حرها الاحشاء تتقـــد
الله يعـــلم أني شيّق أبـــداً ... لا ينقضي الشوق حتى ينقضي الأبد
إن يشرب الجسم برد الوصل منتعشاً ... يهدي اليه فؤادي حر ما يجـــد

فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا المؤرخين يبالغون في حب المعتضد للنساء ، حتى ان ابن الأبار ليذكر انه افتض ثمانمائة بكر[2] .

وعدا المرأة التي كانت تلعب دوراً مهماً في حياة الشاعر الخاصة ، فإن مجالس الانس والخمر كانت تمثل هي ايضاً جانباً آخر منها لم يعدم تأثيرها في شعره وان كان ما وصلنا مما قاله في هذا الموضوع قليل نادر كقوله :

وليل أدمنا فيه شرب مدامة ... الى ان بدا للصبح في الليل تأثير
وجاءت نجوم الصبح تضرب في الدجى ... فولت نجوم الليل والليل مقهور
فحزنا من اللذات طيّب طيبهـــا ... ولم يعدنا هم ولا عـــاق تكدير
خلا أنه – لو طال – دامت مسرة ... ولكن ليالي الوصل فيهن تقصير

وواضح أن ما يرد في هذا النوع من الشعر من معاني وافكار وصور مستوحاة كلها من الحياة الباذخة المترفة التي كان يحياها الاغنياء الموسرون وممثلة لجزء مهم جداً من موضوعات الشعراء الارستقراطيين .

يبدو مما مر أن شعر المعتضد كله مستوحى من حيـــاته في موضوعاته وأفكاره ، وفي شكله أيضاً ؛ إذ تلوح فيه على وجه العموم الرقة الاندلسية

(١) ديوان ابن زيدون صفحة ٣٧٣ .
(٢) الحلة السيراء ، ٢ : ٤٣ .

التي تصل عنده الى درجة كبيرة من البساطة واليسر حتى تقترب من الهلهلة والضعف أحياناً . كما يبدو واضحاً أن المعتضد لا يلجأ للتعبير عن عواطفه وأفكاره الى الصور المعقدة والتشابيه المركبة ، بل يتوجه عموماً دون التواء الى التعبير عن أغراضه ومقاصده ، وسبب ذلك كما أعتقد أن ما يريد أن يعبر عنه من عواطف ومشاعر وأفكار ليس ملتوياً شديد التعقيد ، بل تغلب عليه البساطة والوضوح ، ولسنا نستطيع ان نتطلب من الشاعر أن يعبر عن اكثر مما يشعر به ويصور لنا أعمق مما يحسه .

نستطيع أن نقول اعتماداً على ما مر من شعر المعتضد إنه كان يملك كثيراً من مقومات الشاعر ، وإن من القليل الذي نقله لنا المؤرخون ما يدل على ذلك ، ولكن الحكم على الشاعر استناداً على هذا العدد القليل من مقطوعاته الشعرية أمر قد يكون فيه تجن على الشاعر وشعره .

ولا بد أن نشير الى أن المعتضد كان معجباً بشعره كل الاعجاب ، ويذكر ابن بسام انه حين نظم قصيدته الرندية ، أعجب بها أشد الاعجاب وأخذ الناس بحفظها وروايتها(١) ، والقصيدة الرندية هذه تبدو ضئيلة القيمة الأدبية ، لا تستحق كل هذا التقدير والاهتمام مطلقاً(٢) :

لقد حُصِّلْتِ يا رنده   فصرت لملكنا عِقده
أفادتناك أرماح   واسياف لها حده

ولعل اهم ما فيها اعتداد المعتضد بنفسه واتساع طموحه اذ يقول فيها :

سأفني مدة الاعداء   ان طالت بي المده
وتُبلى بي ضلالتهم   ليزداد الهدى جده

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف المعتضد ؛ دوزي ، بنو عباد جـ ٢ : ٢٧٤ .
(٢) نفس المصدر .

فكم من عدة قتّلْـ   ـت منهم بعدها عده
نظمت رؤوسهم عقدا   فحلَّت لبَّةَ السُّده

وبقي علينا ان نتطرق الى ناحية أخرى من دور المعتضد في الحياة الأدبية لذلك العصر ، بل نستطيع أن نقول إنها أكثر أهمية في الحركة الأدبية من اهميته شاعراً ، ونعني بها تشجيعه للشعر واحتضانه للشعراء . وقد كانت العوامل التي دفعته الى ذلك كثيرة متعددة ، فبالاضافة الى ثقافته الأدبية الواسعة التي جعلت منه ناقداً قديراً للشعر وهاوياً من هواته ، فقد كان المعتضد واسع المطامح ، كثير الاعتداد بنفسه ، بل لا نعدو الحق إذا قلنا إنه كان معجباً بها كل الأعجاب ، لذا فقد كان يطرب للمديح ويهتز للشعر ، فشجع الشعراء على الالتفاف حوله والاطناب في الإشادة بمآثره وتخليد اعماله وتمجيد فتوحاته وانتصاراته ؛ وكان لهذا الموقف من الملك الشاعر أثره في جذب عدد كبير من الشعراء من الطبقات الوسطى والعامة ممن يتكسب بشعره أو يتقرب من السلطات ، الى بلاط الملك ونظمهم القصائد الطويلة في مدحه فلفتوا بذلك أنظار مؤرخي الأدب وكان لهم حظ في وصول بعض أخبارهم وشعرهم الينا. ويذكر المؤرخون أن المعتضد كان له ديوان خاص بالشعراء يجري لهم فيه رزقاً .

* * *

وفضلاً عن أسرة بني عباد فقد كانت العوائل الأرستقراطية الاخرى في إشبيلية تضم بين أبنائها أعداداً تختلف قلة وكثرة من الأفراد الذين يمارسون الأدب ويعنون به . وتعطينا أسرة بني عباد نموذجاً واضحاً لمدى اهتمام هذه الاسر بالأدب والتعلق بالشعر ، لقد كان جميع أمرائها تقريباً ينظمون الشعر

ويعنون بالقريض ويجالـون الأدباء والشعراء ويتابعون النشاط الادبي بشغف واهتمام ولدينا أمثلة أخرى تعتبر قليلة اذا ما قورنت بالعدد الهائل من الأدباء الذين كانوا في تلك الفترة .

وأهم ما يميز هؤلاء الشعراء الأغنياء من الناحيـة الأدبية أنهم لم يكونوا يستعملون الشعر وسيلة للتكسب والعيش ، إذ لم يكن لديهم سوى ملهـاة وتسلية ، واذا ما وجدنا عندهم أبيـاتاً في مدح الملك أو بنيه فما ذلك الا الاعراب عن تعلقهم بالسلطة الحاكمة واتقاء لشرها ، ومع ذلك فهم لا يفعلون ذلك الا قليلاً . هـذا الى أن قصائدهم على وجه العموم مستوحاة من حياتهم الباذخة ، فقد كانت مشاغلهم نادراً ما تتجاوز حياتهم المترفة في القصور كمجالس الأنس والشراب والزهور والنساء والغلمان ، الا اذا كان ذلـك في وصف أمر يتعلق بحياتهم أو مدح مجاملة للأمير .

وهؤلاء الشعراء هم مجموعـة من الشخصيات التي تنتمي الى الأسر الكبيرة الاشبيلية . وكانوا يكونون خاصة القاضي أبي القاسم وحاشيته المقربـين حتى اذا توفي القاضي التفوا حول ابنه المعتضد . وكانت علاقاتهم بالقاضي على وجه الخصوص تتسم بالصداقة اكثر منها بالتبعية والخضوع . ولعل أهم الأدباء الذين وصلتنا اسماؤهم وقسم من انتاجهم هم : أبو عامر بن مسلمة وأبو جعفر بن الابار وأبو بكر بن القوطية وأبو الوليد اسماعيل بن عامر الحميري ، كما نستطيع أن نلحق بهم أدباء آخرين ليس لدينا من انتاجهم الأدبي سوى أبيات قليلة متفرقة في كتب تاريخ الأدب كأبي بكر بن نصر وأبي الاصبغ بن عبد العزيز وأبي الوليد بن العثماني وأبي الاصبغ بن خيرة الصباغ وأبي الاصبغ بن سيد وأحمد البلمي وأبي الحسن بن عـلي . وسنقـدم في الصفحات التالية عرضاً سريعاً لأهم ما وصلنا من أخبار وإنتاج أبي عامر بن مسلمة وشيئاً ممـا نعرفه من أخبار أبي جعفر بن الابار وأبي بكر بن القوطية وأبي الوليد الحميري ، مما

يمكن أن يكون نموذجاً واضحاً لشعراء هـذه الطبقة واتجاهاتهم الأدبية وطريقة نظمهم للشعر .

أبو عامر بن مسلمة :

هو الوزير أبو عامر بن مسلمة ، شخصية غنية ، تنتمي الى عائـلة من أشهر العوائل الأرستقراطية في إشبيلية[1] . وقد سكن قرطبة في أواخر عهد الخلافة ، إلا أنه عاد الى إشبيلية بعد استقلالها في زمن القاضي أبي القاسم بن عباد [2] ، وليس كما يقول ابن بسام في أثناء حكم المعتضد [3] . وكانت الثروة التي يمتلكها في إشبيلية كافية لكي تيسر له العيش المرفه الرغيـد[4] . ويبدو أن علاقاتـه بالقاضي أبي القاسم بن عباد كانت علاقة ود وصداقـة ، فالمعلومات التي نستخلصها مما ذكره مؤلف كتاب « البديع في وصف الربيع » كلهـا تترك لدينا مثل هذا الانطباع . أما علاقاته بالمعتضد فيبدو وأنها كانت ذات صبغة رسمية وأنها أقل وثوقاً من تلك التي كانت مع والده . فقسوة المعتضد تجـاه الأرستقراطية الأشبيلية التي كان يشك دائماً في تآمرها ضد سلطانه ، دفعت أبا عامر الى الابتعاد عن البلاط والاكتفاء بحياته المريحة الباذخة التي كانت تهيئها له ثروته الكبيرة [5] . ومع ذلك فقد كان عليه لكي يتجنب كل ريبة أن يحتفظ دائماً بعلاقات طيبة مع السلطـان ، وكان عليه أيضاً أن ينظم بين آن وآخر أبياتاً في مدح الملك أو أن يذكر اسمه على الأقل في نهاية مقطوعاتـه الشعرية التي يصف فيها الربيع والأزهار والخمر ، لكي يبرهن على إخلاصـه للملك وولائه للسلطان ، بل إنه حين ألف كتابه الموسوم بـ «حديقة الارتياح

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف . ابو عامر بن مسلمة .
(٢) البديع في وصف الربيع ، ص ٨ ، ٣٨ ، ٨٣ ، ... الخ .
(٣) الذخيرة ، ق ٢ ، ف . ابو عامر بن مسلمة .
(٤) نفس المصدر .
(٥) » » »

في وصف حقيقة الراح » والذي جمع فيه مقطوعات مختـــارة مما قاله شعراء عصره في الخمر ، فانه أهداه الى المعتضد (١). ويبدو أن هذا الكتاب كان يجمع – استناداً على ما اختاره منه ابن بسام في ذخيرته – نصوصاً ذات قيمة أدبية ، منتخبة مما قاله الشعراء الأندلسيون ولا سيما شعراء عصره ، وكان يضم على وجه الخصوص ، قسماً كبيراً من قصائد المؤلف نفسه ومن مراسلاتـه الشعرية مع شعراء وشخصيات عصره .

واذا أردنا أن نعرف أبا عامر استناداً على ما لدينا من شعره فانه يبدو لنا نموذجاً ممثلا للأرستقراطية البعيدة عن الحكم ومشاغله . فقد كان على هذه الأرستقراطية لأسباب مختلفة أن تعتزل الحياة العامة وتنطوي في عالمها الخاص الذي تهيئه لها ثرواتها الكبيرة ،وهو عالم مليء بالجمال والنساء والحسان والغلمان والحدائق والزهور والخمر، عالم يستطيع أن يجد فيه الشاعر كثيراً من مصادر الالهام . واذا وضعنا جانباً أبياتاً متفرقة هنا وهناك تتحدث عن المعتضد فلا شيء في هذه المقطوعات يتحدث عن العالم الخارجي . فقـــد ذكر ابن بسام قطعاً جميلة من إنتاج أبي عامر الأدبي تعالج موضوعات أوحاها الى الشاعر عالمه الخاص الذي انطوى فيه على نفسه كما هو حال فريق من الأغنياء الذين اختاروا مثل حياته ، كما يذكر مؤلف كتاب « البديع في صف الربيع » ابو الوليد الحميري عدداً من المقطوعات الشعرية في وصف مختلف أنواع الزهور ، تجعل من أبي عامر بن مسلمة شاعراً مبرزاً في هذا الميـدان من ميادين الشعر الأندلسي وها هي ذي مختارات من شعره يمكن أن تكون نماذج صالحة لاسلوب أبي عامر بن مسلمة في نظم الشعر وطريقة معالجته لموضوعاته المختلفة . قال في وصف ساعة من ساعات أنسه ولهوه، وما أكثرها في حياة مثل حياته :(٢) .

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف . ابو عامر بن مسلمة .
(٢) المصدر نفسه .

ومهفهف غض الشباب منعم … فيه أطرت الى الجماح جناحي
قد جاء يخطر بالمدام فقلت : لا … إني هجرت تعاطي الاقداح
لا تسقني راح الكؤوس وسقني … سحر العيون يقم مقام الراح
فأقام لي من لحظه ورضابـه … راحا وقـام الخد بالتفاح
وظللت في ليلي بأسنى غرة … أغنت عن المصباح والاصباح

وكتب الىصديقه ابن الأبار يصف غلاماً(١):

قـل لأبي جعفر المنتقى … من سر قحطان وخولان
أنظر الى الظبي الأنيق الذي … يختـال في أبراد إحسان
كأنما مقلته بابـل … حفت بسحر الأنس والجان
كأنما شاربه بهجـة … زمرد من فوق مرجان
كأنمـا أردافه عالج … وقـده غصن من البان

وقد قدم لنا كل من ابن بسام وأبي الوليد الحميري ، ولا سيما الاخير – في كتابيهما نماذج متعددة مما قاله أبو عامر في وصف الربيع والزهور منها قوله في وصف الربيع(٢)،وقد ألحق بأبياته هذه مدحاً لاسماعيـل بن المعتضد وولي عهده ، الذي تمرد ضد أبيه فعاقبه بالقتل في عام ٤٥٠ ه :

أهلا وسهلا بوفود الربيع … وثغره البسام عند الطلوع
كأنمـا أنواره حـلة … من وشي صنعاء السري الرفيع
أحبب بـه من زائر زاهر … دعا الى اللهو فكنت السميع
بث على الأرض درانيكه … فكل ما تبصر منها بديع
كأنما الحاجب ذو المن والاحسان … اسماعيل مولى الجميع

(١) نفس المصدر .
(٢) الذخيرة ، ق ٢ ، ف. ابو عامر بن مسلمة ؛ البديع ، ص ١٦ .

أهـدى اليه طيب أخلاقـه   فنحن منها دهرنا في ربيـع
لا زال يبقى سالماً ما دعت   قمرية في فـنن ذي فروع

فالشاعر يحب الطبيعة ويحب الربيع والزهور لأنها المسرح الذي يرتع فيه ويلهو ويقضي ساعات الأنس التي تكون جزءاً مهماً من حياته الخاصة .

وقال يصف البهار والبنفسج[١] :

قـدم البهار مـع البنفسج فاشربن عليهما   بـين الرياض الغضه
هذا كمعشوق وعاشقة وذا   مثل الحزين دموعه مرفضه
وترى البهـار كأنه ياقوتة   صفراء تحملهـا أكف بضه
قد سترت حذر الرقيب معاصماً   بمطارف خضر وأبدت فضه
وجرى النضار بها فحسّن حالها   كمثال معشوق تشكى مرضه
وكأن ذاك بخدها وبنحرها   عند العيان لنا بقايا عضه

وقوله « كأن ذاك » يشير الى البنفسج ، إذ بَعُدَ ذكره لاشتغاله بوصف البهار .

أترى كيف يبعث الشاعر في الزهور الحياة ويعطيها صفات البشر فهي تشعر وتتحرك وتفرح وتبتئس وتحس بكل ما يحس به الانسان !.. وانظر الى احساس الشاعر بالألوان ومحاولته رسم صورة مركبة مليئة بالحركة والحياة حين يقول [٢] :

وروضة مشرقـة   بكل نور مجتنى
فيهـا بهار باهر   ونرجس يشكو الضنى
وياسمين أرضه   ونوره تـلونا
كالليل مخضراً ولكـن   بالنجوم زينا

(١) البديع، ص ٣٨.
(٢) المصدر نفسه .

فاجتنِ ورداً وارداً   وسوسنا ملسنا
وحـوله نيلوفر   فتنـة ران ان رنا
تخاله مضارباً   من المها تروقنـا
والآسُ آسٍ كاسمه   بنوره قد حسنا
تنويره جواهر   من غير بحر تقتنى
وحبه من سبج   أو سندس قد لونا
وقد بدا فيهـا البنفسج الندي الغض الجنى
وأرضه مطارف   خضر أتتنا بالمنى

ثم يختم قصيدته هذه بمدح ذي الوزارتين القاضي أبي القاسم بن عباد :

طابت بطيب ماجد   فاق سناء وسنا
ذاك ابن عباد عمـا   دي وسراجي في الدنا
فهو يثير الحق والعد   ل ويحيي السننا
ونوره مسك فتيت   حسنه يفتننا
قـاض بنشر عدله   طابت لنا أزمننـا
لا زال يبقى ما علا   قمري أيك فننـا

ولا شك ان القارىء يلاحظ مدى إرهاق الشاعر لأبياته بالزخرفة البديعية والبيانية وتعلقه بالجناس والطباق وما شاكلها . وقال في تفضيل البهـار على النرجس[١] :

ونرجس هبَّ يرنو   بمقلة ليس تطرف
مثـل النجوم تساقطن   في رداء مفـوف
يحكي البهـار ولكن   بهـارنا منه أصلف

(١) البديع صفحة ٨٢ .

له فضيلة سبق   لغيره ليس تعرف
فعج عليه ، فدتك النفوس واشرب لتظرف

وهنا أيضاً يجد الشاعر أن جمال الازهار يكمله الشرب والانس والتمتع . وهو يؤكد هذا المعنى حين يقول واصفاً «الخيري»(١):

أصفر الخيري عندي   أرفع الخيري قدرا
فهو لا يمنع عرفا   وهو لا يحميك عطرا
مثل لون الذهب الخا   لص لكن فاق نشرا
وغدا يحكي اليواقيت   اذا ما كنّ صفرا
مثله استوجب مني   أبداً شكراً وسكرا

فإذا كانت الزهور جميلة رائعة فذلك أحرى بأن يشرب الشاعر بينها حتى يسكر ؛ وقال ابو عامر في وصف البهار(٢):

قد جاءنا رائد الربيع   بمنظر رائق بديع
هو البهار الذي تعالى   وجل في حسنه الرفيع
كأنه مقلة تشكى   الى الحيا قلة الهجوع
أو كف كافورة قد أوصت   بكأس تبر الى الربيع
او شعلة النار وسط ماء   جسد في ثوبه النصوع

وانظر الى هذا الوصف للسوسن الذي انتزع كل صوره من حياته المترفة(٣):

وسوسن راق مرآه ومخبره   وجل في أعين النظار منظره
كأنه أكؤس البلور قد صنعت   مسدسات تعالى الله مظهره

(١) البديع صفحة ٨٣ .
(٢) البديع صفحة ١٠١ .
(٣) البديع صفحة ١٣٤ .

وبينها ألسن قد طرفت ذهبا   من بينها قائم بالملك تؤثره
كأنه حرف ميم في تعطفه   مداده ذوب عقيان يصفره

وقل مثل ذلك عن قوله في وصف السوسن ايضاً(١):

ألا حبذا السوسن الازرق   ويا حبذا حسنه المونق
حكى لونه لون فيروزج   جرى وسطه ذهب مشرق

وقوله في وصف النيلوفر(٢):

يا حبذا النيلوفر الطالع   ومجتلاه الناظر الناصع
كأنه مخزنة من مهى   في وسطها زمرد ساطع
وحوله ألسنة ستة   من فضة أتقنها صانع
كل لسان أبيض ناصع   والطرف منه أصفر فاقع
قام على خضراء من سوقه   فكل ابريق له راكع

ويختمها بمدح ابن عباد قائلاً :

ركوعَ املاك الورى للذي   نداه دان والحيا شاسع
ذاك ابن عباد سليل العلا   الحاجب المرتفع الرافع
دام دوام الدهر في عزّه   تبقى ويفنى الحاسد الخاضع

وانظر الى حياته الباذخة كلها يعرضها باختصار في هذه الأبيات(٣):

يا نديمي قم أصطبح   وعلى العود فاقترح
إنما العيش بالسما   ع وبالناي والقدح

(١) البديع صفحة ١٣٩ .
(٢) البديع صفحة ١٤٣ .
(٣) البديع صفحة ١٥٢ .

وتأمـل حسن الشقا ئق تنشط الى المرح
مثـل كأس العقيق في قاعـة المسك يلتمح

هذه نماذج كافية لشعر أبي عامر بن مسلمة، ويكاد يشابهه في شكله ومحتواه شعر أبناء طبقته ممن سبقت الإشارة إليهم والذين لم يصلنا من إنتاجهم سوى نتف متناثرة في كتب تاريخ الأدب . أما عن القيمة الفنية لانتـاج أبي عامر ، فإن من العسير الحكم عليها دون اعتبار الفترة التي عاش فيها والأوساط التي قدم لها نتاجه ؛ فقد سبق ان ذكرنا رأينا في اوصاف الزهور في الادب الأندلسي عموماً ، وحكمنا العام ذاك قد ينطبق على ما نظمه أبو عامر في هذا الموضوع . على أننا يجب أن نشير الى طلاوة اسلوب الشاعر ورقة تعابيره التي قد تصل الى حد الضعف. ولكن ما يضعف أحياناً الشعور الفني ويشوه الصور الشعرية ، هي الصنعة التي تثقل عباراته وتؤثر في اختياره لمفرداته ، ولا سيما طريقة استعماله للتشبيهات والاستعارات والتعبيرات المجازية، فكثيراً ما يضيع الشعور المتدفق والاحساس العميق في غمرة التعابير المتكلفة الفارغة . وعلى كل حال فان الانطباع الذي يتكون لدينا تبعاً لمقاييسنا الفنية الحاضرة ، يجب أن لا يجعلنا ننسى أن أبا عامر بن مسلمة كان متمكناً من ناحية النظم قادراً على الصياغة الشعرية ، ولا شك أن له إحساسه الفني المرهف في اختياره للألفاظ والتعابير .ونثر ابي عامر يتصف عموماً بما يتصف به شعره من خواص ومميزات

وكانت نهاية هـذا الشاعر محزنة ، فيذكر ابن خاقان ان المعتضد أراد التخلص منه ، فوجد أبو عامر يوماً ما غريقاً في أحد أحواض القصر ، دون ان تعرف بوضوح أسباب موته[1].ولا نستطيع اعتماداً على ما لدينا من اخبار تحديد تاريخ وفاته،وكل ما نستطيع قوله انه كان بعد عام ٤٤١ هـ (١٠٤٩م)، فقد قام الشاعر في هذا العام بدور الوسيط بين ابن زيدون والمعتضد.

(١) ابن خاقان ، المطمح ، ص ٢٣ .

إبو جعفر ابن الأبار :

وفي نفس هذه الفترة وفي الوسط نفسه الذي عاش فيه أبو عامر بن مسلمة ظهر شاعر إشبيلي آخر يستحق الاهتمام، وهو أبو جعفر أحمد بن محمد الخولاني المعروف بابن الأبار . ورغم أن ما نعرفه عن حياة هذا الاديب لا يكاديذكر، فان الاشارات القليلة الواردة في كتب تأريخ الأدب تشير الى انه كان يحيا تقريباً نفس الحياة التي كان يعيشها أبو عامر بن مسلمة ، ومحاطاً بنفس الظروف التي أحاطت بهذا الاخير . وواضح أن ابن الأبار كان صديقاً حميماً لأبي عامر ، فقد حفظت لنا كتب تاريـخ الادب بعض رسائلهما الشعرية الودية التي كانا يتبادلانها[1] . وقد كان لأبيجعفر بن الأبار منزلة كبيرةلدى القاضي أبيالقاسم ابن عباد، فقد كانت تربطهما علاقات صداقة وطيدة[2] . ورغم أن ابن الأبار لم يكن يبدو بحاجة الى استعمال شعره للحصول على العيش نظراً لانتمائه الىطبقة سرية ، فإنه كان مضطراً الى ان يقدم من حين لآخر للسلطان او لابنه بعض المدائح التي تحفظ له مكاناً قريباً منهما وتؤكد إخلاصه وولاءه في عصر كانت فيه أقل بوادر الشك كفيلة بان تقود من تحوم حوله الى الهلاك . وقد استمر الشاعر في نشاطه الأدبي في زمن حـكم المعتضد بن عباد،فكان من أبرز شعراء هذه الفترة. وكما كان يعيش أبو عامر بن مسلمة وغيره من الاغنياء البعيدين عن السلطة ، كان ابن الأبار كذلك يعيش في عالم خاص بعيد عن حيـاة الناس ومشاكلهم، خلقته له ظروف حياته الميسرة، وقد عرض لنا صوراً من هـذا العالم الخاص فيما وصلنا من اشعاره ونتاجه .

وما بين ايدينا من هذا النتاج قليل لا يتجاوز بضع مقطوعات قدمها إلينا ابن بسام في فصل خاص خصصه للشاعر في القسم الثاني من ذخيرته ، بينهـا

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف. ابو جعفر بن الأبار .
(٢) البديع ، صفحة ٤٢ .

قصيدة في مدح اسماعيل بن المعتضد[1] . وخمس عشرة مقطوعة شعرية في وصف هذا النوع أو ذاك من أنواع الزهور تضمنها كتاب أبي الوليد الحميري الموسوم بـ (البديع في وصف الربيع)[2]. وتضاف الى ذلك ابيات متفرقة هنا وهناك في كتب تاريخ الادب الاندلسي ولا سيما في كتاب « نفح الطيب » وجميع هذه المقطوعات مستوحـاة من حياة الارستقراطية التي سبق الحديث عنها، فوصف مجالس الانس والخمر والزهور والحدائق وغـير ذلك مما تحفل به حياة القصور كانت الموضوعات المفضلة في شعر ابن الأبار . وبينما نجد أبا عامر يعنى على وجه الخصوص بالخمر ومجالسها نجد ابن الابار فيما وصلنا من شعره واضح الميل الى وصف النساء ، ولكن ما يشغله من النساء ليست امرأة بعينها وإنما المرأة كما يفهمها الوسط الارستقراطي ، وسيلة من وسائل المتعة والتسلية ومصدراً من مصادر اللذة . ففي جميع المقطوعات التي نقلها عنه ابن بسام نجد هذا الاتجاه الجنسي الحسي يفيض في أشعاره ويسبغ عليها قيمة فنية واضحة رغم إثقال الشاعر لشعره بالمحسنات البيانية والبديعية والتزويقات اللفظية . ومع ان الشاعر يحاول التشبث بالاخلاق والتظاهر بالعفاف ، فان الروح التي تسود قصائده أبعد ما تكون عن هذا الادعاء ؛ لنستمع اليه وهو يقول[3] :

لم تدر ما خلدت عيناك في خلدي   من الغرام ولا ما كابدت كبدي
أفديك من زائر رام الدنو فلم   يسطعه من غرق في الدمع متقد
عاطيته الكاس فاستحيت مدامتها   من ذلك الشنب المعسول بالبرد
حتى اذا غازلت أجفانه سنة   وصيرته يد الصهباء طوع يدي
أردت توسيده خدي وقل له   فقال كفك عندي افضل الوسد
فبات في حرم لا غدر يذعره   وبت ظمآن لم أصدر ولم أرد

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف. ابن الأبار .
(٢) البديع البديع في وصف الربيع ، تحقيق هنري بيريز . الرباط ١٩٤٠ .
(٣) الذخيرة ، ق٢ ، ف . ابن الأبار .

بدر ألمّ وبدر التم ممتحن   والأفق محلولك الارجاء من حسد
تحيّر الليـل فيه أين مطلعـه   أما درى الليل أن البدر في عضدي

أو حين يقول[1] :

ومعرض بالغصن في حركاتـه   تسل القلوب العفو من لحظاته
عاطيته كأساً كأن سلافهـا   من ريقه المعسول او وجناته
حتى إذا ما السكر مال بعطفه   وعنى بحكم الوصل في نشواته
هصرت يدي منه بغصن ناعم   لم أجن غير الحل من ثمراته
وأطعت سلطان العفاف تكرماً   والمرء مجبول على عاداته

بل ان ابن الابار ليمضي في المجون الى ابعد من ذلك في قصيدته التي يقول في القسم الاول منها[2]:

زارني خيفة الرقيب مريبـا   يتشكى القضيب منه الكثيبـا
رشأ راش لي سهام المنايا   من جفون رمى بهن القلوبا
قال لي ما ترى الرقيب مطلاً   قلت ذره أتى الجناب الرحيبا
عاطه أكؤس المدام دراكاً   وأدرهـا عليه كوباً فكوبا
واسقنيها بخمر عينيك صرفاً   واجعل الكأس منك ثغراً شنيبا

الى آخر القصيدة التي يغرق فيها بالمجون والتي يعلق عليها ابن بسام بقوله « وأظنه لو قدر على إبليس الذي تولى له نظم هذا السلك وأوطأ له فتح هذا الملك لدب اليه ووثب ايضاً عليه[3]...»

وبعد فليس في هذا الاتجاه لدى ابن الابار ما يدعو الى العجب والاستغراب

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .

فقد كانت هذه حياة طبقته وهذه مشاغلها وهذه قيمها واخلاقها . ومع ذلك فان حكماً أكثر دقة وصدقاً على ابن الابار وشعره لا يمكن ان يصدر الا اذا توفرت لدينا كمية أوفى من نتاجه الادبي .

أما أشعاره في الحدائق والازهار فإنها لا تكاد تختلف عن أشعار أبي عامر وغيره من شعراء العصر الذين حاولوا أن يسبغوا حياة جديدة على انواع الزهور المختلفة ويحملوها من العواطف والافكار ما يحمله البشر أنفسهم ، ولكن إغراقهم في الصنعة الكلامية والتزويق اللفظي كان كثيراً ما يجلب اهتمام القارىء الى الشكل دون المضمون ، ويعرقل – كما اعتقد – تكامل الصورة الشعرية التي يحاول ان يخلقها الاديب ويكاد يخفي مشاعره الحقيقية ، ولكن ذلك كله لا يمنعنا من ان نقدر مقدرة ابن الأبار على الصياغة الشعرية (التكنيك) ورقة اسلوبه وحسن اختياره لألفاظه مما أحله مكاناً رفيعاً في الادب لدى نقاد عصره .

إن النقص في معلوماتنا عن ابن الابار لا يسمح لنا بتتبع حياته ونشاطه الادبي في زمن المعتضد ، وكل ما نستطيع قوله استناداً على ما ذكره الحميدي ، إن ابن الابار كان حياً في عام ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) وهذه الاشارة من كاتب معاصر للشاعر تضاف الى القصيدة التي أوردها ابن بسام لابن الابار في مدح اسماعيل بن المعتضد ، تدل على أن الشاعر كان حياً في بداية حكم المعتضد وان من المحتمل ان يكون قد توفي في السنوات الاولى من حكمه .

ابو بكر بن القوطية :

وفي هذه الفترة ذاتها وفي الوسط الارستقراطي نفسه لمع اسم آخر هو ابو بكر بن القوطية صاحب الشرطة في إشبيلية في اثناء حكم المعتضد ، والذي

(١) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ف. احمد بن محمد الخولاني .

لم يكن شاعراً فقط وإنما كان علماً من اعلام النحو واللغة ايضاً .

لقد كان ابن القوطية واحداً من هؤلاء الشعراء الذين انصرفوا الى وصف الحياة اللاهية التي كان يعيشها الاغنياء آنذاك ، فوصفها في مظاهرها المختلفة ، وصف الخمر ومجالسه ، وصف النساء والغلمان ، وصف الحدائق والزهور وما شابه ذلك . ورغم أن ما وصلنا من شعر هذا الشاعر قليل محدود فان ابن خاقان يؤكد أن كله كان في هذه الموضوعات[١]، وقد أورد له مؤلف كتاب « البديع في وصف الربيع » أكثر من عشرين مقطوعة شعرية في وصف الانواع المختلفة من الزهور .

ولا تختلف المميزات الفنية لشعر ابن القوطية عموماً عن المميزات الفنية لشعر أبي عامر بن مسلمة وابن الابار ؛ أسلوب سلس ، وصياغة شعرية جيدة ، واختيار ناجح للالفاظ ، ومتانة في اللفظ واثقال للشعر بالتزويق اللفظي والمحسنات البديعية والبيانية [١].

أبو الوليد اسماعيل بن عامر الحميري :

ولا يجب أن نترك الارستقراطية الاشبيلية دون أن نشير الى شاعر مهم من شعرائها وهو أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن احمد بن عامر[٣]، وقد كان أبوه شخصية كبيرة من اغنياء اشبيلية المعدودين ومعروفاً باسم « حبيب »، ويبدو أنه كان ذا مكانة كبيرة في زمن القاضي ابن عباد بحيث يسميه ابن بسام الرئيس ، بل إن عدداً من الشعراء لم يكونوا يترددون في تخصيص المدائح له شأن كبار الحكام، كما فعل ابن القوطية وابن الأبار [٤].

(١) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، ف. ابو بكر بن القوطية.
(٢) حول ابن القوطية انظر ايضاً ، الذخيرة ، ق ٢ ، ف. الحميدي ؛ جذوة المقتبس ، والضبي، بغية الملتمس ص ٥٠٤ ، الحميري ، « البديع في وصف الربيع » .
(٣) ابن الأبار ، التكملة ، الضبي ، بغية الملتمس ، صفحة ٢١٣ .
(٤) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ف. احمد بن محمد الخولاني .

اذن فقد ولد ابو الوليد في عائلة ارستقراطية مترفة ، وفي ذلك الوسط نمت شخصيته وأخلاقه وازدهرت قابلياته وإمكانياته. وقد كانت علاقاته بالقاضي أبي القاسم بن عباد وبالشخصيات الشعرية الاخرى في زمنه كابي عامر بن مسلمة وابن القوطية وثيقة جداً كما يشهد بذلك الكتـــاب الذي ألفه الشاعر نفسه،[1] ويبدو أن الوليد قد اتجه نحو الادب وتعلق بالشعر وهو لا يزال في مقتبل السن ، ويبدو أن ما جذبه ممـــا يحيطه بصورة الخاصة هما الحدائق والزهور ، فنظم في ذلك الشيء الكثير ، بل إنه جمع كثيراً ممـا قاله شعراء عصره الاندلسيون ولا سيما معاصروه في إشبيلية حول هذا الموضوع في كتاب سماه « البديـع في وصف الربيـع » ، ولهذا الكتاب الذي نشره المستشرق هنري بيريز في الرباط عام ١٩٤٠ أهميـة كبيرة ، فهو دون شك مصدر أولي هام لهذا النوع من الشعر الذي برع به الاندلسيون فضلاً عن انه يضم مجموعـة فريدة لجزء مهم من شعراء اشبيلية في تلك الفترة .

وعدا المقدمة ، فقد قسم المؤلف كتابه الى ثلاثة اقسام خصص القسم الاول للمقطوعات الشعرية التي تصف الربيع ، وخصص القسم الثاني للقطع الشعرية التي تصف غير زهرة ، أمـــا القسم الثالث فقد ضم المقطوعات الــتي يصف فيها الشاعر زهرة بعينها . ولا يكاد شعر أبي الوليد الحميري يتميز كثيراً عن شعراء عصره في هذه الموضوعات . ومع ذلك فخلف التزويق اللفظي والصنعة الكلامية يمكن أن نتلمس شعور الشاعر الصادق تجاه الطبيعة وتأثره العميق بها وإدراكه للكثير من جوانب جمالها . ولكن الموت لم يمهل الشاعر كثيراً ولم يسمح لنبوغه ان يصل الى حده فقد اختطفه وهو لا يزال في ريعان الشباب .

ويذكر ابن بسام[2] ، ويتبعه في ذلك مؤرخو الادب الاندلسي القدمـاء

(١) أبو الوليد الحميري ، البديع في وصف الربيع ، صفحة ١١٠
(٢) الذخيرة ، ق ٢ ، ابو الوليد الحميري

والمحدثون[1] ، ان أبا الوليد قـــد توفي شاباً في الثانية والعشرين من عمره . ويذكر الحميدي أن موت الشاعر كان حوالي عام ٤٤٠ هـ (١٠٤٨م) دون ان يشير الى سنه ، ويؤيد الضبي في كتابه بغية الملتمس ، تاريخ وفـــاة ابي الوليد ذاكراً ان ذلك كان في الثانية والعشرين من عمره ، وربما كان ذلك نقلاً عن ابن بسام . ويبدو واضحاً من كتاب البديع انه كتبه قبل وفاة القاضي ابن عباد التي حدثت في عام ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م) ، فقد اهدى الشاعر كتابه الى القاضي أبي القاسم بن عباد والى ابنه اسماعيل الذي يسميه المؤلف الحاجب. وقد أخذ اسماعيل هذا اللقب بعد اعلان عودة الخليفة هشام المزعوم في عـام ٤٢٦ هـ(١٠٣٤م) في اشبيلية[2] ؛ وهكذا نستنتج أن أبا الوليد قدم كتابه للقاضي ابن عباد وابنه بين عامي ٤٢٦ هـ (١٠٣٤ م) و٤٣١ هـ (١٠٣٩ م) فإذا كان الحميدي وهو معاصر لأبي الوليد يقول ان الشاعر توفي في حوالي عام ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) ، واذا صدقنا قول ابن بسام بـــأنه توفي في الثانية والعشرين من عمره ، فمعنى ذلك أنه حين وفـاة اسماعيل في عام ٤٣١ هـ كان عمره لا يتجاوز الثالثة عشرة ، ومعنى ذلك ايضاً أنه ألف كتابه البديـع قبل هذا السن ؛ وهذا ما لا يمكن قبوله طبعاً . وعلى ذلك فإذا قبلنا تاريخ وفاة الشاعر الذي ذكره الحميدي وهو جدير بالقبول، فإن قول ابن بسام بأنه توفي في الثانيــة والعشرين من عمره يبدو غير مقبول .

* * *

الأدب في الطبقة الوسطى

واذا تركنا الأرستقراطية الكبيرة وانحدرنا على السلم الاجتماعي الى الطبقة

(١) الضبي ، بغية الملتمس ، صفحة ٢١٣ ، بيريز ، مقدمة كتاب البديع صفحة ٣ ، ابن الأبار ، التكلة ، صفحة ٢١٩ ، الحميدي ، جذوة المقتبس ، ف. اسماعيل بن محمد بن عامر
(٢) انظر ما سبق .

الوسطى وما يليها من طبقـات ، فأن أول ما يجلب انتباهنـــا أن الاهتمام بالأدب لا يقل ولا يتضاءل ، بل إن كثرة العلماء والادباء والمتعلمين ممن نصطلح على تسميتهم بالمثقفين في الوقت الحاضر بين أبناء الطبقة الوسطى أمر تؤكـده كثير من الشواهد التاريخية . ومهما كان دور الارستقراطية الاندلسية مهماً في تشجيع الادب وتوجيهه ، فأن دور مثقفي الطبقة الوسطى من فقهاء وباحثين وادباء في تعميق المعرفة وإثراء الادب أمر لا يكاد الشك يتطرق اليه وكان على من يريد من الشعراء والادباء الكثيرين الذين نبغوا في هذه الطبقة أن يصل الى المجد الادبي والمكانة الاجتماعية أن يمر في بلاطات الملوك ويجتـاز قصور الوجهاء والاغنياء ويحظى لديهم بالرضى والاعجاب ويحصل منهم على الجـاه والمال ، وبذلك يستطيع أن يسترعي اهتمام مؤرخي الادب ويجد له مكاناً في مؤلفاتهم . إن الادب لم يعد مجرد متعة وتسلية كما هو الحـال لدى الشعراء الارستقراطيين وإنما صارت له مهمة جديـدة هي التكسب والحصول على الرزق ؛ لقد أصبح وسيلة من وسائل العيش وطريقـاً للتقدم والصعود في سلم الحياة الاجتماعية والحصول على مكانة عالية بل والوصول الى المراكز الادارية الرفيعة في الدولة . وقد ترتبت على ذلك نتائج عديـدة ، أولاها أننا نجهل الكثير عن إنتاج عدد كبير من الادباء لا لشيء الا لانهم لم يستطيعوا اجتيـاز هذا الطريق أو أنهم لم يريدوا ذلك . وثانيتهـا أن من استطاع السير فيـه كان لا بد له أن يضع نبوغه وعبقريته في خدمة سادة هذه البلاطات والقصور ويراعي أذواقهم الادبية ومقاييسهم الفنيـة وحاجاتهم النفسية والعاطفيـة والفكرية ، وكان في مقدمة هذه الحـاجات الاشادة بمآثرهم والاطناب في مديحهم وتسطير أمجادهم ، سواء وجدت أم لم توجـد . ولا نستثني من ذلك الا فريقاً استطاع فرض وجوده وخلق مكانته في مجتمعه بتعمقه في فرع من فروع المعرفة أو تبحره في علم من علوم العصر ، كما هو حال بعض علماء وفقهاء هذه الفترة .

وفي هذا الاتجاه نحو التكسب بالشعر نجد الاختلاف الواضح بين هذا النوع من الشعراء وأولئك الذين سبق الحديث عنهم ، والذين كانت ظروف حياتهم الخاصـة ووضعهم الطبقي يسمح لهم الانصراف الى الاهتمام بجوانب حياتهم الباذخة ؛ بمجالس الانس والخمر والنساء والغلمان والزهور وما الى ذلك ، دون الاضطرار الى التكسب بالشعر والاهتمام بالمديح والتهاني والرثاء وما الى ذلـك من ابواب القريض . ولا أظنني بحاجة الى التحدث باسهاب عن هذا الموضوع فقد سبق الكلام فيه ، وانما أردت قبل التعريف بفريق من هؤلاء الشعراء ان أذكرّ بالمبررات التي تجعلنا نميزهم عمن سبقهم ، والعوامل التي كان لهـا الاثر الاقوى في توجيههم وتفكيرهم وموضوعاتهم بل وحتى في أشكالهم التعبيرية .

ولعل خير النماذج لهذا النوع من الادباء واكثرها وضوحاً في هذه الفترة من تاريخ اشبيلية ، الشاعر المعروف ابو الوليد بن زيـدون وابن حصن الاشبيلي وابن عبد العزيز المعلم . وسنرى أن عـدد أمثال هؤلاء الشعراء يزداد ويكثر بعد استقرار الدولة العبادية وتوسّع نفوذها ولا سيما في زمن حكم المعتمد بن عباد ، حيث نرى أبواب القصور الملكية تنفتح أمام شعراء جاءوا احياناً من أدنى طبقات المجتمع كأبن عمار وابن اللبانة .

☆ ✱ ☆

فأما ابو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم

فيبدو أنـه كان من الادباء الذين نجحوا في تثبيت أقدامهم في بلاط المعتضد الذي ابتدأ يأخذ شكل بلاط ملكي باذخ حافل بكل ما تحفل به بلاطـات الملوك من الشعراء والادباء. ورغم أننا لانكاد نعرف شيئاً عن اسرة ابن عبد العزيز المعلم وطفولته ونشأته الا أن ما لدينا من انتاجه الادبي يدل على أن ثقافته اللغوية والادبية كانت من القوة والعمق بحيث سمحت له أن يكتب نثراً متيناً ذا قيمة رفيعة بل وشعراً رصينـاً يستلفت النظر ويجلب الاهتمام .

وقد استعمل ابن عبد العزيز المعلم قابلياته الأدبية هذه لتحسين ظروفه المعاشية والارتفاع بمستوى حياته الاجتماعية . وكان يشعر بعمق بظلم الأقدار له وعدم إعطائه المكان الذي يستحقه في الحياة، وقد برز هذا الشعور في أجلى مظاهره فى مقامة كتبها كما يبدو في بدء علاقاته بالمعتضد [1]. ولكن يبدو ان الحظ ابتسم لابي الوليد حتى أوصله الى منصب كاتب في بلاط ملك إشبيلية ، وهو منصب مرموق لم يكن يبلغه إلا ذوو الأقلام البارعة والامكانيات الأدبية الكبيرة . وقد نقل لنا ابن بسام رسالة كتبها باسم المعتضد رداً على ابي حفص الهوزني أحد شخصيات إشبيلية وزعمائها الذي شكا الى المعتضد من تفكك المسلمين وضعفهم ودعاه الى النهوض الى جهاد نصارى الشمال الذين يهددون البلاد [2] وقد وضح المعتضد في رسالته هذه رأيه في الوضع السياسي العام وموقفه منه . ورغم أن أسلوب ابن عبد العزيز المعلم لم يتجرد من الصنعة اللفظية التي كانت ميزة دلك العصر، فان ما يتجلى فيه بوضوح هو قوة التركيب وسهولة التعبير وإخضاع اللغة للكاتب ليعبر بيسر عما يريد التعبير عنه

ويقدم لنا ابن بسام في ذخيرته نماذج من شعر ابن عبد العزيز المعلم [3] . وهي عبارة عن مدائح قدمت للملك يستغلها الشاعر أحياناً للاعراب عن مشاعره الخاصة . وليس في هذه النماذج القليلة ما يجلب الاهتمام سوى مقدرة الشاعرعلى التعبير وشدة تأثره بالأسلوب العربي القديم من حيث الفاظه وطريقته في النظم . ولكن هذه النماذج لا تسمح لنا بأصدار حكم قاطع على نتاجه الأدبي .

وقد عاش ابو الوليد مدة من الزمن بعد وفاة المعتضد ، فقد نظم أبياتاًفي

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف ، ابو الوليد بن عبد العزيز المعلم .
(٢) « « « ابو حفص الهوزني .
(٣) الذخيرة ، ف . ابو الوليد بن عبد العزيز .

مدح المعتمد عند فتحه لقرطبة بعد سنتين من توليه الحكم ، وقد بقي حتى هذا الوقت شاعراً في بلاط بني عباد . ولكن أثر الشاعر اختفى بعد هذا التاريخ بين العدد الكبير من الشعراء والكتاب الذين امتلأ بهم بلاط إشبيلية .

* * *

أما علي بن حصن الاشبيلي

فقد كان واحداً من أحسن شعراء هذه الفترةولكن نبوغه لم يحظ بالاهتمام الذي يستحقه من مؤرخي الأدب . ورغم أن ابن حصن قد وضع شعره في خدمة طموحه للحصول على العيش الرغيد ، فانه لم ينس مشاعره ومشاغله الخاصة . وكانت هذه المشاغل تتمثل خصوصاً في الخمر ومجالس الأنس والنساء والغلمان ، مما نراه منعكساً بصراحة وحرية في شعره . ويبدو أن هذه الصراحة والحرية قد نفرت بعض مؤرخي الأدب عن ذكر شعره ، لأن ابن بسام يؤكد أن صراحة ابن حصن يجب أن لا تمنعنا من اعطائه ما يستحق من اهتمام وتقدير [1] والواقع أن المقطوعات التي قدمها ابن بسام في ذخيرته من شعر ابن حصن تقدم لنا شاعراً ذا نبوغ يستحق التقدير ، ومن المؤسف أن لا يكون بين ايدينا غير القليل من أخباره ونشاطه الادبي ، وغيرمقطوعات قليلة من شعره لا تسمح على كل حال بتقديم صورة واضحة لمكانته الأدبية . ومع ذلك فأننا نستطيع القول ان نبوغ ابن حصن الشعري كان موضوعاً في خدمة الأرستقراطية الحاكمة ورئيسها الملك المعتضد عباد ، وذلك من أجل الحصول على العيش وتحسين ظروف حياته المادية ؛ فقد تقدم الى اسماعيل بن عباد ولي العهد ثم الى ابيه المعتضد ، ونجح في انتزاع اعجابه ودفعه الى أن

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف . ابن حصن

يقبله شاعراً من شعراء البلاط . وهكذا نظم ابن حصن القصائد الطوال في مدح الملك وذكر مآثره وتمجيد بطولته وكرمه وشجاعته والاشادة بانتصاراته وشتم أعدائه كلما تهيأت المناسبة لذلك .

وقد كان من الممكن ان يحتل ابن حصن المنزلة الاولى بين شعراء البلاط الاشبيلي ، لولا أن الاقدار ألقت في طريقه الشاعر المعروف ابن زيدون الذي وجد لدى المعتضد ترحيباً منقطع النظير . فقد دفع وجود ابن زيدون في بلاط الملك الاشبيلي ابن حصن الى المرتبة الثانية بين الشعراء ، ويورد لنا ابن بسام قطعة لابن حصن يهاجم فيها ابن زيدون بعنف ويفضل نفسه عليه[1]. الا ان ابن زيدون الذي حنكته التجارب والنكبات بقي ينتظر الفرصة المناسبة للتنكيل بغريمه دون ان تثيره هجماته . ويبدو أن هذه الهجمات قد تجاوزت الحدود بحيث أثارت غضب المعتضد القاسي وكلفت ابن حصن حياته . وقد تكون اسباب غضب المعتضد غير هذه الاسباب ، فقد يكون من المعقول ان نتصورها في علاقة ابن حصن الوثيقة باسماعيل بن عباد ولي العهد الذي قتله والده المعتضد إثر مؤامرة قام بها ضده ، فنحن نعرف ان ابن حصن قد وقف العديد من مدائحه على اسماعيل هذا ، ذكر قسماً منها ابو علي بن بسام[2]. إلا ان هذا افتراض ليس لدينا ما يثبته ، لا سيما وان الأمر يتعلق بسلطان مثل المعتضد لا تساوي لديه حياة الانسان قلامة ظفر .

وعدا قصائد المديح التي قدمها ابن حصن للمعتضد وابنه اسماعيل فقد اورد له ابن بسام مقطوعات في وصف حياته الخاصة ونزواته الطارئة ومغامراته الغرامية وساعات أنسه وطربه ومجالس شربه ، وهو يعبر عن ذلك كله عادة بشيء كثير من الصراحة والاخلاص يعطي لشعره ميزاته الخاصة

(١) الذخيرة ، ق ٢ ، ف، ابن حصن
(٢) نفس المصدر

وقيمته الأدبية . ولكن هذه النماذج القليلة التي وصلتنا تصدمنا من الناحية الأخرى بما فيها من صناعة لفظية ومحسنات بيانية وبديعية فرضها ذوق ذلك العصر ؛ كما يلفت نظرنا فيها حرص الشاعر على التمسك بالتقاليد الأدبية العربية والسير في أثر الشعراء العرب القدامى بل وشعراء العصر العباسي في موضوعاته وافكاره وألفاظه ، وتبرز هذه الظاهرة على وجه الخصوص في شعره الذي يصف به حياته الخاصة .

ورغم هذه الملاحظات فان ما نعرفه من إنتاج ابن حصن الاشبيلي يسمح لنا بأن نضعه بين أحسن الشعراء الاندلسيين في عصر ملوك الطوائف ، ولا شك ان اكتشافات جديدة لانتاجه الأدبي ستقدم من الدلائل ما يسمح بالحكم عليه بدقة وانصاف .

أما ابو الوليد بن زيدون :

فهو دون شك أسطع وجوه الأدب الاندلسي وأطولهم باعاً في نظم القريض وأكثر الشعراء الأندلسيين شهرة في المشرق العربي قديماً وحديثاً، فقد انتشرت قصائده وعورضت من قبل العديد من الشعراء ، كما حظيت رسائله باهتمام علماء اللغة والأدب المشارقة فشرح صلاح الدين الصفدي مثلاً رسالته الجدية[1] في كتاب وسمه بـ « تمام المتون في شرح رسالة بن زيدون » موضحاً ما جاء فيها من حكم وأمثال وشارحاً ما تضمنته من اشارات الى كثير من أحداث التاريخ العربي ومأثور الكلام الأدبي . وفعل مثل ذلك مع رسالة ابن زيدون الهزلية الأديب المصري ابن نباته في كتابه « سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون[2]» . وقد اشتهرت على وجه الخصوص قصيدته النونية[3] فحظيت

(١) صلاح الدين الصفدي ، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون .
(٢) ابن نباتة ، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون .
(٣) ديوان ابن زيدون ، صفحة ٤ .

باهتمام عشاق الادب وعارضها العديد من الشعراء في الاندلس مثل ابن الملح[1]، وفي المشرق مثل صفي الدين الحلي ، بل وحتى في العصر الحديث كما فعل احمد شوقي[2] وكثيرون غيرهم .

والدراسات الحديثة حول ابن زيدون عديدة أيضاً اذا ما قورنت بالدراسات التي جرت لغيره من شعراء الاندلس . وقد صدرت الطبعة الاولى من ديوانه عام ١٩٣٢ بتحقيق كامل كيلاني في القاهرة وتلتها طبعات أخرى في مصر ولبنان . ولكن ليس معنى ذلك أن البحث في ابن زيدون وإنتاجه الادبي قد استنفد كل طاقاته وتناول جميع جوانب الشاعر وإنتاجه . فالمجال لا يزال مفتوحاً لدراسات أكثر عمقاً تعتمد على وجه الخصوص على دراسة عميقة للفترة التي عاش فيها الشاعر والتيارات الأدبية التي أحاطت به ولست أريد في هذا الفصل الصغير أن أقوم بهذه المهمة ؛ وذلك أولاً لأن ابن زيدون نبغ وقضى جزءاً مهماً من حياته في قرطبة، ونحن في بحثنا هذا انما نعنى بشعراء اشبيلية ؛ وثانياً لأن بحثاً مثل هذا يتطلب دراسة كاملة لسنا بصددها الآن.. لذا سأقصر بحثي على شرح الجوانب التي تناولها التحريف والتغيير من حياته مركزاً الاهتمام بصورة خاصة على الجزء الذي قضاه من حياته في اشبيلية .

إن أبا الوليد بن زيدون لا ينتمي الى أسرة أرستقراطية غنية كما حاول تصويره كثير من المؤرخين المحدثين ، فأبوه فقيه ذو مكانة علمية ودينية محترمة حملت حكام قرطبة على تعيينه مستشاراً لقاضي قرطبة في شؤون القضاء والدين[3] . ولكن هذه الأسرة كانت تنتمي الى أصل رفيع ، اذ تنتسب لمخزوم من بطون قبيلة قريش ، ومع ذلك فان مكانة ابن زيدون الأب كانت تقوم على قيمته العلمية ومنزلته الدينية قبل كل شيء . وقد سمحت هذه المكانة

(١) الذخيرة ، ج ١ صفحة ٣١١ .
(٢) ديوان ابن زيدون ، صفحة ٥٢٠ (تحقيق كامل الكيلاني) ،
(٣) القاضي عياض ، المدارك ، ج ٢ ، صفحة ٣٠٧ ، ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ٥٧٠ .

لشاعرنا أن يشق طريقه في الأوساط الثقافية والأدبية مستخدماً نبوغه الأدبي وكفاءته الشعرية لارتقاء سلم المجد الادبي والاجتماعي وتحقيق مطامحه في الحياة كما هو شأن أدباء الطبقة الوسطى في مجتمعه . وكان طبيعياً لشاعر في مثل نبوغه وظرفه وإمكانياته أن يجد استقبالاً حسناً في الوسط الارستقراطي؛ وفي هذا الوسط تعرف بأبي الوليد بن جهور ابن أبي الحزم بن جهور رئيس وجهاء قرطبة وأكثرهم غنى وثروة والذي تولى مقاليد الحكم فيها بعد انحلال الخلافة وضعف الطامعين فيها . ورغم أن أكثر مؤرخي الادب المحدثين يحاولون تصوير ابن زيدون كمساعد أبي الحزم وشخصية بارزة تقف في صفه[1]، فان ما لدينا من أدلة تاريخية وأدبية لا تؤيد مثل هذا الرأي . فجميع القصائد الموجهة الى أبي الحزم والموجودة في ديوان ابن زيدون قد كتبها الشاعر في السجن طالباً الصفح عنه والعفو من حاكم قرطبة . واذا كانت هناك قصائد قد ذكرت في الديوان على أنها موجهة لأبي الحزم ، فان نظرة سريعة يمكن أن تظهر لنا بوضوح أنها موجهة لابنه أبي الوليد بن جهور .

وفي قرطبة كان ابن زيدون يتردد على الحلقة الأدبية التي كانت تحيط بالأميرة الأموية الحسناء ولادة بنت المستكفي الذي جعله القرطبيون خليفة لهم في فترة الفتنة العارمة التي اجتاحت الاندلس منذ أوائل القرن الخامس ، ولكنه لم يبق في كرسيه المتزعزع سوى بضعة شهور خرج بعدها من قرطبة شريداً طريداً لا هم له إلا النجاة بحياته ملتجئاً الى قرية بعيدة عن قرطبة حيث قضى نحبه بعد ذلك بزمن وجيز . وكانت ولادة هذه امرأة جميلة شقراء وكان يحلو لابن زيدون أن يصفها بقوله إن الله خلقها من الفضة الصافية ووضع على رأسها تاجاً من الذهب الناصع[2] :

(١) السكندري ، ديوان ابن زيدون (تحقيق كامل كيلاني) ، كامل كيلاني ، ديوان ابن زيدون ص ٣١ .
(٢) انظر قصيدته النونية ، ديوان ابن زيدون ، ص ٤ .

ربيب ملك كأن الله أنشأه   مسكا وقدّر إنشاء الورى طيناً
أو صاغه ورقاً محضاً وتوّجه   من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا

وقال عنهـا ابن بشكوال : « سمعت شيخنا أبا عبدالله بن مكي رحمه الله يصف نباهتها وفصاحتها وحرارة نادرتها وجزالة منطقها ، وقال لي : لم يكن لها تصاون يطابق شرفها ...[1] . وتحدث عنها ابن بسام في ذخيرته فقال ان مجلسها بقرطبة كان منتدى لاحرار المصر وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب الى ضوء غرتها ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، الى سهولة حجابها وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب وطهارة أثواب... على أنها – سمح الله لها وتغمد زللها – اطرحت التحصيل وأوجدت للقول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها .. كتبت – كما زعموا – على أحد عاتقي ثوبها :

أنا والله أصلح للمعـالي   وأمشي مشيتي وأتيه تيها
أمكن عاشقي من صحن خدي   وأعطي قبلتي من يشتهيها

ويستطرد ابن بسام قـائلاً : « هكذا وجدت الخبر ، وأبرأ الى الله من عهدة ناقليه ، والى الادب من غلط النقل ، ان كان وقع فيه »[2] . ومثل هذه الأوصاف عن ولادة جاءت لدى المقري[3] وابن دحية الكلبي[4].

ان الصورة التي رسمها مؤرخو الاندلس لولادة هي عمومـاً صورة فتاة أرستقراطية عابثة، حرة التصرف، تميل الى التمتع بمباهج الحياة ومنها الحب، فلا عجب في أن يفتن بها شاب رقيق كابن زيدون لم يكن يتجاوز آنذاك الخامسة

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٦٣٢ .
(٢) الذخيرة ، ج ١ ، ص ٣٧٦ .
(٣) نفح الطيب (ليدن) ، ج ٢ ، ص ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ الخ .
(٤) ابن دحية الكلبي (م لندن) ، ف . ولادة .

والعشرين من العمر فتسعده آناً برضاها عنه وعطفهـا عليه ولقاءاتها معه ، وتشقيه احياناً اخرى بدلالها وتمنعها وإعراضها ، بل وتثير غيرته في كثير من الاحيان بعلاقاتها المتعددة بهذا وذاك من معارفهـا الكثيرين . هـذه الصورة لولادة ولعلاقتها بالشاعر نراها واضحة من خلال القصائد والابيات الكثيرة التي تحدث فيها ابن زيدون عنها ، حين وصف الساعات السعيدة التي قضاها بقربها، وثورات الغيظ الأليمة التي كانت تثور في نفسه وهو يرى إعراضهـا وتمنعها ، والذكريات العميقة التي خلفتها في نفسه حتى بعد تركه لقرطبة بسنين وابتعاده عنها . لقـد كان حب ابن زيدون لولادة حدثاً مهمـاً في حياة الشاعر كان له أعمق الاثر في إنتاجه الادبي ، بل إننا لنلمس أثر الذكريات العميقة التي خلفها هذا الحب في نفسه وفي شعره طيـلة حياته . وبينما كان ابن زيدون لا يزال يعاني من مشكلات هذا الحب حدث له أمر خطير قلب حياته وهزه هزة عنيفة كان لها اثر عميق في مجرى حياته وإنتاجه الأدبي، فقد ألقى الشاعر في السجن، وكان عليه ان يقضي فيه زمناً طويلاً .

وقد كثر النقاش حول اسباب سجن ابن زيدون ، وجل هذا النقاش قائم على اساس ان ابن زيدون شخصية سياسية كبيرة من شخصيات عصره ، فقد بذل المؤرخون المحدثون جهداً كبيراً ليجدوا أسباباً تناسب مركزه السياسي الرفيع المزعوم . والواقع ان ابن زيدون لم يكن في هذه الفترة رجـلا من رجال الدولة ؛ وواضح من رسائله واخباره ان سنده الوحيـد كان مكانة ابيه العلمية والدينية فقـد كتب رسائل عديدة الى عدد من شخصيات قرطبة يستعطفهم باسم العلاقة التي كانت لهم مع أبيه ان يمدوا له يد العون ويتوسطوا لدى ابي الحزم لاطلاق سراحه[1] وهذا لا يعني طبعاً انه لم يكن يتمتع بسمعة أدبية ولكن هذه السمعة وحدها لم تكن كافية لاحلاله محلا متميزاً ممتازاً في

(١) ديوان ابن زيدون ، ص ١٥ ، الذخيرة ، ج ١ صفحة ٣٥٠ .

المجتمع بل ويمكن القول إن علاقته بولادة وأشعاره فيها وأعمالاً أخرى مشابهة قام بها كانت سبباً في إساءة سمعته الخلقية ، فهو يعترف في رسالته بأنه كان متهماً بـ « التسلط على الاعراض » ، وبل ويفهم من رسالته ان هذه التهمة لم تكن عارية من الصحة تماماً[1]، وقد كان تصوير ابن زيدون كشخصية سياسية مهمة كما ذكرنا سبباً في البحث عن أسباب خطيرة لسجنه[2] ، بل ان كامل كيلاني ذهب الى حد الافتراض انه قام بمؤامرة ضد ابن جهور للاستيلاء على الحكم [3].

على ان من يتابع رسائل ابن زيدون التي رواها ابن بسام في ذخيرته يجد أن ابن زيدون نفسه يشرح هذه الاسباب ولا سيما في رسالة كتبها الى احد أصدقائه بعد فراره من السجن[4]. ويبدو أن سبب سجنه المباشر كان إرثاً تركه من يسميه الشاعر «مولاي»، ويزعم ابن زيدون في رسالته انهذا الشخص لم يترك شيئاً بعد وفاته، فقد كان بيته وكل ما يحيط به يعود الى امرأة كانت تقيم عنده (ربما كانت زوجة المتوفى نفسه) ، ولكن القاضي الذي كان آنذاك كما يبدو ، عبدالله بن احمد المكوي[5] لم يقبل بهذا الادعاء ، ويؤكد ابن زيدون في رسالته انه قد قدم الى القاضي وثيقة موقعة من قبل الشخص المتوفى تؤكد ادعاءه، ولكن القاضي ومستشاريه رفضوا أيضاً قبول ادعائه وأودعوه السجن لذلك . ويقول ابن زيدون أيضاً ان اشخاصاً من الوجهاء قد تدخلوا لتشديد الاجراءات القانونية التي اتخذت ضده ، ولهذا السبب فقد وضع بين المجرمين واللصوص بدل السجناء ذوي المكانة الذين سبق ان وضع

(١) ديوان بن زيدون ، ص ٣٦٧ ، الذخيرة ج ١ ص ٣٥١ .

(٢) احمد ضيف ، ديوان ابن زيدون ، صفحة ٤٣١ ، احمد زكي ، ديوان ابن زيدون صفحة ٤٤٨ .

(٣) ديوان ابن زيدون ، صفحة ٤٢ .

(٤) الذخيرة ، ج ١ ، صفحة ٣٤٤ .

(٥) الذخيرة ، ج ١ ، ٢٩١ .

بينهم ، ويزعم ابن زيدون أن هذه الاجراءات المشددة قد اتخذت ضده بحجة سوء سلوكه وتسلطه على اعراض الناس ؛ ويشكو في رسالته هذه من أن جميع الناس ضده حتى عمه الحكم والشخص المرسلة اليه هذه الرسالة نفسه أيضاً . وهو لا ينكر أفعاله في هذا المجال ولكنه يؤكد أن أناساً قاموا بمثل أعماله قد عفي عنهم فلماذا لا يكون نصيبه كذلك[1] !. .

اذن فلم يكن ابن زيدون رغم قابلياته الادبية شخصية كبيرة من شخصيات قرطبه كما لم يكن أحد قادة الدولة الفتية التي قامت في قرطبة كما يدعي البعض[2] . لم يكن سوى شاعر شاب عند قيام دولة قرطبة لم يتجاوز الخامسة والعشرين إلا قليلاً ، إذ أنه ولد كما هو معروف في عام ٣٩٦ هـ وفترة الفتنة التي أدت الى مجيء بني جهور الى الحكم ابتدأت عام ٤٠٠

(١) نص الرسالة كما اوردها ابن بسام : « في علمك أني سجنت مغالبة بالهوى وهو اخو العمى .. وشهد ابن العطار العشار العاري عن الثقة والأمانة ، البعيد عن الرعية والصيانة ، الناشر لأذنيه طمعاً ، الآكل بيديه جشعاً ، فكان القول ما قالت حذام ... وكان المتولي سجني بعد شهر من إنفاذه له مجلس حضره فقهاء الحضرة ومن بسيامهم ، وجرى في غشيان الحكام مجراهم ، فذكر له انه أئتمنني بالمغيب على عهد المتوفى مولاي كان - نقع الله صداه وبل ثراه - وثبت عنده مع ذلك اني ممن تعلقه التهم ولا ترتفع عنه الظنن ، فكلهم أفتى بالاعذار إليّ فيما شهد به من ذلك علي ، ثم سجني إن لم آت بمدفع ، او اصدع الحجة بمقنع . فاحتاط واجتهد ، وتحرى واقتصد ، وصالحني من هذه الفتيا على النصف بتأخير الاعذار وتقديم السجن ، والصلح جائز بين المسلمين . ثم اظهرت اليه عقداً كان المتوفى — قدس الله روحه ونور ضريحه — قد اشهد فيه ان لا مال له وان جميع ما تحيط به الدار التي توفي بعيد هذا الاشهاد فيها ، إنما هو للغانية التي في عصمته ، حاشا دقائق بينها ، ومحقرات عينها ، فمعلوم ان من اشهد بهذا علي وتقيد بمثله من لفظه ، فمحال ان يخلف عهده او يهلك عن وصيته ، وسألته الشورى فيما أثبته من هذا العقد فلم يجبني الى ذلك ... فحينئذ عللني بالمواعيد ... وكان آخرها الذي نسخ به ما قبله ان تدرج الى الشورى الى ابقاء الشورى للورثة ، فثويت ارقب هذا الحين ، وارجو ان يحين (الذخيرة ١/٣٤٤)

(١) أحمد زكي ، ديوان ابن زيدون ، ص ٤٤٩

واستمرت أكثر من عشرين عاماً بقليل. وقد ابتدأ ابن زيدون يشتهر بقابلياته الادبية ونبوغه الشعري اللذين أخذا يفتحان له أبواب الاوساط الادبية الارستقراطية ويهيئان له إمكانيات جديدة في الحياة . وقد سمح له مركز أبيه العلمي والديني أن يعيش منذ نعومة اظافره في الاوساط الثقافية والادبية المحيطة بالارستقراطية الحاكمة .

وقد بقي الشاعر أكثر من خمسمائة يوم في السجن قبل أن يستطيع الهرب منه والابتعاد عن قرطبة الى أن عفا عنه ابو الحزم بن جهور بوساطة ابنه أبي الوليد ، فعاد اليها مرة اخرى .

وبعد وفاة أبي الحزم وتولي أبي الوليد زمام الحكم في قرطبة دخل ابن زيدون في خدمة هذا الأخير ، وقد ساعدته صلته بالأمير أبي الوليد وقابلياته الأدبية على أن يجد له محلا في مناصب دولته ، فعين في ديوان أهل الذمة ردحاً من الزمن ، ثم استخدمه أبو الوليد سفيراً متجولاً لدى ملوك الطوائف في الاندلس ، فكان يرسله من آن لآخر الى هذا او ذاك منهم ، ولكنه عدل عن ذلك أخيراً وقيل إن سبب ذلك كان تأخر ابن زيدون في إحدى سفراته في مالقة عما كان مقرراً له . وقد كان لهذه السفرات أهمية كبيرة في حياة الشاعر لأنها سمحت له بالتعرف على عدد كبير من الشخصيات الاندلسية وانتزاع إعجابها .

ولكن ابن زيدون كان بعيداً جداً عن تحقيق مطامحه التي تناسب كفاءته وقابلياته. فقد كان الشاعر، كما نلحظ ذلك واضحاً في إنتاجه الأدبي ، معتداً بنفسه مدركاً لقدره وأهميته ، فلم يكن ليرضى بحاله في قرطبة لا سيما وأن اعداءه ومنافسيه كانوا فيها كثيرين بعد الظروف التي أحاطت بسجنه وعودته .

في هذا الوقت نفسه كان المعتضد بن عباد ملك اشبيلية يشعر بالحاجة الماسة الى

كاتب قدير لا سيما بعد فقده لكاتبه المعروف ابن برد[1]. وما كاد ابن زيدون يعلم بذلك حتى كتب الى أبي عامر بن مسلمة الشخصية الاشبيلية الكبيرة يطلب منه التوسط لدى المعتضد لقبول خدماته وقد وافق المعتضد على طلب الشاعر وأرسل اليه يستدعيه الى إشبيلية . وبعد أن كتب الشاعر لسيده الجديد رسالة يشكره فيها على يده الكريمة ، ترك مدينته التي نشأ فيها في عام ٤٤١ هـ (١٠٤٩ م) ليستقر في إشبيلية .

وفي إشبيلية بدأ الشاعر حياة جديدة وصل فيها الى أعلى درجات المجد الأدبي والاجتماعي والسياسي. لقد ساعدته تجاربه الغزيرة في الحياة والمصاعب التي اجتازها ومعرفته العميقة بالأوساط الأرستقراطية الحاكمة في الاندلس ، كما أعانه ذكاؤه وقابلياته الادبية النادرة على أن يحظى برضى وإعجاب المعتضد وأن يحتل في دولته أرفع المراتب وأرقى المنازل . وهنا في إشبيلية برز ابن زيدون، فلم يعد شاعراً فقط بل لقد أصبح شخصية بارزة من شخصيات الدولة الاشبيلية وحصل على اللقب الرفيع «ذو الوزارتين» الذي لم يكن يمنح إلا لأرفع شخصية في الدولة وأقربها الى الملك الحاكم . إن من الغريب حقاً أن نجد ابن زيدون ينجح في البقاء الى جانب الملك الرهيب الذي لم يفلت من غضبه أقرب المقربين اليه ويبقى محتفظاً بثقته حتى آخر أيام حياته، بل إن هذه الثقة كانت تزداد يوماً بعد يوم . ومن المؤكد أن دور ابن زيدون في بلاط المعتضد في هذه الفترة الطويلة التي امتدت عشرين عاماً لم يكن دور شاعر بسيط ، ولا حتى دور كاتب مقرب ، وإنما كان الوزير الاول للمعتضد ومحل ثقته واعتماده ومساعده الايمن. وديوان ابن زيدون لا يحتوي سوى اثنتي عشرة قصيدة في مدح المعتضد ؛ ورغم أن من المحتمل جداً أن تكون

(١) الذخيرة ١/١٣٠ .

هناك قصائد أخرى لم يحتوها الديوان قيلت في مدح المعتضد ، إلا أن ذلك لا يمكن أن يمثل بأي حال من الاحوال إنتاج شاعر للبلاط في خلال عشرين عاماً . وهذا يعني بوضوح أن ابن زيدون كان يقوم في قصر المعتضد بعمل آخر غير عمل الشاعر . لقد تغير مركز الشاعر وزادت أهميته ، بل لقد تبدلت حتى طبقته ، اذ اصبح من الارستقراطية الاشبيلية الكبيرة المحيطة بالامير الحاكم .

صحيح أننا لا نملك تفصيلات كثيرة عن حياة ابن زيدون في هذه الفترة ودوره في السياسة الخارجية والداخلية للمعتضد ، ولكن الشيء الذي لا شك فيه أن دوره كان كبيراً جداً ، فقد كان كما ذكرنا ساعده الايمن ومدبر شؤون دولته ، وأقرب المقربين اليه . وقد كانت هذه الفترة من حياة دولة إشبيلية كما سبق أن أوضحنا ذلك حافلة بالاحداث والنشاط ، ومن الطبيعي جداً أن يكون لوزير المعتضد الاول دوره الخطير في هذه الاحداث وهذا النشاط . وهذا الدور ذاته خلق لابن زيدون أعداءه الكثيرين الذين كانوا يتربصون به الدوائر في اشبيلية ، فما كاد المعتضد يقضي نحبه ويحل محله ابنه المعتمد ، حتى تجمعت جهود ضحايا المعتضد للانتقام من ابن زيدون متهمين له بالخيانة والتآمر . ولكن المعتمد الذي لم يكن يتبع سياسة أبيه العنيفة [1] وقف في وجه هذه المحاولات والجهود ، لا سيما وأنه كان في حاجة الى الشاعر القرطبي لضم قرطبة الى مملكته . على أن القدر لم يمهل ابن زيدون طويلا ليشهد سقوطه من قمة مجده الذي ابتدأ كما يبدو بتقرب ابن عمار من المعتمد واحتلاله لديه المكان الذي كان لابن زيدون قرب المعتضد ؛ فقد توفي في عام ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) أي بعد سنتين فقط من موت المعتضد . وقد

(١) انظر صلاح خالص ، المعتمد بن عباد ص ٩٨

قيل في سبب موته إن المعتمد ارسله من قرطبة بعد أن دخلها الى إشبيلية ليهدىء اضطرابات قامت هناك وإنه كان مريضاً جداً فلم يتحمل مشاق السفر ، فتوفي هناك بعد وصوله لاشبيلية بأيام ، ولا يستبعد بعض مؤرخي الأدب دور ابن عمار في دفع المعتمد الى القيام بهذا العمل الذي أودى بحياة الشاعر المنافس .

ويقف ابن زيدون في الصف الأول من شعراء الاندلس بل إنه يحتل في الشعر العربي كله مكاناً متميزاً ومهماً جداً . لقد تميز ببراعته في الصياغة الشعرية وثراء مفرداته ودقة اختياره لالفاظه . وأهم من ذلك في رأيي وضوح شخصيته في شعره . فحتى في مديحه لا نعدم رؤية شخصيته واضحة بارزة فضلاً عن رؤيتها في وصفه وغزله . ولا تأخذ هذه الشخصية شكلاً واحداً رتيباً في جميع شعره ، بل إنها تتغير وتتبدل وتأخذ الشكل واللون اللذين تفرضهما الظروف والاحوال ، وهذا التغيير والتبدل في مظاهر شخصيته أو في جوانبها التي تبدو في شعره حسب تغير ظروفه وأحواله هو الذي يعطي لشعره حيوية فياضة وحياة مستمرة دائمة . لقد كانت حياة ابن زيدون غنية بالانفعالات والمشاعر والمغامرات العاطفية . فقد شاهدناه شاباً لاهياً ، وعاشقاً متيماً ، غارقاً في لذائذ الحب او محترقاً بلوعته وآلامه ، رأيناه فتى طموحاً سجيناً خائفا ، خائباً في حبه وصداقته بل وفي حياته كلها ، وإذا به يقفز فجأة ليصبح وزيراً خطيراً ورجلا من رجال الدولة . وقد انعكست كل هذه الحالات المتباينة قوية وواضحة في شعره فحمل بكل ما يمكن أن تحمله عواطف شاعر حساس مندفع . ويبدو لنا في كثير من الأحيان أن الشعر بالنسبة لابن زيدون لم يكن يمثل دائماً واجباً خارجياً ومفروضاً عليه ، وانما كان في كثير من الأحيان حاجة داخلية ملحة تدفعه دفعاً الى نظم الشعر والتعبير عما تضيق به نفسه ولا يرحب به صدره . صحيح ان ابن زيدون كان خاضعاً

للتقاليد الأدبية السائدة في عصره ومتأثراً بقيمه ومقاييسه النقدية والادبيـة التي قد تقف احياناً في طريق التعبير الصادق الحر ، ولكن كفاءته الشعرية العالية وتمكنه من اللغة وألفاظها كانا معينين له في كثير من الاحيان على تخطي هذه العقبات . وان من اليسير علينا ان نلاحظ في كثير من شعر ابن زيدون الشاعر الفنان الذى يعرف كيف يعطي لالفاظه وتعابيره حياة خاصة ومعاني اوسع كثيراً من تلك التي تحملها هذه الكلمات. وقد ينتقد ابن زيدون احياناً لانه ليس عميق الأفكار ، ولكن المضمون الشعري ليس افكاراً عميقـة دائماً وإنما مجموع ما يحمله التعبير الشعري في طياته وثنـــاياه من مشاعر وعواطف وأفكار تستجيب لحاجة الشاعر الملحة في التعبير لان وسائل التعبير اللغويـة الاعتيادية عاجزة عن توضيحها وهـذا ما لا نستطيـع انكار وجوده في شعر ابن زيدون .

★★★

سأكتفي بهذا العرض السريع لحياة ابن زيدون مؤكداً أن الشاعر لا يزال رغم الدراسات الكثيرة التي ظهرت حتى الآن حوله بحاجة الى المزيــد من الدراسة والبحث . وقد فضلت أن أقدم في الصفحات السابقة الخطوط العامة لحياته محاولاً توضيح الجوانب المظلمة فيها آملاً أن تتاح لي الظروف في المستقبل دراسة الشاعر دراسة وافية تتناول حياتـــه وشعره كما سبق أن فعلت مع المعتمد بن عباد ومحمد بن عمار ...

ولا أريد أن أترك ابن زيدون دون أن أقول ان ما بين أيدينا من انتاجـه الادبي وهو الموجود في ديوانه ، لا يمثل إلا قليلاً من شعره ، فواضح أن هناك فجوات كبيرة في حياة الشاعر لم يتطرق اليها شعره ، وقد طبع هذا الديوان

كما نعلم استناداً الى نسختين خطيتين موجودتين في دار الكتب المصريـــة ، احداهما منقولة عن الاخرى . ولا شك أن بحثـاً متواصلاً ولا سيما في المكاتب المغربية قد يقود الى العثور على نسخ أكـــثر كمالاً ، مما سيساعـد على القيام بدراسات أدق وأوسع .[1]

(١) راجع حول ابن زيدون أيضاً : الضبي ، بغية الملتمس ، ص ٤٢٦ ، العماد الاصفهاني، خريدة القصر وجريدة أهل العصر ، ج ١١ ، أحمد زكي ، دراسة حول ابن زيدون (تحقيق كامل كيلاني) ، ابن نباته ، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، صلاح الدين الصفدي ، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٧٣، ابن بسام ، الذخيرة، ج ١ ص ٢٨٩ - ٣٧٩ ، علي عبد العظيم ، ابن زيدون .

مراجع البحث المهمة

ابن الابار : الحلة السيراء ، مخطوط المكتبة الوطنية في مدريد .

---

(١) حول مراجع البحث أرجو ملاحظة ما يلي :

(١) ان كثيراً من الكتب التي تحدثت عن هذا الموضوع لم تأت بشيء جديد ، بل كررت ما جاء في الكتب التي سبقتها ، لذلك أعرضت عن ذكرها ولا سيما كثير من الكتب الحديثة ، واقتصرت على ذكر ما أعتقد أن فيه فائدة .

(٢) لقد راجعت كثيراً من المخطوطات في فرنسا وانكلترا واسبانية والمغرب كما هو واضح من هذه القائمة ، مع أن قسماً من هذه الكتب الخطية كان مطبوعاً ، كما أن قسماً آخر منه طبع بعد كتابتي لهذا البحث . وقد اضطررت الى الاعتماد على المخطوط لعدم تيسر الكتاب المطبوع بين يدي .

(٣) إن كثيراً من المخطوطات ولا سيما الشخصية لا تحتوي على أرقام للصفحات ، لذلك اقتصرت على ذكر الفصل الذي استقيت منه المعلومات .

(٤) استعملت في الحواشي مختصرات لأسماء الكتب التي تتردد كثيراً ، لذلك اتبعت هذه القائمة بالمراجع بايضاح للمختصرات التي استعملت .

(٥) لقد آثرت في بعض مواضع الكتاب، تجنباً للتفصيل الذي لا تتحمله طبيعة البحث، الاشارة الى المراجع التي يمكن الاطلاع فيها على تفصيل أكثر للآراء والافكار الواردة في الكتاب

(٦) من الطبيعي أن لا تكون الدراسات الاجنبية والدراسات الحديثة مصادر أساسية للبحث في تاريخ الادب العربي ، ومع ذلك فقد أوردت منها ما عالج الموضوعات التي تطرق اليها البحث وما أبدى فيها آراء ذات قيمة .

– التكملة لكتاب الصلة، مقتطفات نشرها كوديرا في مدريد عام ١٨٨٧ – ١٨٩٠ ، ثم ألاتكون وكونثالث بلانثيا ، مدريد ١٩١٥ .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، نشرة نورنبيرغ ، ليدن ١٨٧٤

ابن بسام (ابو الحسن علي) ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ،

– القسم الاول طبع في القاهرة في جزءين ١٩٣٩ و١٩٤٢

– القسم الثاني ، مخطوط ، وقد اعتمدنا على النسخ منه في اوكسفورد والرباط (١٣٤٢) ومخطوط القرويين (ناقص) ومخطوط مكتبة الآثار في بغداد .

ابن بشكوال ، الصلة في أئمة الأندلس وعلمائها ، مدريد ١٨٨٢ – ١٨٨٣ .

ابن حزم (أبو محمد علي) ،

– طوق الحمامة في الالفة والألاف ، ليون بيرشيه ، الجزائر ١٩٤٩ ، وطبعة القاهرة ١٩٥٠ ، تحقيق حسن كامل الصيرفي وابراهيم الابياري .

– رسالة مراتب العلوم وتفضيل بعضها على بعض ، نسخة مصورة من مخطوطة القسطنطينية في مكتبة ابراهيم الكتاني في مجموعة رسائل ابن حزم.

ابن حيان (خلف) ، نسخة خطية من الجزء الثاني من هذا الكتاب غير كاملة في مكتبة جامع القرويين في فاس .

ابن خاقان (الفتح) ،

– قلائد العقيان ، ط . بولاق – القاهرة ١٢٨٣ هـ.

– مطمح الانفس ومسرح التأنس، القسطنطينية ١٣٠٢هـ.

ابن الخطيب (لسان الدين) ، اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، طبع باشراف ليفي بروفنسال (مقتطفات) في

الرباط ١٩٣٤ . وقد اعيد طبعه في بيروت تحت عنوان « تاريخ اسبانية الاسلامية ».

ابن خلدون ، المقدمة ، ط . بيروت ١٩٠٠

ابن خميس ، ادباء مالقة ، مخطوط في مكتبة السيد محمد المنوني في مكناس.

ابن دحية الكلبي ، المطرب في اشعار اهل المغرب، مخطوط المتحف البريطاني رقم ١٦٣١ (وقد طبع الكتاب في القاهرة بتحقيق الاستاذ ابراهيم الابياري.)

ابن رشد (ابو الوليد) ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، جزءان ، القاهرة .

ابن الزبير ، صلة الصلة ، طبع جزء منه في الرباط ١٩٣٨ باشراف ليفي بروفنسال ، وهناك جزء آخر مخطوط في مكتبة جامع القرويين في فاس .

ابن زيدون (ابو الوليد احمد) ، ديوان ابن زيدون ، تحقيق كامل الكيلاني القاهرة ١٩٣٢ .

ابن سيد الناس اليعمري ، مجموعة نصوص اندلسية ، مخطوط الاسكوريال رقم ٤٨٨ .

ابن سعيد المغربي ، المغرب في اخبار اهل المغرب، تحقيق شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٥٤ .

ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في اخبار اهل المغرب، ج٣ نشره ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٣٣ .

ابن عبد المنعم الحميري ، صفة جزيرة الأندلس المأخوذ من كتاب الروض المعطار ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٤ .

ابن عبدون ، رسالة في الحسبة ، طبعها مع مقدمة ليفي بروفنسال ص ١٧٧ – ٢٩٩ .

ابن عمّار (ابو بكر محمد) ديوانه، جمع وتحقيق صلاح خالص ، بغداد ١٩٥٧

ابن نباتة : سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون (الهزلية) القاهرة .

ابو الوليد الحميري : البديع في وصف الربيع ، تحقيق ونشر هنري بيريز الرباط ١٩٤٠ .

أحمد ضيف : دراسة عن ابن زيدون، ديوان ابن زيدون (تحقيق كامل كيلاني) .

أحمد زكي : دراسة عن ابن زيدون، ديوان ابن زيدون (تحقيق كامل كيلاني) .

احمد مختار العبادي : الصقالبة في اسبانية ، منشورات معهد الدراسات الاسلامية التابع للجمهورية العربية المتحدة في مدريد .

حسين مؤنس : تاريخ الفكر الاندلسي، تعريب لكتاب كونثالث بلانثيا « تاريخ الادب العربي الاسباني » مع شروح وتعليقات ، القاهرة ١٩٥٦ .

الحميدي : جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت ، القاهرة ١٩٥٦ .

دوزي : بنوعباد مجموعة نصوص تاريخية عربية وتعليقات باللغة اللاتينية ، ٣ أجزاء ، ليدن ١٨٤٦ – ١٨٥٣ .

الزجالي : ريّ الاوام ومرعى السوام في أمثال الخاصة والعوام ، مخطوط في مكتبة عبد السلام بن سودة في فاس .

السقطي : رسالة في الحسبة طبعت مع مقدمة من قبل ليفي بروفنسال وكولان ، باريس ١٩٣١ .

السكندري (أحمد) : دراسة حول ابن زيدون ، ديوان ابن زيدون ، تحقيق كامل كيلاني ، القاهرة ١٩٣٢ .

شوقي ضيف : أنظر ابن سعيد المغربي .

صلاح خالص : محمد بن عمّار الاندلسي حياته وشعره ، بغداد١٩٥٧

صلاح خالص : المعتمد بن عباد الاشبيلي ، دراسة أدبية تاريخية ، بغداد ١٩٥٨ .

صلاح الدين الصفدي : تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون (الجدية) .

الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس ، نشر كوديرا (المكتبة العربية الاسبانية) ، مدريد ١٨٨٥ .

عبد الواحد المراكشي : المعجب في أخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان وأحمد العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ .

علي عبد العظيم : ابن زيدون ، القاهرة .

عماد الدين الاصفهاني : خريدة القصر وجريدة أهل العصر، ج ١١ و ج ١٢ مخطوطا المكتبة الوطنية في باريس ومخطوط مكتبة آل كاشف الغطاء في النجف .

عياض (القاضي) : المدارك ، مخطوط مكتبة السيد محمد بن ابي بكر التطواني في المغرب (سلا) .

كامل كيلاني : مقدمة ديوان ابن زيدون ١٩٣٢ ، انظر ديوان ابن زيدون .

المقرى : نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب،تحقيق محيي الدين عبدالحميد القاهرة ١٩٤٩ .

النباهي(ابو الحسن عبدالله) : تاريخ قضاة الاندلس ، نشره ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

المراجع الاجنبية

— Blachère (R) , Le poète arabe al - Mutanabbi et l'Occident musulman in R.E.I. année 1929, 1er vol.

— Cour (A) , Un poète arabe d'Andalousie, Ibn Zaïdoun, Constantine 1920 .

— Croce(Benedetto),La Poésie. Presses Universitaires, Paris. 1951.

— Dozy (R , Histoire des musulmans d'Espagne, Nouvelle édition, mise à jour par Levi Provençal, Lyde 1932.

— Scritorum arabum loci de Abbadis, Leyde, 1846—1853.

— Grenier (Jean),Congrès international d'esthétique,T.I, Paris1949

— Labo (ch.) éléments d'esthétique, ed. Vaibert, Paris 1946 .

— Levi - Provençal ;

  — Histoire de l'Espagne musulmane Ed. Maison-neuve, 1950

  — L'Espagne musulmane au Xème Siècle, institutions et vie sociale, Labrose. 1932 .

  — Péninsule Ibérique, éd. du Caire.

  — Islam de l'Occident, étude d'histoire médiévale, èd. Maison-Neuve, 1948 .

  — Séville mnsulman au début du XIIèmc Siècle, ed,Maison Neuve, Paris 1947.

— Nykle (A. R.) Hispano — arabic poetry and its relations with old provencal troubadours, éd. palemore 1946 .

— Palencia (Gonzalez) , Historia de la literatura arabigo-Espanôla, Collection Labor, 2eme eg. , 1945 .

— Pédal (Menendez) , Espâna de cid, 2e éd. , Madrid, 1942 .

— Pérès (Henri) , La poésie andalouse en arabe classique au XIeme Siècle. ed. Maison neuve, Paris 1937 .

— Petit Dutaillis, La Commune française, Paris.

— Prielo y vines, Los reyes de Taifas estudio historica numismatico de los musulmanes espagnoles en el siglo II de la hegira , Madrid 1926 .

—Valery (Paul) , Variétés , T. V, Gallimard. paris 1945. (1)

(١) حذفنا أسماء بعض المصادر التي كتبت بحروف غير لاتينية لعدم توفر الحروف فى مطابعنا .

المختصرات المستعملة في الحواشي

الذخيرة	:	ابن بسام ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة .
نفح الطيب	:	المقري ، نفح الطيب .
البيان المغرب	:	ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٣
المطمح	:	ابن خاقان ، مطمح الانفس .
المعجب	:	عبد الواحد المراكشي ، المعجب .

H. E. M — Histoire de l'Epagne musulmane, par levi - provençal.
Mus, Esp. — Dozy , histoire des musulmans d'Espagne
Esp. Mus. au XI siècle : Levi-provençal, L'Espagne musulmane au Xème siècle .

فهرس الموضوعات

	صفحة
مقدمة	٥
الدراسة الادبية والتاريخ	٦
انواع الدراسات الادبية	١٢
تاريخ الادب علم	١٢
مؤرخ الادب والنقد	١٧
تمهيد تاريخي	١٩
الفصل الاول	
نظرة عامة على التكوين الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الاندلسي	٢٧
التركيب العنصري للمجتمع الاندلسي	٢٩
مصادرة الثروة وتوزيعها	٣٧
الارستقراطية الاندلسية	٤١
الفلاحون	٤٧
الطبقة الوسطى	٤٩
العامـــة	٥٣
العامة والارستقراطية	٦٥

	صفحة
العبيـــد	٧٠
المرتزقـــة	٧٤
الارستقراطية والثقافة	٧٦
الارستقراطية والادب	٨٠
شكل التعبير الادبي	٨٤
الموضوعات الرئيسية في الشعر الاندلسي	٨٨
المرأة والحب	٩٠
المرأة عند العامة	٩١
المرأة في الوسط الارستقراطي	٩٣
المرأة الحرة	٩٣
الاماء والجواري	٩٦
الرجل والحب في الوسط الارستقراطي	١٠٠
الغزل بالغلمان	١٠٣
الطبيعة في الادب الاندلسي	١٠٥
الفصل الثاني	
استقلال اشبيلية السياسي	١٠٩
انحلال الخلافة في قرطبة	١١١
مملكة اشبيلية المستقلة	١١٦
القاضي ابو القاسم بن عباد	١١٨
ابو عمرو المعتضد عباد	١٢٦
الفصل الثالث	
الحياة الادبية في اشبيلية بين عامي ٤١٤ — ٤٦١	١٣٣
ادب الارستقراطية	١٣٥

	صفحة
بنو عباد والشعر	١٣٨
المعتضد الشاعر	١٤٠
ابو عامر بن مسلمة	١٥٣
ابو جعفر بن الابار	١٦١
ابو بكر بن القوطية	١٦٤
ابو الوليد الحميري	١٦٥
الادب في الطبقة الوسطى	١٦٧
ابو الوليد بن عبد العزيز المعلم	١٦٩
علي بن حصن الاشبيلي	١٧١
ابو الوليد بن زيدون	١٧٣
مراجع البحث المهمة	١٨٧
فهرس الموضوعات	١٩٧

مطبعة سميا
بيروت - لبنان